رواد الفلسفة الأمريكية

تأليف

تشارلز موريس

ترجمة

دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

قسم الفلسفة

1996

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

رواد الفلسفة الأمريكية

تأليف

تشارلز موريس

ترجمة

دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

قسم الفلسفة

1996

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

العنوان الأصلي للكتاب

The Pragmatic Movement
in the American Philosophy

by

Charles Morris

1970

مقدمة المترجم

تشارلز موريس (1901) Charles Morris فيلسوف أمريكي، تشابكت في مذهبه عناصر البرجماتية والوضعية الجديدة Neo - Positivism ومن أهم مؤلفاته ما يلي :

1 - ست نظريات في العقل (1932)

Six Theories of Mind

2 - أسس نظرية العلامات (1938)

Foundations of the theory of Signs

3- دروب الحياة : مقدمة في عالم الدين (1942)

Paths of life.Preface to a world Religion

4 - الإشارات واللغة والسلوك (1946-1955)

Signs, Language, and Behavior

5 - النفس المفتوحة (1948)

The open self

6 - تنويعات القيمة الانسانية (1956)

Varieties of Human Value

7- المعنى والمغزى : دراسة في علاقات العلامات والقيم (1964)

Signification and Significance: A study of the relations of signs and values.

8 - المهرجان Festival (1966)

وقد اشترك موريس مع تشارلز بيرس وآخرين في وضع أسس ودراسات موسعة خاصة ببحث الإشارة «السيميوطيقا» Semiotic وتقسيمها إلى إشارات لغوية وغير لغوية تنقسم إلى علامات وهذه بدورها تنقسم إلى غيرها مما ساعد على ظهور علم السيمنطيقا (علم المعانى) Semantics .

ويقول الدكتور عادل فاخورى عن اسهامات تشارلز موريس ما يلي :

«مع ظهور كتيب تشارلز موريس Ch. W. Morris «أسس نظرية العلامات»(1938) Foundations of the theory of signs تلقت السيمياء ، دفعًا جديداً نحو التوسع والترسخ . أمام تعدد المقاربات السيميائية، أراد المؤلف أن يقيم بنية نظرية بسيطة تجمع بين هذه المقاربات، وتوحّد ليس بين العلوم الإنسانية فحسب ، بل بين كل العلوم. وقد اعتمد لذلك على منهج يوفق بين المذهب الذرائعي الامريكي والتجريبية المنطقية الالمانية في كتابه «العلامات واللغة والسلوك» Signs, Language and Behavior الصادر سنة 1946 ، يحاول المؤلف تفصيل المفاهيم السابقة والتدقيق فيها ، متوسلا نظريات سلوكية أكثر منهجية وتطوراً، تتيح له أن يتلافى الإشكالات الناجمة عن التفسير السلوكي الساذج. وأخيراً في كتاب «المعنى والمغزى» 1964 Signification and significance ، انطلاقا من مفهوم العلامة، يتطرق موريس إلى البحث في موضوعات مستجدة في الفلسفة وعلوم اللسان والقيم والجمال ... الخ [١]».

والكتاب الذي بين أيدينا الآن صدر عام 1970 لتشارلز موريس بعنوان :

---

(١) د. عادل فاخوري «تيارات في السيمياء» ، دار الطليعة ، بيروت ، نوفمبر 1990، ص 70 .

الحركة البرجماتية في الفلسفة الامريكية The Pragmatic Movement in the American Philosophy عن دار نشر «جورج برازيلر» George Braziller بنيويورك ، وقد رأينا أن عنوان «روّاد الفلسفة الأمريكية» يتلاءم اكثر مع مفاهيم الثقافة العربية التى تختلف قطعًا عن مفاهيم الثقافة الامريكية، فضلا عن أن موضوعات الكتاب نفسه تقف في صف هذا الاختيار، كما يتفق معى تشارلز موريس نفسه في ذلك على الرغم من أننا لم نلتق الا عبر كتبه ومؤلفاته لقاءات مفيدة غير مباشرة ، كيف ؟ الاجابة يجدها القارىء العربي الكريم في مقدمة الكتاب التى صاغها موريس بوضوح حيث يقول في بعض منها : «يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسية لأربعة فلاسفة أمريكيين هم : تشارلز ساندرز بيرس ، ووليم جيمس ، وجون ديوى ، وجورج هربرت ميد....» .

ويحتوى الكتاب على ستة فصول فضلاً عن الملاحق .

يتناول الفصل الأول موضوع الحاجة إلى الفلسفة وملامح الفلسفة الامريكية . بينما يتناول الفصل الثاني نظرية العلامات البرجماتية بادئًا بمشكلة التعريف البرجماتيةونظرية العلامات عند بيرس والقضية البرجماتية بين بيرس وجيمس ، واتجاه جورج ميد نحو دراسة اللغة والسلوك الاجتماعي من منظور فلسفة علم النفس الاجتماعي .

أما الفصل الثالث فيركز فيه موريس على علم المناهج البرجماتي خاصة لدى بيرس وجيمس وديوى ثم تصور ميد لموضوع علم المناهج البرجماتي .

وينتقل موريس إلى الفصل الرابع فيتحدث عن علم القيم البرجماتي ومكانتها في الفلسفة الامريكية، مع تركيزه على علم الاخلاق عند ديوى وعلاقته بالنظرية السياسية الأمريكية ، وعلاقة القيم بالدين .

وأما الفصل الخامس فيتناول فيه موريس وجهات نظر الفلاسفة البرجماتيين

الأوائل عن علم الكون ومكانة الخبرة فيه ، بالاضافة الى علاقة علم الكون بالنزعة المثالية التطورية واسهامات ميد في هذا النوع من الدراسات حيث أشار إلى النسبية الموضوعية ومكانتها في علم الكون.

وراجع موريس في الفصل السادس مكانة الفلسفة البرجماتية الحالية، ووحدة الحركة البرجماتية ومنزلتها في الولايات المتحدة والفلسفة الأوربية المعاصرة، بالاضافة إلى اعتبار البرجماتية مرآة تعكس الثقافة والقيم الأمريكية .. فالفلسفة حقًا مرآة المجتمع الذي توجد فيه، أورد فعل لأحداث تقع فيه وليست خارجة عنها ، أو مفارقة له، لذلك فتعبير أن «الفلسفة تعيش في أبراج عاجية» تعبير يجانبه الصواب تمامًا لأن الفلسفة والفيلسوف نابعين من المجتمع، ويضربان بجذورهما في هذا المجتمع أو البيئة الاجتماعية التى أوجدتهما ، وهذا يعيد للأذهان موضوع استيراد الأفكار الفلسفية السابقة التجهيز Pre-fabrication من مجتمعات تختلف عن المجتمعات التى تقوم باستيرادها كما نفعل نحن هنا في الشرق العربي مما يجعل النبت مجدب لا يثمر لأننا نحاول زراعته في تربة لم يخلق له، ولم يتهيأ لامتصاص جذورها لتضرب في اعماق الأرض، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فتبدو هزيلة عقيمة، لا تسمن ولا تغنى من جوع، ويبدو معتنقيها كأنهم أعجاز نخل خاوية، يحاولون أن يتطاولوا إلى عنان السماء، فوق مواطنيهم وفوق أفكار وعادات وأديان مجتمعاتهم ، فلا يجدون غير الهباء المنثور، وأحلام عابثة ماجنة، وتتحول أفكارهم بمرور الزمن إلى نباتات مسمومة تضر ولا تنفع، تعود عليهم بالخراب، ويوم يودعوننا نودعهم غير مأسوف عليهم، تلاحقهم اللعنات، يرحلون بأعمالهم الطالحة ومحسوبة عليهم .

وينتهى بنا كتاب موريس إلى ملاحق تنقسم إلى جزئين يتناول الجزء الاول مباحث ثلاثة هي : جون ديوى معلمًا ، وعلاقة البرجماتية بالعلوم الانسانية،

ومدرسة شيكاغو الفلسفية. أما الجزء الثاني فيعرض لبعض أعضاء مدرسة شيكاغو الفلسفية المؤسسين وهم أربعة : أديسون مور ، وجيمس توفتس ، وادوارد آمز، وجورج ميد .

وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أنه يقدم لنا شروحًا وتفسيرات عميقة للفلسفة الأمريكية، يزيد من أهميتها وعمقها أن من يقدمها فيلسوف أمريكي، وأستاذ للفلسفة في الجامعات الامريكية ، تتلمذ على أيدى كبار مؤسسى الفلسفة الامريكية بحق، فقد كان تلميذاً مباشراً لبيرس وجيمس وديوى وميد ، فضلا عن صداقته وزمالته لهم ولأعضاء مدرسة شيكاغو الفلسفية مما يثرى العمل الذي قام به موريس ، كما أنه اعتمد اعتماداً مباشراً أيضا على أعمالهم ولم يعتمد كثيراً على كتب النقاد الآخرين مما يجعله ينقل وجهات نظرهم لا وجهة نظره هو ذاته، الأمر الذي يختلط معه وجهات النظر، وتضيع فيها معالم أصالة المؤلف وجهده الذي يشكر عليه . بالاضافة إلى إسهاماته الرائعة في مجال فلسفة اللغة والدراسات المنطقية اللغوية التى أرسى دعائمها بيرس وتقدم بها موريس خطوات ذات قيمة، أتمنى أن أعرضها مفصلة على القارىء العربي في وقت قريب.

وأرجو أن ينال هذا الكتاب عناية القارىء وأن يساعده على فهم وتعمق الفلسفة البرجماتية وأبعادها وموضوعاتها اللصيقة بها ، وأن يكون كذلك أداة مساعدة تمد يد العون الى الباحثين حتى يستفيدوا منه ويتعمقوا أفكاره ويحاولون تقديمها الى القارىء العربي بوعى وتفتح ، حتى يأخذ خير ما فيها ، وينبذ أسوأ ما فيها ، مما يمكنه من مشاركة العالم في مد شريان الحضارة الانسانية الذي لا ينضب له معين بعصارة عربية خالصة، طالما مدت هذا الشريان في الماضى بأسباب التقدم والرقى ولولا ما قدمه العرب المسلمون من اسهامات

عظيمة مبتكرة ما تقدمت الحضارة الغربية كل هذا التقدم ، انها بضاعتنا ترد الينا ، وياليت الفضل يعود إلى أهله حتى يكون العلماء والأدباء والفلاسفة بحق هم حملة مشاعل التنوير القائمة على الحق والعدل والصدق والأمانة العلمية والأخلاقية.

وكفانا الله العظيم رب العرش العظيم شر سموم العلمانية وأتباعها المغرضين، وشر أشواك مدّعى العلم والثقافة الآكلون على كل الموائد، وهم كثير، يتزاحمون في الساحة كأنهم جراد منتشر ، ما يلبث غير ساعة حتى يزول ويندثر، ويرحل بشره وأشراره، ولا يصح بعد ذلك إلا الصحيح ، أما الزبد فيذهب هباء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض حلالاً طيبًا ، يؤت أكله كل حين بإذن الله .

واشكر الله على ما أعطى وما منع شكراً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه... وأحمده حمداً طيبا مباركًا دائمًا بعدد خلق ، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وواسع رحمته .. انه على كل شيء قدير واليه المصير.

والله الموفق وهو وراء القصد ينير لنا السبيل .

الاسكندرية : 27 جمادى الآخر 1416 هـ

الموافق : 20 نوفمبر 1995 م

دكتور / ابراهيم مصطفى أبراهيم

الإهداء ..

إلى أستاذي الفاضل ... وأخي الكريم .. الذي جمعني به الحب في الله.. والعمل على ارضاء الله .. الذي أعطى ولم ينتظر الشكر .. فأوفى ... ومنح دون أن ينتظر الجزاء ... فزاد ....

جزاه الله تعالى عني خير الجزاء ... وجعله كما كان دائمًا قدوة حب ووفاء وعلم وخلق .. انه نعم العبد الصالح .. رضى الله عنه وأرضاه .. وشمله وأسرته الكريمة بعنايته ورحمته ومغفرته ورضاه ..

إلى الأخ الحبيب :

السيد الاستاذ الدكتور **محمد محمد قاسم**

إهداء وفاء وود وتقدير

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسية لأربعة فلاسفة أمريكيين هم : تشارلز ساندرز بيرس ، ووليم جيمس ، وجون ديوى ، وجورج هربرت ميد ، وقد وضع الكتاب على اساس الاعتماد المباشر على كتاباتهم، التى أخذت منها مقتبسات شاملة، تركزت في هذا الكتاب على أفكارهم وعلاقاتها المتداخلة لهذا السبب فالكتاب لا يتناول بداية تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس تفسيراً لعلاقة البرجماتية بالثقافة الأمريكية، كما أنه ليس خلاصة وافية لبحث يتناول هذه الفلسفة، وقد تدخل كل هذه الموضوعات في المناقشة، ولكن بطريقة عرضية.

إذن فإننى اكرر أن لُب هذه الدراسة يركز على أفكار بيرس، وجيمس ، وميد، وديوى . ما هى الأفكار الأساسية لهؤلاء الرجال؟ وما هي أوجه الشبه فيما بينهم ؟ وما هو المصدر الذي يكشف عن التنظيم الذي خلفه؟

إن هذا الكتاب محاولة جادة لتناول مثل هذه الموضوعات تناولا نقديا، ولهذا يحتاج القارىء للتمعن في قراءة الموضوع نفسه . ونحب أن ينظر لهذا الكتاب كعمل يتم في إطار الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس مجرد كتاباً عنها.

وقد تعاون معى في هذا البحث مساعدين في بداية حياتهم (العملية)، ساعدوني بطريقة أو بأخرى لكى أجمع محتويات هذا الكتاب وهم : الدكتور فرد برجر Fred R. Berger ، والدكتور دنيس أودنوفان Denis O'Donovan ، ودانيال هاملتون Danial Hamilton ، وواين شيربرون B. Wayne Shirbroun

، وفرنك سيادينى Frank Sciadini ، وجان سوجالسكى Jan Sugalski وكريستوفر ستورر Christopher Storer ، وايفان جوب Evan Jobe ، والدكتور فيليس ميك Phyllis Meek ، وتايسون ريتش Tyson Ritch ، وديان هاون Dian Haun .

وانني مدين لهم جميعا بالعرفان الجميل على ما قاموا به من اسهامات. كما ساعدنى سيدنى بوديتSydney Beaudet في الطباعة النهائية ، وجّهز ديان هاون فهرست الكتاب، فضلا عن ديبى أيضا لزميلى البروفسور جورج بارلت George R. Barlett لتعليقاته النقدية على مسوداتى المبكرة .

تشارلز موريس

الفصل الاول

الحاجة الى الفلسفة البرجماتية الامريكية

الفصل الاول
الحاجة إلى الفلسفة البرجماتية الامريكية

١ - الحاجة الى الفلسفة :

P.3 كتب «ولاس ستيفنس» Wallace stevens : «إن القصيدة هى صرخة الداعى (الحاجة) إلى كتابتها» . ومن العدل أن نعبر عن موقف البرجماتيين بنفس الطريقة : «فالفلسفة هى صوت الداعى إليها أو الحاجة إليها.» أنها بحث أشخاص معينين موجه نحو حل مشكلات معينة لديهم تحت ظروف اجتماعية وشخصية بذاتها. ولا أعتقد أن جيمس سيختلف معى في شأن هذه العبارة ، بل إن جون ديوى قال بأكثر منها (ولكن دون التأكيد على العامل الشخصي بعينه) :

«إن عمل الفلسفة قديمًا وحديثًا هو تناول تنظيم تلك المجموعة من»
«التقاليد التى تشكل العقل الفعلى للانسان نحو الاتجاهات العلمية»
«والتطلعات السياسية التى تعد غريبة ومتعارضة مع تلك»
«التى تقول بها السلطات . والفلاسفة جزء من حركة التاريخ» ،
«ويشتركون في صنع مستقبله بمعنى ما ، ولكنهم بالتأكيد يعبّرون»
«عن ماضيه» (1)

---

(1) جون ديوى ، « الفلسفة والحضارة» ، ص ص 3 - 4 .

P. 4 وأعترف أن اعتبار الفلسفة صوت الداعى (الحاجة) إليها يعتبر جزءاً من القصة فقط ، فهناك أشخاص مختلفون في أوقات مختلفة لهم مشكلات متشابهة الى حد ما وبسبب هذا تستطيع الفلسفة أن تثبت أنها وثيقة الصلة بموضوعها بصرف النظر عن الداعى اليها تماماً مثل أية قصيدة أو نتيجة لتجربة علمية. وأبعد من ذلك ، فهناك تساؤلات هامة يمكن أن تثار حول الفلسفة ولا تتضمن اية اشارة الى اعتبارات اجتماعية أو شخصية أدت الى نشأتها ، ولكن اذا منحناها هذه الصفات فإنها تظل حقيقة أن احد إيضاحات الفلسفة هو أن نسأل ما هى المشكلات التى تحاول حلها ولأى من الناس وتحت أى اعتبارات .

وهناك معنى ثانٍ ووثيق الصلة بالموضوع - وأعتقد أنه شائع بالنسبة لجميع البرجماتيين الامريكيين - وهو وجهة النظر التى ترى أن كل مشكلة (سواء أكانت فلسفية أم غير فلسفية) هى مشكلة محددة وتحدث في وقت لا تشير الملامح الحالية إلى وجودها. فليس كل شيء يمكن أن يكون مشكلة للوهلة الأولى: فالمشكلات يمكن حلها فقط داخل إطار ما تحتويه من المعانى والمعتقدات المقبولة دون تساؤل، فما نعده إشكالية في موقف ، قد لا يصبح مشكل في موقف آخر، ولكن هذا النسيج الجديد سيحتوى بدوره على جزءٍ من الإشكالية (السابقة) .

واعتقد ان كلا الموقفين مطلوب وهذا ما نجده في النظرية البرجماتية للبحث، وهو موضوع آخر سيتم معالجته بالتفصيل. وقد ذكرتهما هنا فقط لارتباطهما بفهم الفلسفة البرجماتية ذاتها. واذا كان البرجماتيون قد طبقوا هذه الموضوعات في تحليل فلسفاتهم فإنه من العدل والمناسب تطبيقه على فلسفتهم ذاتها.

P.5 2 - أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين :

يعتقد أن هناك أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين في تاريخ الفلسفة الذي تعد البرجماتية إحدى فلسفاته ، وأن قبول البرجماتيين لها يساعد على تفسير الوحدة في الحركة البرجماتية، وفي نفس الوقت تتجلى بعض هذه الملامح لدى بعض البرجماتيين دون غيرهم، وهذه الحقيقة (تتعلق بمشكلات خاصة لدى البرجماتيين كأفراد) تساعد على حصر مثل هذه الفروق كما هي واقعة في الحركة. وبهذه الطريقة فإن كلا من الوحدة والتنوع داخل إطار الحركة البرجماتية الامريكية يمكن أن تجعلها مفهومة من الناحية التاريخية، فهي كالأمة الأمريكية ترفع شعار : الوحدة في الكثرة e pluribus unum وهذه الملامح الأربعة كما تبدو في تطور الفلسفة البرجماتية هي كالآتي :

أ - المكانة التى تمتع بها العلم والمنهج العلمى في منتصف القرن التاسع عشر .

ب - قوة تطابق النزعة التجريبية في الفلسفة المعاصرة .

جـ - قبول نظرية التطور البيولوجي .

د - قبول مُثل الديموقراطية الأمريكية .

قَبِلَ البرجماتيون هذه العناصر الأربعة الأساسية (المنهج العلمي - النزعة التجريبية الفلسفية - البيولوجيا التطورية والمثال الديموقراطى) التى أصبحت تشكل نسيج «الإشكالية» التى أبرزتها المشكلات الفلسفية للبرجماتية الأمريكية وشكّلت إطار العمل الذي تناولته مصطلحاتهم والحلول المقترحة لها والتى على أساسها يتم الحكم عليها. لقد تكوّن هذا النسيج من تلك الملامح الأربعة معًا، يمكن ان تميز اتجاه تطورها الفلسفي . وقد أثّرت هذه العناصر P.6 الأربعة على معظم البرجماتيين ولكن بدرجات متفاوتة ، فكان تأثير المنهج العلمى أكثر وضوحًا عند تشارلز بيرس ، بينما كان تأثير النزعة التجريبية الفلسفية أقوى لدى وليم جيمس ، وكانت المواجهة حادة مع البيولوجيا التطورية

لدى جورج ميد، وترك مثال الديموقراطية الامريكية بأُوجهه المختلفة سيطرته على جون ديوى .

وتركت الانتصارات التى حققها المنهج العلمى في القرن التاسع عشر بدرجة كبيرة تأثيرها، كما قويت النظرية النيوتونية في الطبيعة بما حققه علمّى الجيولوجيا والفلك من إنجازات ، مما أعطى للمنهج العلمى مكانة عظيمة لما أحرزه من نتائج. وكان تشارلز بيرس (1839- 1914) مؤسس البرجماتية ، قد تمرس ككيميائي قضى معظم حياته كعالم مجتهد، ومحترم، وناجح [2] . ومما لا يبعث على الدهشة أن بيرس في بحثه «تثبيت الاعتقاد» The fixation of Belief بعد أن طوّف بمعظم المناهج التى تكوّن اعتقادات الإنسان، اعتبر أن المنهج العلمى هو المنهج الأسمى، وليس بمستغرب أنه رغب في تطبيق هذا المنهج على الفلسفة ذاتها. وكما سنرى فإن الصيغة التى قال بها وهى «القضية البرجماتية» Pragmatic maxim هى محاولة من جانبه لإرساء أساس «الفلسفة العملية» [*] scientific Philosophy ، على أساس القضية التى

---

(2) كتب بيرس عن العلم في عصره ما يلى :

صدر «أصل الأنواع» في نهاية 1859، وقد كانت السنوات السابقة عليه منذ عام 1846 من أكثر السنوات خصوبة، وقد امتدت حتى شملت تاريخ صدور هذا الكتاب الكبير ، فإننا نعتقد أن أكثر الأزمنة خصوبة تشمل تاريخ العلم كله منذ بداياته الأولى وحتى العصر الحالى». (المجموعة الكاملة ، المجلد السادس ، الفقرة 97).

واستمر بيرس يعدد الانجازات العلمية لتلك الفترة الخصبة .

(*) مصطلح يراد به رد الدراسات الفلسفية للعلوم الى تحليل لغاتها بوسائل المنطق الرياضى ويرد أصحابه المفاهيم والاحكام العلمية إلى خطوات المنهج العلمي ، إذن فهو مصطلح يختص باستخدام المنهج العلمى ومحاولة تطبيقه على الدراسات الفلسفية . (المترجم) .

طوّرها وليم جيمس وأطلق عليها تعبير «البرجماتية» . وكان التقدير الكبير الذي ناله المنهج العلمى جزءاً من نسيج الاشكالية الفلسفية لدى معظم البرجماتيين الأمريكيين .

وبينما كان العلم يتمتع بمكانة سامية في ذلك الوقت ، كان الاعتقاد القديم بأن الفلسفة لها مكانتها العليا (بل ربما مكانة أعلى) قد بدأ يضمحل . وأصبح الانسان «بالعقل الخالص» وحده قادراً على وصف الطبيعة المطلقة للكون والتى P. 7 وضعت في صورة تساؤلات في أعمال كل من ديفيد هيوم وايمانويل كنط . وكان من نتيجة تحليلاتهم أن قويت مكانة النزعة الامبريقية (التجريبية) في الفلسفة، وأنه يجب زعزعة كل النظريات التى يُستدل بها على العالم واخضاعها «للخبرة» التى يمكن «ملاحظتها» فالمنهج العلمى نفسه منهجًا تجريبيًا بمعنى أنه في الوقت الذي يسمح فيه بقدر كبير من الشجاعة في تكوين النظريات، فإن هذه النظريات يجب التحقق منها عن طريق المعطيات التى تم اختبارها، وبهذا المعنى فإن كل البرجماتيين كانوا تجريبيين. ومع ذلك فقد كان وليم جيمس (1842 -1910) هو الذي أكدّ بشدة على مقولة الخبرة ، مقترحًا منهج «التجريبية الأصيلة» The Radical Empiricism ، وتصور الواقع على أساس أنه «عالم الخبرة الخالصة». وهذا التأكيد يتفق تمامًا مع الحقيقة المعروفة بأن جيمس تدرب فترة كبيولوجي ثم أصبح سيكولوجيًا، وتطورت المكونات النظرية بدرجة أقل مما تطورت بها العلوم الفيزيقية، كما يتفق هذا مع تعاطفه القوى مع رواد الفلسفة السابقين عليه وهما التجريبيان الإنجليزيان ديفيد هيوم وجون

ستيوارت مل (*) ، ومع ذلك فقد كانت تجريبية جيمس تزداد توجهًا نحو البيولوجيا (Biology) أكثر من توجهه المتزايد نحو نصوص الفلسفة الانجليزية التقليدية ، وبدأ يشعر بتأثير دارون على الفاسفة .

وكان قبول البيولوجيا التطورية هو المؤثر الثالث بين المؤثرات التى واكبت ظهور الفلسفة البرجماتية الأمريكية، فقد تقبل كل البرجماتيين الكبار النظرية القائلة بأن الإنسان انحدر - كنوع - من الكائنات الحية (الأقل) خلال عملية تطورية طويلة، وكانت البرجماتية - بلا شك - فلسفة ما بعد الداروينية، وكانت
p.8 النزعة التجريبية التى اتسمت بها هذه الفلسفة نزعة تجريبية بيولوجية، حتى «الخبرة» ذاتها جاءت متطورة على اعتبار أنها متضمنة في عالم الكائن الحى، ومع ذلك نشأ عن قبول البيولوجيا التطورية، مشكلة فلسفية هامة وهى : كيف نفسر العقل الانساني والمعرفة الإنسانية والذات الإنسانية والأخلاق الإنسانية في ضوء الموقف التطوري ؟ وكا ن هذا التساؤل ذو أهمية أساسية بالنسبة للبرجماتيين، وصدرت معظم المعالجات التى تناولت هذه المسائل عن هربرت ميد (1863 - 1931) ، مما شكّل أحد الإنجازات الهامة للحركة البرجماتية .

وتطلبت منهم صيغ هذه النظريات حول العقل الإنسانى والذات الإنسانية تقديم العامل الرابع المكون للحركة البرجماتية : الديموقراطية الأمريكية. وباعتبارهم أعضاء في ثقافة وليدة تحاول أن تبنى نفسها في بيئة سخية ومتمردة، فقد شعر هؤلاء الرواد الأمريكيون أنهم الأشخاص الذين يقع عليهم

(*) جون ستيوارت مل (1806 - 1873) John Stewart Mill فيلسوف ومنطقى واقتصادي انجليزي، من المعتقدين في المذهب الحسى ، ومن ممثلى الوضعية ، أهم مؤلفاته :«المنطق القياسى والاستقرائي» (1843) و «مبادىء الاقتصاد السياسي» (1848) و «أوجست كونت والفلسفة الواقعية»(1865) وغيرها ... (المترجم) .

عبء الفكر والعمل على مسئولياتهم ، وأنه يجب عليهم أن يقيموا لأنفسهم مجتمعًا جديداً ومقبولاً ، وكانوا هم، أو أسلافهم يعيشون في مجتمع أوربى ذو تقاليد يهودية/ نصرانية Judeo-christian وهذا المجتمع يركز بصفة أساسية على الأشخاص ، واستمر تفكيرهم حول المجتمع الجديد يردد نفس النغمة الأخلاقية والنظرية المثالية .

وكنتيجة لهذا الفكر ، فإذا كان التطور البيولوجي قد قبلوه، فإن هؤلاء (المفكرون) الأمريكيون يفضلون التفسير التطورى عن الإنسان الذي يجيء متسقًا مع الحرية الإنسانية والمسئولية الأخلاقية ، وكان تناول ميد للعقل والذات الإنسانية من هذا النوع ، وهو يتفق بصورة بارزة مع التفسير الأخلاقى (كتفسير مختلف عن التفسير السياسي والاقتصادي الخالصين) الذي أعطاه جون ديوى (1859 - 1952) للديموقراطية الأمريكية . وكتب ميد[*] : «إن جون ديوى هو فيلسوف أمريكا بالمعنى العميق لهذه الكلمة» [3] ، ويمكن تطبيق هذا الوصف على ديوى إذا أخذنا في اعتبارنا النظرة الأخلاقية أو المثالية لتفسير ديوى للديموقراطية الأمريكية. ولا معنى للبرجماتية إذا حاولت التعبير أو تكييف كل p.9
وجهات النظر التى وردت في تاريخ الولايات المتحدة بعيداً عن تفسير ديوى .

هذه العناصر الأربعة على تعددها، إذا أخذناها معًا، فإنها تعطى البرجماتية الأمريكية هذه المكانة والروح (الأسلوب) المتميزة، وهى ما يميزها عن الفلسفات

(*) جورج هربرت ميد (1863 - 1931) فيلسوف وعالم نفس اجتماعي أمريكي معاصر، من أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو المؤثرين ، ومن أهم أعماله «في علم النفس الاجتماعي» و «مشكلة الوعى» و «فلسفة الفعل» و «فلسفة الحاضر» .

(3) جورج هربت ميد ، «فلسفات رويس ، وجيمس ، وديوى في إطارها الأمريكي»، ص 231.

الأخرى التى ظهرت فيما بعد الداروينية. [4]

3 - البرجماتية ، والفلسفة العملية ، والفعل

لن نهتم هنا بتقديم تعريف لمصطلح «البرجماتية» ولكننا سنهتم فقط ببعض الاعتبارات الأولية . كتب بيرس أنه استخدم مصطلح البرجماتية بتأثير كتاب كنط «نقد العقل الخالص» مجموعة الأبحاث ، المجلد الخامس ، الفقرة3) ، وقد استخدمه كنط لكى يعبر به علاقة تحديد بعض الأهداف الإنسانية بعضها بالبعض الآخر .

واستمر بيرس يقول :

«والآن فإن العنصر اللافت للنظر أكثر بالنسبة للنظرية الجديدة هو تعريفها»
«للعلاقة المتصلة بين المعرفة العقلية والهدف العقلي ، وبهذا الاعتبار»
«فإنه يحدد أفضلية اسم البرجماتية» .

(مجموعة الابحاث ، المجلد الخامس ، الفقرة 412) .

وقد فضّل بيرس مصطلح «البرجماتية» على مصطلح «المذهب العملى»

---

(4) نلاحظ أن هذه العناصر الاربعة ، غير المشكوك فيها، لم تطور فقط الإطار الذي حوى الفلسفة البرجماتية الأمريكية، ولكن يمكن أن يقال أن تفاعلها معًا ساعد على إيجاد بعض الترجيحات التى حسبت لها، لذلك نجد في الفلسفة البرجماتية بعض النصوص عن الفلسفة التجريبية (مثل الفينومينولوجيا) جنبًا الى جنب مع نصوص أخرى عن النزعة الطبيعية Naturalism وكليهما متضمن في قبولهم للبيولوجيا التطورية (علم الأحياء التطوري) . وقد وجد أن بعض تفسيرات دارون تتحداهم أن يقبلوا ما أسموه «المثل الديموقراطية» Democratic ideals ، إلا أنها تصدق أيضا عندما تنظر في تفسيرات العلم التى تؤكد بقوة على مبدأ الحتمية Determi-nism . ولكن يوجد - بوجه عام - بعض الترجيحات بين هذه العناصر الأربعة، ويعود السبب في ذلك الترجيح بين أهمية العلم والتأكيد على الاشخاص ذاتهم. ومن هنا فالفلسفة التى تقبل جميع الاتجاهات (العناصر) الاربعة سوف تفسر كل منها بحيث يجيء التفسير منسجمًا فيما بينها، والطريقة التى تمت بها هذه التفسيرات تمثل جزءا هامًا من قصة الفلسفة البرجماتية .

هـو Practical «العملي» (مـجـال البـحث) أن أدرك أن منذ Practicalism «مجال للفكر حيث لا يوجد عقل من النوع التجريبي (مثل عقل بيرس) يمكنه أن يتأكد من صلابة الأرض تحت قدميه (المجلد الخامس الفقرة 412) ، لذلك فإن p.10
البرجماتية بالنسبة لبيرس لا تتعلق بما هو «عملي» ولا مع كل ما يتصل بالعمل أو الممارسة Practice ، ولكنه يتصل بالطريقة التى للمعرفة (المعرفة العقلية) علاقة بالعمل (الفعل) أو السلوك الانساني (الغرض العقلى) Rational purpose. هذا التمييز بين البرجماتية والنزعة العملية الذي أصر عليه بيرس (متّبعا في ذلك خطى كنط) هو بالطبع ليس من النوع الذي تراه في الكلام العام، كما تشاهد ذلك لدى الاتجاه الشعبى (وعلى وجه الخصوص ما نراه اليوم في (الكتابات السياسية) الذي يخلط بين البرجماتية وبين النزعة العملية .
ومن المثير أن نعرف أن مصطلح «البرجماتية»، يستخدمه البرجماتيون بدرجة أقل كثيراً في كتاباتهم ، حتى وليم جيمس اعتقد أن هذا المصطلح سيء الحظ فكتب يقول :

«عليّ أن أعترف أن مصطلح «البرجماتية» بكل ما يقترحه من أفعال»
«كان اختياراً سيئًا، وقد تناوله النقاد كما لو كا ن استخدامه محصوراً »
«بين المهندسين والأطباء ورجال المال ، ورجال الأعمال بصفة عامة»
«هم الذين يحتاجون الى بعض أنواع الصيغ الجاهزة والأولية ، ولكنهم»
«لا يملكون الوقت لدراسة الفلسفة الأصيلة. وعادة ما يوصف مصطلح»
«البرجماتية بأنه حركة أمريكية متميزة ، نوع من المشروع العقلي »
« (الفكرى) الناقص ، فهو يناسب بدرجة ممتازة رجل الشارع، الذي يكره»
«- بطبيعة الحال - النظرية ويريد العائد الفورى مباشرة» . (5)

---

(5) وليم جيمس «معنى الصدق» ص ص 176 - 177.

إن العمل الإنساني لدى البرجماتيين هو بالتأكيد موضوع اهتمام رئيسي وبرغم ذلك فإن هذا الاهتمام لا يتركز على «حركة» أو «نشاط» على سبيل المثال، كما أنه لا يتعلق بأية تأثيرات للأفكار على الحياة الإنسانية، فضلا عن عدم تعلقه بأية نظرية كاملة عن الطبيعة الإنسانية، إنه يتركز بصفة مبدئية (ولكنه ليس شاملا) على جانب واحد من السلوك الانساني . العمل الذكي، العمل الهادف أو السلوك الذي يبحث عن هدف ما يتأثر بالفكر. وغالبًا ما كان بيرس يسمى هذه الفكرة «التصرف الذي يتم التحكم فيه بطريقة ذاتية» Self-controlled conduct ، أو السلوك (التصرف)(*) المحكوم بتداوله

(*) يأتي السلوك بمعنى Behavior بعدة معان :

1- فهو طريقة التصرف او العمل (كيف يسلك)) كأن نقول ان سلوكه كان مستهجنًا .

2 - التصرف او السلوك Manner الذي يسلكه الشيء تحت ظروف معينة، مثل تصرف الفحم اذا وقع عليه ضغط .

3- وفى علم النفس الأفعال أو الاستجابات التى تصدر عن الكائن الحى .

4 - ويأتى بمعنى الطريقة التى يعبر بها الانسان والحيوان عن شخصياتهم او نشأتهم ، فالإنسان هو الذي يعتذر عن سلوكه السيء.

5 - وهو التصرف المتأثر بنظم معينة او طبقًا لواجبات او التزامات ما ، مثل تصرف الجندي في موقف بعينه.

6 - وعلم السلوك Behaviorism هو نسق علم النفس الذي يركز على السلوك الخارجي الملاحظ أكثر من تركيزه على النشاط الذهنى او العقلي ، كمصدر صالح للمعلومات العلمية .

(Macmillan Dictionary, New York, P. 88)

كما يأتى السلوك بمعنى التصرف Conduct وهو :

1- طريقة التصرف أو العمل ، السلوك الشخصي مثل أن نقول بأن سلوك التلميذ في الحفلة المدرسية كان رائعًا .

2 - تنظيم او ادارة خاصة في مجال الأعمال .

3- عملية القيادة او الارشاد .

(المصدر السابق ص 209 - المترجم) .

تداولا مناسباً Controlled by adequate deliberation (المجلد الثامن الفقرة 322) . وكتب بيرس ان نظريته (التى أسماها في نهاية الأمر باسم p.11 البرجماطيقية Pragmaticism ، على اساس دراسة مؤداها أن خبرة ظواهر ضبط النفس Self -Control المعروفة لدى جميع البالغين رجالا ونساءً، والتى تبدو واضحة لفترة ما، هى - على الأقل - موضوعة على أساس دقيق، لأنها بالنسبة لتصورات السلوك الحر تحدد الخلاصة الذهنية (العقلية) للرموز Symbols ويعنى تحرر التصرف (او السلوك Conduct) أن يتم التحكم في التصرف عن طريق ضبط النفس . (المجلد الخامس الفقرة 442) (6).

وهكذا فان الإنسان المفكر ، الإنسان الذي يتصرف بذكاء ، هو محور اهتمام البرجماتيين ، وهذا التأكيد يتسق بوضوح مع التطور التاريخي للبرجماتية، وقد رَحّب المنهج العلمى بمثل هذا النشاط ، لذلك نال النشاط الذكى الاهتمام عن طريق جمع المعلومات بالملاحظة ، كما ان التوجه التطورى يفضل النظر الى الذكاء في علاقته بشكلات الفعل (العمل) في البيئة ، وتعاطفت أمريكا التى تتطور بسرعة مع النظرية التى نظرت الى الانسان الذي يوجه مستقبله باستخدام الذكاء .

وكان إلقاء الضوء على هذا الإهتمام الرئيسي حول سلوك الانسان الذكى هو الغرض الذى كشف عن صفات أخرى كثيرة للحركة البرجماتية ، فقد جعلت الأمر

---

(6) لمعرفة وجهة نظر بيرس في موضوع «ضبط النفس » Self-Control انظر : المجلد الخامس الفقرتان 533-534 وأيضا المجلد الثامن الفقرة 320 . فقد ميّز فيها بين عدد من مراحل ضبط النفس ، فالإنسان لديه خمس أو ست مراحل على الاقل بينما البهائم لديها عدداً أقل من المراحل . وقد ناقش لارى هولمز Larry Holmes هذه الفكرة بالتفصيل في مقال له بعنوان «بيرس وضبط النفس» Peirce on self-control .

مفهومًا بالنسبة للسبب الذي من أجله أكدت نظرية العلامات على نوع العلامات التي تحدث في البحث الذهني . وساعدت على تفسير السبب الذي من أجله لا يجد المرء منا اهتمامًا واضحًا بالعوامل (العناصر) غير العقلية وحتى بالعناصر المضادة للعقل في السلوك الإنساني ، والتي امتدت بمثل هذه العوائق الاجتماعية والشخصية الى السلوك المتسم بالعقل . بل إنها أوضحت بعض تقديرات البرجماتيين لنزوعها نحو رصد جائزة كبرى لكل شخص نموذجي يعد رائدًا Pioneer أو بروميثيوس Promethean مفضّلا في الثقافة (الحضارة) الأمريكية الناهضة مما قد يؤدي الى إهمال وعدم تقدير نماذج الأشخاص الأخرى وتوجهاتها التقويمية .

p.12 وبرغم ذلك فلا توجد فلسفة يمكنها ان تؤدي كل شيء ، كما اننا لا نستطيع ان نتوقع نظرية كاملة عن الطبيعة البشرية من الفلسفة وحدها . فالسلوك الموجه نحو غرض ما اذا لم يكن هو السلوك الانساني الكلي ، فإنه على الأقل جزء هام ومتميز منه ، والفلسفة البرجماتية فلسفة فريدة بين الفلسفات الحديثة التي جعلت مثل هذا السلوك محور تحليلها وبنائها .

4 - المعنى الذي تعد به البرجماتية فلسفة :

الإنسان كفاعل المتسم بالذكاء هو في مقدمة اهتمام البرجماتيين، ولكن هذا الفاعل كإنسان - وكجزء من نشاطه - أصبح محتاجًا في بعض الأوقات الى أن يفهم نفسه فهمًا شاملا، ويفهم العالم الذي يعمل فيه وكان عمل البرجماتيين والفلاسفة محاولة لتحقيق هذا الفهم .

ويتضمن قولنا هذا- على الأقل من أجل بيان الأهداف - اختيار تصور خاص للفلسفة، واحتياجنا لهذا التصور ، حتى لو كانت الفلسفة تعبير عن هذه الحاجة

لا يختلف في حد ذاته عن غيرها من الاحتياجات .

ويعد التساؤلات التى وضعها كل من هيوم وكنط حول ما إذا كانت الفلسفة توَجه المنهج «الميتافيزيقي» الذي نعرف به «الواقع» فإن طبيعة الفلسفة وهدفها أصبحا موضوع نزاع دائم. ولا يوجد اليوم إجابة شاملة مقبولة عن هذا السؤال، فبعض الاشخاص قبلوا وجهة النظر (النظرية) القديمة، وبعضهم حاول أن يعادل (يطابق) بين الفلسفة والمنطق ، واعتبر بعضهم الفلسفة كتحليل للعلم،
p.13 بينما اعتقد البعض الآخر أن الفلسفة بحث فلسفى عام جداً ، وحدد البعض مهمة الفلسفة في الوصف العام للظواهر ، ورأى بعضهم الفلسفة هى المفتاح لتحديد مدلولات اللغة اليومية عن طريق تحليل المعنى، ورأى البعض الأخير أن مصطلح «الفلسفة» لم يعد له معنى يمكن الدفاع عنه.

واختلف البرجماتيون حتى فيما بينهم في تحديد طبيعة الفلسفة ومجال عملها، ولكننا اذا نظرنا لإنتاجهم الفكرى ككل نجد أنهم كتبوا في المنطق، وطبيعة المعرفة، وتفسير العلم، والفن ، والأخلاق ، والدين ، وطبيعة الكون، لهذا فإنه من أهداف هذه الدراسة، أن نقرّب بين هذه المجالات الواسعة، ومن هنا وجب علينا ان نستخدم مفهومًا واسعًا للفلسفة إذا أردنا ان نعتبر الحركة البرجماتية «فلسفة» .

وسوف نتبع تقليداً قديماً قدم الفلسفة الرواقية Stoics ذاتها يرى ان الفلسفة المتطورة تطوراً كاملا تحتوى على العديد من مناهج البحث (علم المناهج يشتمل على نظرية في العلامات)، ونظرية في طبيعة القيمة، مثل القيم الجمالية والأخلاقية (مبحث القيم axiology)، والانسان والكون Cosmology).

وطبقًا لهذا التصور عن الفلسفة ، فإن الفصول القادمة سيكون ترتيبها

كالتالى (الفصلين الاولين عن موضوع «مناهج البحث» Methods of Inquiry ويقع في جزئين) : السيميائية البرجماتيةPragmatic semiotic ، وعلم المناهج البرجماتي Pragmatic Methodology ، وفصل عن علم القيم البرجماتى Pragmatic Axiology ، وفصل عن الكوزمولوجيا (علم الكون) البرجماتية Pragmatic cosmology . أما الفصل الأخير فسيحتوى على بعض التعميمات عن الحركة البرجماتية وعلاقتها بالثقافة الامريكية American culture . وأضفت للعمل ذاته ملحقًا مكونًا من ثلاثة اجزاء هي : «جون ديوى معلمًا» و«علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية» و «مدرسة شيكاغو الفلسفية» .

الفصل الثاني
نظرية العلامات البرجماتية

1 - مشكلة تعريف البرجماتية

لم تقدم البرجماتية نفسها في الأصل على أنها فلسفة شاملة، ولكنها - ببساطة - قدمت نفسها باعتبارها منهج في كيفية جعل أفكارنا واضحة». وقد حاولت الفلسفات السابقة الاجابة على هذا السؤال ، والذي يعد هو نفسه جزءاً من المشكلة كطبيعة «المعنى» إن البحث في طبيعة المعنى مشكلة قديمة ودائمة في الفلسفات التقليدية شرقًا وغربًا، ولكن التناول البرجماتي لها جعل لها خاصية تاريخية مميزة ، وهو تناول فريد كأي شى يتصف بالتفرد في الفلسفة، يتصف بأنه النظرية التى تقول ان هناك علاقة جوهرية بين المعنى Meaning وبين الفعل Action ، وعلى سبيل المثال يمكن فهم طبيعة المعنى بالرجوع الى الفعل فقط [1].

---

(1) كتب سي. آي. لويس C.I. Lewis بحثًا عن المنطق لدى ديوى بعنوان : «المعنى والفعل» Meaning and Action ، عرض فيه وجهة نظره في العلاقة الجوهرية بين المعنى والفعل كعلاقة متميزة في منطق ديوى. وقد استخدم هـ . اس ثاير H.S. Thayer عبارة لويس هذه ووضعها كعنوان لأحدث كتبه وهو : «المعنى والفعل : التاريخ النقدي للبرجماتية »
Meaning and Action: A critical History of Pragmatism.
وكان كتاب ثاير محاولة جيدة لتأريخ وتقويم الفلسفة البرجماتية ككل، سواء في جانبها الاوروبي ، أو جانبها الامريكي . وأنا أعتبره من اكثر الكتب الفريدة قيمة يضاف الى الأعمال الموجودة حاليا ، حتى أنني لم أكن أجد البراهين والأدلة الكافية في هذا المجال حتى ظهر كتاب ثاير عام 1968.

فإذا سلمنا بأنه لا توجد معانى دون إشارات (علامات) (وهذا لا يسلم به دائمًا)، واذا كان مصطلح «العلامة» أو السيمائية Semiotic مقبولاً كإسم بالنسبة للدراسة العامة عن الاشارات Signs ، فإنه سينتج عن وجهة النظر القائلة بأنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل (أو السلوك) ، تطوير «العلاقة» ذاتها كنظرية فعلية أو سلوكية As an actional or behavioral theory [2] . وتعتبر العلاقة السلوكية أساسًا تقوم عليه البرجماتية، لهذا أخذت في الاعتبار - كفلسفة - أن تتناول المشكلات التقليدية في p.17
الفلسفة. وبهذه الطريقة فقد أصبحت البرجماتية أكثر تحديداً (ودقة) كمصطلح، أعنى أن البرجماتية أصبحت فلسفة تقوم على أساس الدلالة (المعنى) السلوكية.

---

(2) هناك بعض المشكلات في كيفية تحديد علاقة الألفاظ مثل «الفعل» و «السلوك» behav-ior و «التصرف» conduct . فلفظ «السلوك» behavior الذي ينتشر الآن انتشاراًواسعًا ويستخدم على نطاق واسع (كما في عبارة العلوم السلوكية The behavior-al sciences) ، إلا أن هناك عدداً متزايداً من علماء النفس يعترضون على تطبيقه على الانسان. وقد استخدم البرجماتيون الأوائل ألفاظ «الفعل» Action و «التصرف» Con-duct أكثر من استخدامهم للفظ «السلوك» حيث يرون أن التمييز بين السلوك والفعل ليس مهمًا، لذلك فسوف نستخدم هذان اللفظان في هذا الكتاب بالتبادل. ونحذر من أن استخدام لفظ السلوك لا يتضمن في ثناياه المدرسة السلوكية التى قال بها جون ب. واطسون John B. Watson . فلا يوجد فيلسوف واحد من فلاسفة البرجماتية يعتنق آراء المدرسة السلوكية بهذا المعنى المحدد (الضيق) الذي يقول به أتباع النزعة السلوكية. فالقول بالسلوكية أو الفعلية behavioral or actional يسبق من الناحية التاريخية النزعة السلوكية لدى واطسون، بل انها ترتبط بأرسطو أكثر من إرتباطها بواطسون. وقد نشر ديوى بحثه المشهور «مفهوم المنحنى المنعكس في علم النفس» The reflex arc concept in psychology عام 1896 قبل ظهور المدرسة السلوكية الواطسونية، بل ويعد نقداً لما جاءت به النزعة السلوكية الواطسونية ، كما عارضها أيضا جورج هربرت ميد في كتابه «العقل والنفس والمجتمع» Mind, Self and Society .

ولم يصغ البرجماتيون الأوائل البرجماتية بالطبع على هذا النحو الذي هو عليه الآن، كما أنهم لم يعملوا من أجل إخراج نظرية سلوكية للمعنى، ثم قاموا بتطوير نظرياتهم الفلسفية على هذا الأساس، فتشارلز بيرس كان يعتقد ان تطوره الفلسفي (وحتى تطور جيمس الفلسفي) لم يكن ليختلف في أساسه إذا لم نسمع أبداً عن البرجماتية. (المجلد الخامس، الفقرة 466)، ولكنه بالتأكيد نظر الى البرجماتية باعتبارها تدعم أفكاره الفلسفية والتى طوّرها أساسًا عندما صاغ البرجماتية من قبل .

ويصبح الموقف أكثر تعقيداً اذا علمنا الحقيقة وهى أن بيرس نفسه ليس لديه صيغة كلية واضحة عن طبيعة «المعنى» ولكن توجد لديه بالتأكيد «نواة» hard-core للنظرية المحددة تحديداً تامًا. ولكن – كما سنرى – فإن هذه النواة حظيت باضافات وخواص (أخرى) نشأت عن عدم رضا بيرس ذاته بصيغته المبكرة (النواة) . ولكنه ذكر حقيقة هذه الاضافات والخواص – نقول ذكرها – بإخلاص ، وقال أنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل، ولكنا نقول ربما أن جميع المشتغلين بالفلسفة من البرجماتيين لا يتفقوا مع بيرس في هذا . ولكنه ليس من السهل أن تعلق تعليقًا شاملاً ومفصلاً على مثل هذه العلاقة، فكل ما كتب فيها غاية في التعقيد، ولم يطوّر البرجماتيون نظرية العلامات التى يمكنها أن توجه السلوك . وحتى هذا الحد يظل مبهما على نحو ما خاصة تناول p.18
البرجماتية لعلاقة المعنى بالفعل بل وحتى طبيعة البرجماتية ذاتها تظل مبهمة كذلك، ويمكن إيضاح الموقف إذا قمنا بتحليل بعض عبارات بيرس .

وبالرغم من هذا فإنه من المستحسن – كملاحظة مبدئية – أن نستخدم في هذا الكتاب مصطلح أو لفظ «المعنى» دون تردد ، وسوف نستمر في أن نفعل هذا طالما أن البرجماتيين أنفسهم يفعلون ذلك، إلا أن تطور نظرية العلامات لم يحدث بوضوح الا في السنوات العشرة الأخيرة، لذلك يظل مصطلح «المعنى»

غامضًا جداً وملتبسًا مما لا يكون من الحكمة معه أن نستخدمه كمصطلح مبكر غير محدد عند شرح نظرية العلامات ، وقد غطى استخداماته المختلفة (على الأقل) موضوعات النية (القصد) Intention ، والمدلول Signification والقيمة value كما يبدو في هذه العبارات : «ماذا يعنى بفعله هذا؟» و «ماذا يعنى بكلمة متعادل القوة والتأثير Equipollent؟» و«هل الحياة بلا معنى؟» وبدلا من استخدام الكلمة كجوهر ثابت في نظرية العلامات فإنه من الأجدر والضروري عند تطوير نظرية العلامات أن نحلل لفظ «المعنى» وسوف نستخدم خلال هذا الفصل لفظ «المعنى» بطريقة نقدية ، وبحسب نوع المشكلات الموجودة حاليا والتى تظهر أمامنا من خلال عرضها.

2 - نظرية العلامات عند بيرس :

يعتبر تشارلز بيرس أحد الرجال البارزين في تاريخ نظرية العلامات، فهناك مقال مبكر أوضح اهتمامه بهذا الموضوع بعنوان :«قائمة جديدة للمقولات» On a New list of categories (1867) (المجلد الأول، الفقرات 545 - 559) . كما تعد صياغة «القضية البرجماتية» pragmatic maxim نتاجًا متأخراً ظهر من خلال عمله الطويل في نظرية العلامات.

وبالنسبة لبيرس فإن عملية العلامة .. A sign process (Semiosis) تعتبر عملية معقدة من عمليات التوسط (المتوسط)mediation ، وهنا على سبيل المثال أحد الصيغ العامة :

«إن علامة التمثيل representamen شيء يقابل شخص ما»
«لشيء ما على نحو أو قدرة ما. إنه يخاطب شخص ما، أوجده في عقله» P. 19
«هذا الشخص يعادل في قوته وتأثيره العلامة، أو ربما علامة أكثر»
«تطوراً ، تلك العلامة التى وجدتها أسميها المفسِّر The interpretant
«للعلامة الأولى ، وتقابل العلامة شيء ما هو موضوعها» .

(المجلد الثانى ، الفقرة 228)

تقابل العلامة إذن (على نحو ما من الأنحاء) موضوعها بأن يوجد (بكسر الجيم) مفسرها Interpeter مفسِّراً interpretant (آخر).

أما فيما يتعلق بهذه الصيغة الخاصة (والمحددة) فإنه يلاحظ أنها لا تمدنا بفهم العلامات (الاشارات)Signs الخاصة بعلامات اللغة، ولا تقدم (لنا) مصطلحًا يشرح «المعنى» بأن يقال (مثلاً) أن المفسِّر «في العقل » In the mind، ولم يتم ايضاح مصطلح العلامة ايضاحًا تامًا طالما أن المفسِّر للعلامة هو نفسه علامة، ولا يشير الى فعل Actionأو سلوك . وبوجه عام فإنه لا يوجد ما يشير للبرجماتية، أو «القضية البرجماتية» Pragmatic maxim فى هذه الصيغة الخاصة.

وليس من الضروري أن نتأمل تطوير بيرس الشامل والثرى والمفصل (المحكم) لعلم العلامات semiotic ، والذي هو في حد ذاته دلالة significance ، بصرف النظر عن علاقتها ببرجماتيته (3) . ولكننا يمكن أن نشير الى شيء من

---

(3) أتى ذكر علم العلامات (السيمائية)Semiotic لبيرس في مجلداته الثمانية، غير أنها توجد بصفة أساسية في المجلد الثاني مضافًا اليه بعض المعلومات التى وردت عنها في المجلد الثامن الخاص بمراسلات بيرس مع السيدة ولبيLady Welby ، وعلى الرغم من وجود كم كبير من الأعمال التى تناولت فلسفة بيرس إلا أن علم العلامات لديه لم يلق الدراسة الوافية لها. وتوجد دراسة مبكرة جيدة عن علم العلامات بعنوان «نظرية العلامات لدى بيرس كأساس للبرجماتية » Peirce's theory of signs as foundation for pragmatism كتبها «جون فيتز جيرالد John J. Fitzgerald . كما توجد رسالة دكتوراه بعنوان : «منطق بيرس من خلال علم العلامات» Peirce's logic treated as semiotic كتبها «تورا كاي لنتو بيكسون» Tora Kay Lanto Bikson ولكن هذا العمل القيم لم يذكر الكثير

=

أقواله المعقدة ، ذلك أن بيرس ميّز بين ثلاثة أنواع مختلفة من علامات التمثيل Representamens وهي : علامة الصفة Qualisigns وعلامة الوجود sinsigns وعلامة القانون Legisigns، فهذه طرق ثلاث يمكن للعلامة أن يكون لها علاقة بموضوعها (مثل الصورة icon والدليل index والرمز Symbol) وثلاث طرق يمكن للمفسِّر أن ينظر منها إليه في علاقته بالموضوع وهي (علامة الإمكان Rheme ، وعلامة الوجود الفعلي dicent وعلامة البرهان Argument ، وهناك ثلاثة أنواع من المفسِّرات (المفسِّر الإنفعالي أو المباشر Emotional ، والمفسِّر العضلي أو الديناميكي Energetic والمفسِّر المنطقي أو الأخير Logical) كما أن هناك نوعان من الموضوعات (المباشرة immediate والعضلية أو الديناميكية dynamic) .

ويمكننا أن نلاحظ أيضا ان بيرس يميز بين ثلاثة فروع من علم العلامات Semiotic : (1) القواعد الخالصة أو النظرية Speculative grammar وهي

= عن برجماتية بيرس. ومن بين المقالات الهامة من الناحية التاريخية يوجد «البرجماتية ونظرية العلامات عند بيرس» Pragmatism and the theory of signs in peirce ، ومقال «تشارلز بيرس يفكر في اللغز» Charles Peirce's Quess at the Riddle لإرنست ناجل Ernest Nagel ومقال «الصورة والدليل والرمز» Icon, Index and Symbol لآرثر بوركس Arthur W. Burkes . فضلا عن عدد من المقالات المجمّعة معًا بعنوان :
The Transactions of the Charles S. Peirce society on Phases of peirce's semiotic اشترك فيها لفيف من الاساتذة من بينهم توماس جودج Thomas Goudge ، وريتشارد مارتين Richard M. Martin وجاي زيمان J. Jay Zeman وجاري ساندرز Gary Sanders .

نظرية كلية في المعنى . (2) المنطق الحقيقي أو النقدي Logical logic، وهى نظرية كلية في تطبيق الاشارات على الموضوعات . (3) الخطابة الخالصة أو النظرية Speculative Rhetoric والمنهج الثنائي Metho deutic أو نظرية البحث Theory of inquiry ، وهى القوانين التى يستطيع التفكير العلمى بها أن يَولد إشارة من إشارة أو علامة من علامة أخرى .

p.20 وتشبه تقسيمات بيرس للعلامات بوضوح تحليل القرون الوسطى للعلامات (وتسمى الفطنة العلمية Scientia sermocinalis) في مجالات دراسة القواعد ، والمنطق والخطابة. إذن فبيرس مدين في نقاط كثيرة من نظرية العلامات للدراسات المدرسية (الاسكولائية)Scholastics studies حول عمليات العلامة. كما أن أسلوب عمله الذي بدأ به علم العلامات المبكرة هو بمثابة برجماتيته المبكرة كما توجد في كتاباتهم ، ولكن في كلتا الحالتين لا توجد أية إشارة للعلامة الجوهرية بين المعنى والفعل .

3 - القضية البرجماتية عند بيرس :

يجب ألا ننسى أبداً أن بيرس تدرب في بداية حياته ثم عمل في مجال علم الفيزياء، وفي مقاله التحليلي الذي نشره عام 1878 بعنوان «تثبيت الإعتقاد» The Fixation of Belief قام بتحليل عدة طرق يجب اتباعها لإيضاح الأفكار ، وقد اتبع بيرس المنهج التجريبي العلمى، وعندما تأمل بيرس عمل الفلسفة واللغة التى يجب على الفيلسوف استخدامها ، أخذ بتجريبية العالم واستخدم لغته باعتبارهما المثال الذي يجب أن يُحتذى ، وعبّر عن الإتجاه التجريبي بازاء استخدام المعنى بهذه الطريقة فقال :

«أما بالنسبة للعالم التجريبي الحق ، فإنك مهما ، اظهرت له من تأكيد »

«فإنه سيفهم ما تقوله من معنى إذا كان الوصف المعطى له نابعًا عن »
«تجربة ، مهما كانت ومهما كان من سيقوم بتطبيقه في الواقع، فالخبرة»
«التى توصف له لن يرى لها معنى على وجه الاطلاق» (بدون هذا التطبيق)
(المجلد الخامس ، الفقرة 411) .

إذن لقد دمج بيرس – متأثراً بدراساته – هذا الموقف في «القضية البرجماتية» وهذا ما ذكره بعدة طرق، وإليك ثلاث صيغ وضعها لها «الأولى صيغته المبكرة التى وضعها عام 1878 ، إلا أنه لم يضع لها عنوانًا بهذا الإسم p.21
«القضية البرجماتية»،

(الصيغة الأولى)

«فكر في التأثيرات التى يمكن تصورها ولها معانى عملية، ونستطيع عن»
«طريقها أن نفهم موضوع تصورنا، إذن فتصورنا عن هذه التأثيرات هو»
«كل تصورنا عن الموضوع» .
(المجلد الخامس ، الفقرة 402)

(الصيغة الثانية)

«لكى يمكن التحقق من معنى التصور الذهنى في التجربة، فيجب على »
«الانسان أن يتأمل النتائج العملية التى تنتج بالضرورة عن صدق ذلك»
« التصور ، ومن مجموع هذه النتائج نحصل على المعنى الكلى للتصور».
(المجلد الخامس ، الفقرة 9)

(الصيغة الثالثة)

«إذا استطاع إنسان ما أن يحدد بدقة كل الظواهر التجريبية»
«التى يمكن تصورها ، والتى يتضمنها تثبيت أو نفى تصور ما، فإنه»

«سيتوفر لديه تحديد كامل للتصور، ولا يوجد مطلقًا أي شيء زيادة»
«على ذلك» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 412)

ويفسر بيرس بعض عباراته المستخدمة في الصيغ المذكورة آنفًا بقوله :
«التفكير العملى (أو الاحتمالىbearing) هو النتائج المعنية التى سوف»
«ينتهجها التصرف وينتج عنها نتائج معينة في السلوك وسنجد لها أمثلة»
«حتمية في الخبرات التي نمر بها»

(المجلد الخامس ، الفقرة 9)

(ويقول بيرس أيضا) :

«الظاهرة التجريبية هى الحقيقة التى تؤكد أن فعل وصف معين سينتج»
«عنه نوع معين من النتائج التجريبية» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 427)

إذن استخدم بيرس مصطلح «التجريبية» experimental استخدامًا واسعًا (فضفاضًا) وكثيراً ما استخدم (عبارات) «التأمل العملى» Practical consideration ، و «التصورات الذهنية» Intellectual concepts وهى تساوى لديه «تلك التصورات التى يتم على أساسها تكوين الأدلة المتعلقة بالحقيقة الموضوعية والتى تتوقف عليها (إقامة هذه التصورات).

(المجلد الخامس ، الفقرة 467) .

وإذا خاطرنا بتبسيط هذه الصيغ للحكم (أو القضية) البرجماتي فإنه يبدو
أن هذا التبسيط يتضمن أن لمعنى التصور الذهنى (العقلي) علاقة جوهرية بين p.22
الفعل والخبرة كأن نقول إذا كان كيت وكيت If such and such أنماط من الفعل يمكن القيام بها، إذن فإن كيت وكيت أنماط من نتائج الخبرة نحصل عليها

بالضرورة ، وهذا ما سنعتبره لُب القضية البرجماتية .

ومن المهم أن نلاحظ خواص معينة لهذا الموقف وهذه الخواص هى :

١- تصر القضية البرجماتية على وجود علاقة جوهرية بين الفعل والخبرة بالنسبة لموضوع المعنى الذي تشير اليه وتتناوله .

٢ - إن الموقف ليس موقفًا فرديًا، بمعنى أنه لا يذكر بإزاء أفراد بعينهم (دون غيرهم) .

٣ - إن التأكيد انما هو تأكيد على العمومية generality ، فإن الاستدلال يوجه نحو أنواع من الفعل وأنواع أخرى من الخبرة، وليس نحو أفعال أو خبرات فردية (خاصة) .

٤ - إن الصيغ المختلفة تشير بصفة أساسية إلى «التصورات» Concepts أكثر مما تشير إلى «العلامات» signs ، لذلك فإن العلاقة بين القضية البرجماتية وعلم العلامات Semiotic ليست علاقة واضحة . (بدرجة كافية).

ان البرجماتية بالنسبة لبيرس أساسًا هى اقتراح بتبنى القضية البرجماتية في الفلسفة، لكى تكتسب الفلسفة ميزة العلم التجريبي التراكمي والتقدمي في آن واحد، وإذا قُبل هذا الإقتراح فإن بيرس عندئذ يكتب قائلاً :

« إن أى فرض يمكن أن يكون مقبولاً في حالة عدم وجود أسباب خاصة تفترض العكس ، وهذا الفرض قابل للتحقيق التجريب، ويؤخذ به فقط اذا كان قابلا لمثل هذا التحقيق، وهذه على وجه التقريب هى النظرية البرجماتية» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 197).

والآن فهناك تساؤل يتعلق بمعيار قبول الفروض في الموضوع بخصوص هذا

الجزء من المنطق النقدي Critical logic (أو المنطق الخالص Logic proper) الذي يسميه بيرس (منطق) الإبعاد Abduction ، ويعتبر المنطق النقدي بالنسبة اليه p.23
فرع من علم العلامات As a subdivision of semotic .

إذن ، فعلى الرغم من أن القضية البرجماتية لم تصاغ صياغة واضحة بالنسبة لموضوع العلامات signs ، إلا أنه من الواضح انها بالنسبة لبيرس تعد جزءاً من علم العلامات Semiotic.

4- بيرس : طبيعة المفسِّر :

وبالرجوع الى الصيغة السابقة التي اقتبسناها من أعمال بيرس عن عملية العلامة، فإننا نجد أن مفسِّر العلامة كان هو نفسه علامة موجودة في «عقل» In the mind شخص ما (عن شخص ما "a "Somebody) . وعاد بيرس الى مشكلة طبيعة المفسِّر في أحد أعماله المخطوطة التى لم تنشر في حياته، وحاول فيها جاهداً ان يزيل الغموض الذي اكتنف تعريفه للعلامات كمفسِّرات والتى هى ذاتها علامات «في عقل» مفسِّر العلامة .

وبعد أن أخلد بيرس في هذا البحث الى الرضا والقناعة بأن المفسِّر المنطقى (يختلف عن المفسِّرين الآخرين الانفعالى والعضلي) واعتبره مفسِّر يبدو عام في احتمالات الاستدلال ، وعلى سبيل المثال ، يدل أو له علاقة بأى شىء له وصف محدد »، وذكر بيرس خلاصة رأيه في هذا الصدد بقوله أن «العادة هى ماهية (جوهر) المفسِّر المنطقى» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 486) ، وقد فعل ذلك بحذف البدائل الممكنة :

«والآن لا يوجد ما يفسر طبيعة المفسِّر المنطقي (والذي عرفنا آنفًا بأنه

تصـور) لكي نقـول عنه أنه تصـور ، ويمكن تطبـيق هذا الاعـتـراض أيضـا على الرغبـة والتـوقع expectation ، وهي نفـس التـفـسيـرات لنفس المفسِّر ، طالما أن أحدهما ليس عامًا اللهم إلا في علاقته بالتصور» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 486).

p.24 وتوصل بيرس الى نتـيـجـة مؤداها أن العـادة وحـدها هى التى تسـتـطيع أن تصف المفسِّر المنطقى للعـلامـة عن طريق العـمـومـيـة فضـلاً عن المعنى العـقلي (الذهنى)intellectual purport ولذلك توصل الى أن يكتب ما يلى :

«إن أفـضل وصف للتـصـور يمكن ان تنقله الكلمـات يدخل ضـمن وصف»
«العادة ويـعتـبـر أن التصور هو المحصلة الناتجة عنها ، وإلا فـكيف يمكن»
«وصف العـادة بأكـثـر مما توصف به من أوصـاف كنوع الفـعل الذي»
« تنشأ عنه ، مع ذكر تفاصيل الظروف المحيطة به ودوافعه؟»
(المجلد الخامس ، الفقرة 491) .

وبينمـا يذكـر بيـرس أن تلك «الحـقـائق الذهنيـة» mental facts غـالبًا مـا تتضمنها العادات فتكون «هي ذاتها عادات غير واعية تماما». (المجلد الخامس، الفقرة 492) .

وهذه النقاط (المذكورة) ليست جديدة في فكر بيرس ، ففى مناقشته التى أجراها في مقاله المنشور عام 1878 والتى سماها فيما بعد «القضية البرجماتية» قال أن «ما يعنيه بالشيء هو ببساطة ما تتضمنه العادات» . (المجلد الخامس ، الفقرة 400) . وكيـف أيضـا أن «العـادة ليست شعـوراً بالوعى ، إنما هي قـانون عام للفعل ، مثـال ذلك ما نجده في مـوقف مـا من نوع معين فـإن الانسـان يميل اكثر أو أقل نحو الفعل بطريقة عامة معينة » (المجد الثاني ، الفقرة 148) ، وبمعنى آخر اكثر تحديداً يمكن أن يقال أن العـادة هي «تنظيم الاستجابة لنوع من

المثير على نحو ما » (المجلد الخامس ، الفقرة 440).

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك جديداً في بحثه الذي أشرنا اليه.فقد أوضح بيرس صيغة المفسِّر المنطقى للعلاقة باستخدام تعبير العادة، ولكنه - كما رأينا - في موضع آخر ، يشرح لنا كيف أنه وضع القضية البرجماتية داخل العلم العام للسيمائية (العلامات) General semiotic ، والآن يدخل الفعل (في شكل العادات) في لُب علم العلامات ، وهكذا فإنه حاول أن «يبرهن» كذلك (على القضية البرجماتية) بإستخدام عبارات العلم العام للعلامات وعلى مدى تأثير القضية البرجماتية على الفعل (4).

وهكذا فأننا نجد خلطًا في فكر بيرس الأخير ، والذي ، لو تعميمه بطريقة دقيقة، فسيؤدى الى نظرية متسقة في علامات السلوك ، لأن العلامة تتضمن p.25
دائمًا اتجاه أو تنظيم للسلوك لدى أى واحد منا وتعتبر علامة بالنسبة اليه .

---

(4) اهتم فيتزجيرالد بصفة أساسية في مقاله عن «نظرية العلامات لدى بيرس» بالقاء الضوء على طبيعة «البرهان» الذي ينتج عن القضية البرجماتيةPragmatic maxim ولم يذكر فيتزجيرالد صراحة أن القضية البرجماتية تأتى نتيجة لعدد من مبادىء أو مقدمات العلامات أو من عدة قضايا للعلامات، إلا أنه أراد أن يذهب الى أبعد من ذلك في دراسة هذه النقطة. وكتب بيرس عام 1905 : «إن هذه القضية قد وضعت لتكون نظرية تقوم على أساس ثابت وقوى بفضل دراسة مفصلة ودقيقة لطبيعة العلامات (المجلد الثامن ،الفقرة191) ، وكان بيرس غالبًا ما يتحدث عن براهين القضية البرجماتية ، إلا أننى أعتقد أنه لم يعلن صراحة عن أن مثل هذه البراهين ستنتج من مبادىء أو مقدمات العلامات، وإن كان بيرس يشير دائمًا إلى أنه على الفلسفة أن تشير الى العديد من الأدلة أكثر من اشارتها الى نتيجة أي من هذه الأدلة ، (المجلد الخامس ، الفقرة 265) ، فقد كان بيرس مقتنعًا بل ومتأكدا تمامًا من أن القضية البرجماتية هى جزء متكامل وأساس جيد لنظريته في العلامات . وقد أحسن فيتزجيرالد صنعا بتأكيده على هذه الحقيقة في مقاله المذكور.

5 - تعقيد في آراء بيرس :

عاد بيرس إلى الحديث عن القضية البرجماتية عام 1902 بعد أن وضع صيغته المبكرة عنها عام 1878 فقال (في المجلد الخامس من أعماله الكاملة) ما يلي :

«لقد برهنت القضية عن نفسها للكاتب (يقصد بيرس نفسه) بعد »
«سنوات كثيرة من المحاولة وذلك بعد أن ظهرت فائدتها العظيمة في»
«قدرتها على أن تؤدى بنا إلى اقصى درجة من وضوح الفكر نسبيًا »
وسنخاطر بأن نقترح أنه بإمكاننا وضعها موضع الممارسة مع الدقة »
«البالغة ، ولكن بعد أن يتم هذا ، وليس قبله، ما زالت هناك درجة»
«أعلى من وضوح الفكر التى يمكن تحقيقها وذلك، بأن نتذكر فقط»
«أن الخير الأسمى للحقائق العملية الخاصة بتوجيهها نحو القصد»
«الذي يمكن أن يساعد في تطوير أكبر لحقائق الأنا المعقولة، لأن»
«معنى التصور أنه يستحيل تحقيق أية ردود فعل فردية على »
«الاطلاق، ولكن المهم هنا الطريقة التى تساهم بها ردود الافعال»
«هذه بإزاء هذا التطوير» .
(المجلد الخامس ، الفقرة 4) .

والمقصود من هذا النص بوجه عام واضح تمامًا فهو يريد أن يقول : " إن الوضوح بالنسبة لمعنى التصور الذهني (أو العقلي) يزداد اذا كان الانسان يستطيع أن يتحقق من ذلك بالتجربة بالاضافة الى امكان تطبيق القضية البرجماتية وذلك بالاسهام الذي يقدمه التصور لتطوير الأنا المعقولة The development of concrete reasonableness ويرغم ذلك ، وبعيداً عن التفاصيل فإن النص مليء بالمشكلات التى تدور حول اللفظ الغامض والمضطرب

«للمعنى» Meaning.

يشيـر النص السـابق في المقـام الاول التـساؤل حـول «الخيـر الأسـمى» The Ultimate Good «للحقائق العمليـة» Practical facts المتـضـمنة في الحكم
p.26 البرجماتي ، ومما يثير عجب الإنسان أن الاهتمام لا يتغير فـهو يتجه نحو القيمة أو المدلول المجرد للعلامات (أو المفهومات أو الأفكار) ، أكثر من توجهه نحو التوسع في مـبناها أو مدلولها العيني المشّخص إلا أنه في مـوضع آخر عندمـا ناقش فرض واقعيـة وجود الله (تعالى) ، فإن بيرس يكتب أن البرجمـاتى يعتبر أن الأساس الجوهري المطلق Ultimate test للفرض «يجب أن يكمن في قيمته أي في ضبط سلوك الإنسان البالغ في الحياة».

(المجلد السـادس ، الفـقرة 480) ، فـهـل لا يخلط بيـرس هنا بين المدلول المجرد والمدلول المشّخص للعلامة؟.

ومن جهة ثانية، يتضمن تفسير «الأنا المعقولة» Concrete reasonableness كل فلسفة بيرس الميتافيزيقية والكوزمولوجية، لذلك يبدو أن مستوى «المعنى» Meaning يستند على الفلسفـة أكثر مما يقدم لنا معيـاراً لمعنى المصطلحات الفلسفية .

وثالثـا ، ليس من الواضح تمامًا إذا كـان هذا «المعنى» الثرى يعلو «المعنى» المقصود في القضية البرجمـاتية (كما يبدو في الجزء الاول من النص المقتبس) أو اذا كانت بعض الرموز المحددة يمكنها ان تسهم في إظهار «الأنا المعقولة» دون أن تحتوى على «المعنى» بالمعنى المحدد في القضيـة البرجمـاتية (كما يقترح بيرس في نهاية النص السابق المقتبس والذي جاء فيه أن «معنى التصور لا يكمن في أي من ردود الفـعل الفـردية على الإطلاق»، وعلـى أية حـال فـإن هذه النصـوص تصبح وثيقة الصلة بالموضوع عندما يتسـاءل المـرء عن نوع المعنى

المستخدم في الرموز الرياضية والفيزيقية مثل : «ما هو المعنى غير القابل للقياس» و «الذرة» Atom.

وأخيراً ، وحتى اذا أخذ في الاعتبار أن «الأنا المعقولة» عند مقابلتها «بتطوير ضبط السلوك الإنساني في الحياة» ، فإنه من الصعوبة بمكان أن نوضح المعنى الخاص بمحاولتنا تحديد هذا الإسهام ، وبالتأكيد فإن جميع الفلاسفة السابقين سوف يدّعون أن كتاباتهم لها معنى بنفس هذا التحديد ، والانسان يمكنه أن يحاول إنكار مثل هذه الدعاوى عن طريق اللجوء الى نظريات بيرس عن «ضبط النفس» Self-Control و «التصور الذهنى» Intellectual concept ، (وهذا يمكن عمله بالتظاهر بقبولنا لها) ، ولكن أصبحت هذه الكتابات متداخلة p.27
جداً .. ولن يقتنع هؤلاء الميتافيزيقيون واللاهوتيون الذين هاجمهم بيرس بطريقة غامضة ومبهمة في أقواله .

ويبدو ان الموقف الناتج عما سبق يعبر عن شيء كهذا .

إن بيرس لم ينكر الصيغة المبكرة للحكم (القضية) البرجماتى، ولكنه لم يكن يعتقد ان تحليل المعنى الذي تضمنته هذه الصيغ (مع تأكيده على الخبرة الحسية التى تأتى عقب الفعل، هي كل ما في الموضوع حتى بالنسبة للرموز الخاصة بـ «المعنى الذهني» Intellectual Purport .. فالأخيرة هى بالتأكيد القضية . وبالنسبة لبيرس فقد أدركها أيضا ، ومع ذلك فإنه يصعب علينا أن نقول أن بيرس أعطى صيغة مقنعة وواضحة لأوجه «المعانى» المختلفة، فضلا عن أنه لم يعبر عنها في النصوص المبكرة التى قدمها عن الحكم (القضية) البرجماتى، وبهذا فإن نظرية العلامات عند بيرس تعد نظرية غير كاملة .

غير أن اقتراح بيرس الأخير بإضافة «المعنى» إلى ما أشار اليه بطريقة غامضة ما زال في حاجة الى تفسير علاقة «المعنى» «بالفعل»، لذلك فإنه حتى في هذه النقطة فإن بيرس يتمسك بوجهة النظر التى مؤداها أن هناك علاقة جوهرية بين المعنى والفعل ، ولهذا السبب فإن «مانلى طومسون» Manley Thompson كتب في بحث بعنوان «الفلسفة البرجماتية عند تشارلز ساندرز بيرس أنه كان قادرا على أن يذكر أن فلسفة بيرس يمكن النظر اليها كفلسفة برجماتية (5) .

---

(5) لا يزال التساؤل هامًا بالنسبة لدارس فلسفة بيرس ، ويدور هذا التساؤل عما اذا كان بيرس يختلف أو لا يختلف فيما قدمه من تصورات مبكرة أو متأخرة حول الحكم البرجماتي او القضية البرجماتية وبالتالى تصوره عن البرجماتية. وقد ناقش ديوى هذه المسألة في بحثه عن «ببرجماتية بيرس» The Pragmatism of Peirce ، ورأى أن الاختلاف يكمن في تأكيد بيرس على تصوراته التى قدمها في صيغه المختلفة ، بينما يرى كل من مورى مورفى Murray Murphey وجون فيتزجيرالد أنه لا أهمية تذكر بشأن هذه الاختلافات ، حتى بيرس نفسه كان يعتقد بعدم وجود تغير أو اختلاف ما . وتعطى كتب بيرس التى كتبها في العقد الاول من هذا القرن (1910) انطباعًا مؤداه أن نظرية بيرس لم يطرأ عليها التغير منذ أن وضعها عام 1873 ، وأصبحت صيغة نظريته كالآتي :
«بالنسبة للبرجماتية فإن المعنى الحقيقي لأى انتاج ذهنى يكمن في الجبرية الاحادية Unitary Determination مهما كانت أهميتها بالنسبة للتصرف (السلوك) العملى وتحت أى ظرف كان، ولنفرض أن مثل هذا التصرف يمكن أن يوجد في أقصى حدود التفكير » (المجلد السادس، الفقرة 490) ، وتختلف هذه الصيغة عن تلك التى سطرها بيرس من قبل حيث لم يشر فيما سطره إلى أية تأثيرات عملية تتبع أى نوع من أنواع الفعل ، فهل عبارة «التصرف العملى» Practical Conduct في هذا النص متضمنة أساسًا في مثل هذا القول ؟ (بتصرف – المترجم) .

6 - وليم جيمس والقضية البرجماتية :

ليس من الشـائع أن يؤكد أحد (من الباحثين) على الفروق بين جيمس وبيرس بطريقة قوية لدرجة أنهما يبدوان بصعوبة وكأنهما يدخلان في مجال نفس الحركة الفلسفية، وقد كتب رالف بارتون بيري Ralph Barton Perry يقول:

p . 28 «ربما يكون من الصحيح، وتماماً بالنسبة لجميع الأطراف ، أن نقول أن »

«الحركة الفلسفية المعروفة باسم البرجماتية هي نتيجة سوء فهم جيمس لبيرس»

ويمكن أن نوضح أن لهذه النظرية بعض أوجه الحق من أن بيرس غيّر اسم الفلسفة البرجماتية Pragmatism الى البرجماطيقية Pragmaticism ، ويبدو أن هذا ليميز من ناحية موقفه من فلسفة جيمس ، ويعلن من ناحية أخرى أن تأويل exegesis جيمس للقضية البرجماتية «ليس عميقاً جداً» Not very deep (المجلد الخامس الفقرة 13n) . ومع ذلك ، فإنني أعتقد أن تعبير بيرى «سوء فهم» misunderstanding تعبير مبالغ فيه جداً، وأنه بينما كان جيمس - بطريقة مؤكدة - يوسّع من مجال البرجماتية ليذهب بها الى أبعد مما ذهبت بها نظريات بيرس ، فإن المفكرين خرجا في النهاية بنظريات متشابهة تماماً بالنسبة لطبيعة وحدود المعنى، ويجب علينا الآن أن نكرس جهودنا لنثبت هذا الزعم .

إن الإختلافات الرئيسية بين بيرس وجيمس موجودة في الفروق بين مشكلاتهم (التى تناولوها بالبحث)، ولنذكر بعضها إجمالاً، فإن مشكلة بيرس الموجهة كانت بناء صرح «فلسفة عملية» scientific philosophy ، أما رسالة جيمس القدرية فكانت بالنسبة إليه وطبقاً لما يذكره رالف بيرى «إيجاد منهج فلسفى يمكنّه من تبرير إقامة الدين دون التخلى عن العلم». وكان جيمس مثلما

كان بيرس ، قد نال قسطًا من العلم والتدريب في مجال العلم Science وقام بتدريس العلم لسنوات كثيرة قبل أن يصبح فيلسوفًا محترفًا .. إلا أن تدريبه كان في مجال الطب والبيولوجيا (علم الأحياء) أكثر من مجالىّ الرياضيات والعلم الفيزيقى، وكان اسهامه الشخصى كعالم في مجال علم النفس ، وقد عانى في أواخر العشرينات من عمره مشكلة شخصية عميقة، وكانت تنتابه إحساسات عميقة باليأس والقلق ، وجاء دفاع تشارلز رينوفييه Charles Renouvier عن الحرية كى ينتشله من هذا الإكتئاب ، ويخرجه من أزمته . وكتب جيمس يقول : «كان أول عمل لى للتعبير عن إرادتى الحرة أن أعتقدت في الإرادة الحرة Free Will ، وساعدت النظريات الدينية والميتافيريقية جيمس في المراحل الأولى وعملت على تدعيم نشاطه العنيف فى السعى وراء المُثل العليا ، ويقول جيمس في هذا الصدد :

p . 29 «إنه لولا الدلالة العملية ، لكانت كلمات الإله ، الإرادة الحرة، الخلق، »
«الخ .... لا معنى لها»، «فلديها (أى هذه الكلمات) معنى خاص »
«وهو أنها تعد بوجود عالم أفضل مما نعيش فيه» .

وبوجه عام فقد نظر جيمس إلى الفلسفة كعبارات توجه حياة الفرد. فهو يرغب في بناء نسق فلسفى مؤكد، ولكن طالما أنه لم يلتفت مرة واحدة بعد ذلك نحو العلم فإن فلسفته لن تتطلع أبداً إلى أن تكون صرحًا علميًا A scientific edifice . وكان من المتوقع أن جيمس فسّر القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تتوافق مع مفهومه الشخصى للفلسفة .

ويحتوى مقال بيرس الذي نشره عام 1902 في «قاموس بالدوين للفلسفة وعلم النفس Baldwin's Dictionary of Philosophy and Psychology على فقرة كتبها جيمس لتفسير القضية البرجماتية لدى بيرس، والتى وصفها بيرس

بأنها «ليست عميقة جداً». فقد كتب جيمس التفسير التالي لنظرية بيرس :

« إن «المعنى» الكلي للتصور يعبر عن ذاته من خلال نتائجه العملية، »
«فالنتائج إما أن تكون في شكل تصرف يوصى به، أو على هيئة خبرات»
«نتوقعها، واذا كان التصور صادقاً فإن نتائج الخبرات ستكون مختلفة»
«في حالة عدم صدقها، بل ويجب أن تكون مختلفة عن النتائج التي يعبر»
«بها المعنى عن تصورات أخرى بدورها» .

وقبل مناقشة هذا التفسير للقضية البرجماتية، فمن المستحسن أن نضع أمامنا عدة صيغ أخرى تبين وجهة نظر جيمس في المعنى ، ففي كتابه «البرجماتية» ذكر أن «مبدأ بيرس هو المبدأ البرجماتي» The principle of Peirce, the principle of Pragmatism . وعبر عن فكرته بقوله :

«لكي نحصل على وضوح تام لأفكارنا عن الموضوع an object ، إذن»
«فإننا نحتاج فقط إلى أن نأخذ في اعتبارنا التأثيرات المقبولة من نفس »
«نوع الشيء العملي الذي يتضمنه، وما هي الإحساسات التي نتوقعها» p . 30
«منه، وما هي ردود الأفعال التي يجب أن نستعد لها، وهل هي مباشرة»
«أم بعيدة remote ، إذن فإنها ستكون بالنسبة الينا تصور كلي عن»
«الموضوع ، طالما أن هذا التصور له دلالة إيجابية مطلقة»[6] .

وأخيراً ، هناك فقرة وردت في كتابه «بعض مشكلات الفلسفة» Some Problems of Philosophy يقول فيها :

---

(6) وليم جيمس «البرجماتية» ، ص ص 46 - 47.

«إن القاعدة البرجماتيةThe Pragmatic rule هى ذلك المعنى »
«الخاص لتصور ما والذي يمكن أن يوجد بصفة دائمة، فإذا لم يوجد»
«في بعض الإحساسات الخاصة التى يمكن اختيارها بطريقة مباشرة»
فإنه يوجد إذن في بعض الفروق الخاصة (التى نجدها) في مجرى الخبرة»
«الانسانية والتى سيكون وجودها وجوداً صادقًا» .

من الواضح أن فى هذه العبارات صيغ ذات وجهين أساسيين يختلف فيهما تصور جيمس عن القضية البرجماتية عن مثيله لدى بيرس .

الوجه الأول : أن صيغ جيمس أقل طلبًا Less demanding من صيغ بيرس المبكرة فقد جعل بيرس العلاقة بين الفعل والخبرة الناتجة عنه علاقة جوهرية ، وتلك الخبرات هى المقبولة فقط وتتبع نوع معين من الفعل وهى التي جعلها بيرس ذات علاقة جوهرية ، وذلك عن طريق تقرير المعنى الخاص بتصور معين، فالعلاقة بين الفعل والخبرة هنا علاقة تتضمن بين المعانى Entailment(*) إذا ..... إذن ، علاقة ضرورة necessary ، وكما رأينا من تلك العلاقات التى يقصدها بيرس بعبارته «نتائج عملية» Pratical consequences ، ومن هنا كان استخدام جيمس لكلمة «العملية» Practical أقل طلبًا .

أما تفسير جيمس فإنه بدلا من استخدام إذا .... إذن لبيان العلاقة بين الفعل وما ينتج عنه من خبرة. فإنه استخدم علاقة «و» and و «أو» or، وربما

(*) يستخدم بعض الفلاسفة كلمة Entailment لتدل على علاقة التضمن بين المعانى ، بينما يستخدم البعض الآخر كلمة implication بمعنى الجانب الصورى في اللزوم.
(أنظر : د. عزمى اسلام، «مفهوم التفسير في العلم من زاوية منطقية» ، حولية كلية الآداب جامعة الكويت، الرسالة الرابعة "16" ،.1403هـ ، 1983م ص 96.

علاقة أقل من ذلك ، فهى علاقة «أو» or . فالنتائج العملية هى الآن «الاحساسات التى نتوقعها» «و» «ردود فعل يجب أن نستعد لها» ، بل إنها
p . 31 حتى أقل صرامة ، فالنتائج العملية هى «تصرف يوصى به» ، «أو» «خبرات يتم توقعها» ، فحرية الفعل التى تعطيها لنا كلمة «أو» فى العبارة الأولى (ومتضمنة في الصيغة الثالثة) سوف تسمح بعبارات أخرى ذات معنى بسبب اقترابها من التصرف حتى لو لم تتنبأ «بإحساسات» معينة أو «خبرات» (معينة) وقد استفاد جيمس من حرية الفعل الموضحة في العبارة التالية عن الدين Religion :

«إن الدين في أكثر معانيه تجريداً يمكن أن يُحدد بأنه تأكيد على أن »
«ليس هناك شيء تافه، فالتجريبي يمكنه أن يسخر بسهولة من تلك »
«الصيغة لأنها لا تعنى شيئًا بالنسبة اليه، عندما تعّبر عن الإتجاه»
«الكلى Universality، ويطلب منك أن تعرض له هذا الشىء»
«بمضمونه المشخص الذي قد لا تستطيع أن يفعله ، لأنه لا يوجد شيء»
«أصعب من ذلك ، ومع هذا فإنه كحقيقة عملية يمكن ان يكون له معنى»
«متميزاً للغاية وذلك عند ما تستخدم هذه الحقيقة كمقدمة منطقية»
«في الحياة (اليومية) ، فإن ذلك ينقل اليك وصفًا كاملا للحياة، »
«إن الدين ، مثله في ذلك مثل أية تصورات أخرى كثيرة كلية، صادق»
«فى توجهه ، ويبدو أنه لا يقدم لك غاية (ما) ولكنه يحدد لك »
«الاتجاه المناسب» (7).

الوجه الثانى : يتبين بوضوح أكثر الفرق بين نص بيرس عن القضية

---

(7) العبارة مقتبسة من بحث بيرى Perry «فكر وشخصية وليم جيمس» ، المجلد الاول ، ص 503.

البرجماتية في الاقتباس الثالث وبين موقف جيمس ، فالتأكيد هنا تأكيد على ما هو جـزئى Particularity والذي يتـوقع أن يكون «إحـســاس جـزئي Sensible Particular ، والفرق الموجود في الحياة يجب أن يكون « فرق جزئي Particular difference. أما بيرس فقد أكدّ – على عكس جيمس – على أنواع الخبرة وأنواع الفعل ، وقد أقتبسنا كثيراً من كتاباته (من قبل) مثل قوله : «إن معنى التصور لا يكمن فـي أي ردود أفعال جزئيـة على الإطلاق»، «فإذا كا ن جيمس قد أكـد علـى النزعة الجزئية Particularity فإن بيرس أكـدّ على العمومية Generality ، وهــذه الآراء المختلفة (هى التى ، تشكل فلسفة كل منهما).

وقد عُنى بيرس خاصة بالطريقة التى يوظف بها الأفكار في مجتمع العلماء p . 32 بينما عُنى جيمس على وجه الخصوص بالطرق التى تستخدم بها الأفكار في حياة الأفراد الفردية، أما «الأفكار العملية The Practical Consideration التى ُعنى بها بيرس فقد كانت تدور أولاً حول أنشطة العالم ، بينما كا نت بالنسبة لجيمس تُعنى بالأنشطة التى لها علاقة بالسلوك الفردي للشخص في الحياة أولاً، وكانت موضوعات «الدلالة المجردة الحيوية» Vital significance تصورات رئيسية في تصور جيمس عن الفلسفة، بينما كانت بالنسبة لبيرس (على الأقل من الوجهة الرسمية) خارج نطاق الفلسفة بحسب اقتناعه بها.

ولا تقلل هذه الفروق بين بيرس وجيمس من شأنهما ، ولا من أهمية فهمهما للحركة البرجماتية ككل ، ومع ذلك ، فإنه بالبحث في مجال المعنى نجد في نهاية الأمر أن الفرق ليس كبيراً كما يبدو للوهلة الأولى . أما بالنسبة لبيرس ، فيجب أن نتذكر ، أنه اعترف بقدر من المعنى يكمن فيما وراء وصف القضية البرجماتية ، فالعبارات يكون لها معنى اذا ساهمت في ضبط سلوك الفرد في

الحياة حتى اذا ساهمت ولو بقدر ضئيل في مجالات معينة من التنبؤات ، كما (نجدها) فى . نوى الخبرة (التى نعيشها) .

ويعتبر موقف بيرس من فرض واقعية وجود الله على سبيل المثال ، بعد أن اعترف أنه فقط في الحالات الاستثنائية exceptional cases يمكن الاستدلال على نتائج تجريبية experimental consequences من هذا الفرض (المجلد السادس ، الفقرة 489) ، فإنه وجّه الانتباه إلى ميزة أخرى لهذا الفرض «الذي يتألف من تأثير أوامره على سلوك حياة الذين يعتقدون فيه» (المجلد السادس ، الفقرة 490) . وأكّد جيمس على نفس النتيجة (وكما رأينا فقد عبّر عنها بكلمات مشابهة تمامًا) وليس بالحديث عن مستوى آخر من المعنى فيما وراء القضية البرجماتية، ولكن بتفسير فضفاض للقضية البرجماتية ذاتها .

وهكذا فإن كل من بيرس وجيمس مضيا في نفس الدرب الخاص بكل منهما وذهبا أبعد مما أطلقنا عليه لب القضية البرجماتية. فمن المؤكد أنهما جعلا هناك استخدامات مختلفة وهامة لهذا «المعنى» في تطور فلسفاتهما، ولكن لهذا قصة أخرى ، إن حصيلتهما الكلية للمعنى ومجاله هى نفس الحصيلة الجوهرية.

7- جورج ميد : في اللغة كسلوك اجتماعي

كان ميد من أكثر الذين أشاروا بطريقة عارضة إلى بيرس في كتاباتهم، ولا أذكر اننى سمعته يذكر حتى اسم بيرس في محاضراته ، وبينما كنت طالبًا في جامعة هارفارد، كنت أرى ميد يتصل بجيمس (أثناء العام الدراسي 1887 - 88) ، لذلك أرى أنه كان من الواجب على ميد أن يعرف شيئًا عن بيرس، ولكن لا يوجد دليل على أن بيرس أثر في مجريات تفكيره (يقصد تفكير ميد). كما لا يعتبر ميد ببساطة أحد حواري جيمس ، ولكنه كان

متعاطفًا بوجه عام مع الاتجاهات الوظيفية لعلم النفس عند جيمس وهذا مما لا شك فيه ، غير أنه طالما أن علم النفس عند جيمس بدأ وانتهى بالفرد ، فإن ميد أكدّ على النسيج الإجتماعي الذي طوّره الفرد ، وهكذا أصبح أحد الرواد الذين أسهموا في نشأة علم النفس الاجتماعي الحديث ، فضلاً عن ذلك فإن ميد لم يكن تلميذاً لديوى، لذلك لم يكن فكر ديوى هو نقطة بداية تطور ميد ذاته ، حقًا لا يوجد فيلسوف له علاقة بميد مثلما كانت هناك علاقة لجيمس بمل Mill والتجريبيين الانجليز، وكما كان لكنط علاقة ببيرس ، وديوى بهيجل ، لقد أعطى ميد اتجاهًا مستقلاً وأصيلاً للحركة البرجماتية .

p. 34 ويبدو أن ميد في توجهه المتميز إلى العلم الاجتماعي الذي انبجس في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان ميد قد ذهب الى ألمانيا بغرض استكمال دراساته قبل التخرج، قد أبدى تعاطفًا كبيراً مع نظريات فلهلم فونت Wilhelm Wundt في مجال اللغة، حيث كتب ميد بحثين أوضح فيهما مدى اهتمامه بنظريات فونت (8).

وقال ديوى في البحث الذي أعده في ذكرى تأبين ميد عام 1931 ما يلي:

«في أيامي الأولى (المبكرة) لاتصالي به ، بعد أن عاد من دراسته»
«في برلين منذ أربعين سنة مضت ، كان عقله مفعمًا بالمشكلة التى طالما »
« شغلته مشكلة الفعل الفردي والوعى وعلاقتهما بالعالم والمجتمع» (9)

---

(8) كتب جورج هربرت ميد بحثين في هذا المجال هما : (1) «العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة» The Relations of Psychology and Philology . (2) «الخيال في معالجة فونت للأسطورة والدين» The Imagination in Wundt's Treatment of Myth and Religion.

(9) ظهر بحث ديوى ، «جورج هربرت ميد» عام 1931 في «مجلة الفلسفة» Journal of Philosophy

وقد بحث ميد مشكلة علاقة الفعل الفردي والوعى بالمجتمع في علم النفس الاجتماعي، وكانت هى الموضوع الرئيسي في كوزمولوجيته (علم الكون) المتأخرة.

وأخذ ميد عن فونت النظرية الأساسية في علم الإيماءة (الإشارة) Gesture وأعتبرها مرحلة مبكرة من مراحل نشاط الكائن الحى وعدّ استجابة كائن حي لكائن حي آخر علاقة لمرحلة متأخرة لنشاط هذا الكائن الأول ، فتكشير الكلب عن أنيابه تعد مرحلة إعداد لهجوم مرتقب، وعند استجابته لكلب آخر فإن هذه الاستجابة هى بمثابة استجابة لهجوم فعلى ، فالتكشير عن الأنياب يعتبر إيماءة (إشارة). وبطريقة مشابهة ، فإن بداية استجابة الكلب الثانى تصبح بدورها علامة للكلب الأول ، هذه العملية التبادلية والمستمرة للإيماءات يسميها ميد «حوار الإيماءات (الاشارات) ، The Conversation of Gestures [10]

وعلى الرغم من أن هذه الإيماءات (الاشارات) ليست ايماءات (اشارات) لغوية بمعنى أن الايماءة ليست لها دلالة مجردة Signification التى للإيماءة الحيوانية والتى لا يستطيع الحيوان تفسيرها. أما الرمز اللغوى الحقيقي – تبعًا لرأى ميد – فله نفس الدلالة التى لدى الكائن البشرى الذي يستخدم الرمز مع كائن حى آخر يستطيع تفسيره. واعتقد ميد أن هذا التطور يسّر بصفة رئيسية وجود الإيماءة الصوتية (أو اللفظية) حيث أن الكائن الحى الذي يصدر الصوت يسمعه

---

(10) أشار فونت Wundt في أعماله الى موضوع «تبادل الإشارات في الاتجاهين المتضادين» (الإقدام والأحجام) The backward and forward interchange of gestures واقتبس ميد الفكرة في بحثه المذكور عن «العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة» (ص 381).

كما يسمعه كائن حى آخر، ولو اشترك عدد من الناس في هذا الصوت في مواقع معروفة لاستجابوا له أيضا، لأن هذا الصوت سيكون له نفس الدلالة لديهم جميعًا ما عدا الشخص الذي أصدر الصوت .

إن تفاصيل تحديد هذا التناول للغة ليس موضع اهتمامنا الحالى[(11)] . كما أننا لسنا على استعداد لكى نبين كيفية تناول ميد للعقل الفردى ، وقد بحث التفكير والذات Selfhood باستخدام رموز مصطلحات اللغة، وتركزت الموضوعات الاساسية للبرجماتيين على الإنسان ككائن أخلاقى ذكى، ويكفى الآن أن نؤكد على إن تحليل ميد للإيماءة (سواء أكانت لغوية أم غير لغوية) وضعت أساس الطبيعة السلوكية للمفسِّر والتى طوّر بيرس على أساسها نظريته في العلامات Semiotic ، وأدى تقديم ميد لنظرياته مستقلاً عن بيرس إلى اعتبار تقاربهما مثيراً بدرجة أكبر .

والنص التالى أول نص مقتبس من كتاب : «العقل والذات والمجتمع» Mind self and society يقول فيه ميد :

---

(11) يفضل ميد مصطلح «الرمز الدلالي» Significant Symbol على ما تسميه «الرمز اللغوى» Language symbol ، فقد ناقش اللغة من خلال أعماله المتعددة ومنها «العقل والنفس والمجتمع» وهو عمله الرئيسي الذي تحدث فيه عن «العامل السلوكي للرمز الدلالي» A Behavioristic Account of the significant symbol لكى يعبر عن وجهة نظره.

وللمزيد من النقد أنظر كتابى «العلامات واللغة والسلوك» Signs, Language and Behavior، الفصل الثاني ، وكذلك بحث جون م.بروستر John M. Brewster «العامل السلوكى للوظيفة المنطقية للكليات»
Behavioristic Account of the logical function of universals.

«ينشـأ المعنى ويكمن داخل إطار العـلاقـة بين الإيماءة gesture التى »
« يبـديهـا الكائن الحى والسلوك الصـادر عن هذا الكائن والذي يشـيـر »
«به الى كـائن حى آخـر عن طريق الإيماءة. واذا كـانت هذه الإيماءة التى»
«تشـيـر إلى الكائن الحى الآخـر ناتجـه Resultant عن سـلوك الكـائن»
«الحى الذي صـدرت عنه الإيماءة إذن فـإنهـا تكون ذات مـعنى ... »
«والمعنى اذن هو تطوير لشيء مـا يعـبـر عن شيء آخـر لبـيـان عـلاقـة »
«أوجه معينه للفعل الاجتماعي إنه ليس إضافة فـيزيقيـة للفعل وليس»
«فكرة idea بالمعنى التـقليـدي .. (ولكن) المعنى هو المعطى المذكـور»
«في عـبـارات Terms ناتجـة عن الاسـتـجـابة، إن المعنى هو (شيء) »
«ضـمنى implicit .. وإن لم يكن دائمًا مـوجـود وجـوداً ضـمنيًا -»
«في العـلاقـة بين عـدة أوجه للفـعل الاجتـمـاعى الذي يشـيـر اليـه »
«ويخـتلف (في ذات الوقت) عـمـا تطور عنه . ويكون تطويره في»
«عـبـارات رمـزية in terms of symbolization على المسـتـوى»
«التطورى البشرى».

والنص الثانى مقتبس من كتاب : فلسفة الحاضر» The Philosophy of the Present ويبين شرح ميدللأفكار ideas في كلمات تمثل الاستجابات المنظمة Organized responses ، أكثر من استخدامها لشرح معنى العلامات يقول ميد في هذا النص :

«يبدو أن هناك جانب من الفكرة في الخبرة التى تستخدم بعض الرموز »
«الحسـيـة، وقـد تكون من النوع الخـيـالى imaginery أو المتـخـيل أو»
«شيء يمكن رؤيته أو سـمـاعـه، أمـا الجانب الآخر من الفكرة - الكلى »
«المنطقى والميتافيزيقى The logician's and metaphysician's universal»
« - فـيعـود إلى مـا أشرت إليـه مـثل الاسـتـجـابات المنظمـة التى يمكن »

«اختيارها من بين صفات الأشياء عند عزلها عن المواقف التى وقعت فيها هذه»
«الاشياء وعلى وجه الخصوص كما يحدث في الاستجابات المعتادة »
«بالنسبة للموضوعات المألوفة التى تكوّن أفكارنا عن هذه الموضوعات»
«.. واستجابة الكائن الحى لهذه الاستجابات المنظمة في علاقتها »
«بالموضوعات كما يحدث في الجوانب الأخرى من عالمها. وهكذا فإن»
«هذه الاستجابات تصبح موضوعات بالنسبة للفرد » (12).

إن أهم إسهامات ميد في نظرية العلامات هي تحليله (الذي اعتمد فيه) على السلوك الذي يرمز إلى اللغة، وتفصيله للدور الرئيسي لمثل هذه الرموز (على ضوء) تطورها ومحافظتها على حياة الفرد والمستويات الأعلى للمجتمع الإنسانى. وسوف نتناول أهمية هذه النواحى في فكر ميد فيما بعد .

p . 37 **8 - جون ديوى ولغة القيمة :**

كان جون ديوى من أكثر البرجماتيين الذين عنوا أكثر بمشكلات القيمة Problems Value . فقد تناول على المدى الطويل الأخلاق Ethics ، والفلسفة الاجتماعية Social philosophy ، والتربية Education ، وعلم الجمال Aesthetics ، وعلى المدى القصير الدين Religion ، وسوف نعنى ببعض تفاصيل هذه الموضوعات في الفصل الأخير (من هذا الكتاب). أما ما يتصل هنا بموضوعنا ، فهو أن شخصًا كهذا يمثل هذه التوجهات، (يتناول) مشكلة

---

(12) ميد ، «فلسفة الحاضر» ، ص ص 75 - 76 .

مصطلحات وأحكام معنى القيم (مثل «الخير» Good وما «ينبغى» ought، ، وذلك من خلال بعض استخداماتها، فتصبح «أحكام القيمة» Judgments of value وأحكـــام الإلـــزام Judgments of obligation همـــا محـــور الإهتمـــام .

وقد تأثر ديوى كثيراً بمعالجة ميد للغة، إلا أن ميد (نفسه) لم يتناول على وجه الخصوص مصطلحات القيمة ، بينما تزايد تأثير بيرس على ديوى (بعد تأثير ميد في هذه الموضوعات خاصة) [13]، ولم يطبق بيرس القضية البرجماتية على عبارات القيم بوضوح، وإذا كان قد تمكن من تطبيقها فإن هذا الأمر مثار تساؤل ، ولكن ديوى لم يشرع في هذا الطريق. وكتب عن بيرس : «إن المنهج البرجماتي الذي طوّره يطبق فعلاً على نطاق ضيق ومحدود في عالم الخطابة Universe of discourse [14]، لذلك ذهب ديوى في تحليل مصطلحات القيمة والأحكام ، على وجه الخصوص - على طريقته الخاصة .

قام ديوى بتحليله الأول في بحث مكّون من ثلاثة أجزاء بعنوان : «منطق أحكام الممارسة» The Logic of Judgments of Practice ، حيث قام بتعريف

---

(13) أنظر عبارة ديوى المقتبسة في كتابى «ست نظريات عن العقل» Six theories of Mind(ص 322) وهى مأخوذة عن خطاب لجونديوى يقول فيه «انني سعيد فقد ساق ميد العبارة التى كنت أريد أن أقولها بطريقة أقوى، ولا شك أنها تنتسب لكل من بيرس ورويس، لكن بعد نسبتها إلى ميد».

أنظر : الفصل الخامس بعنوان : الطبيعة والاتصال» Nature and Communication في كتاب ديوى «الخبرة والطبيعة» Experience and nature ، وبه نقاط هامة كثيرة تتناول طريقة معالجة ميد للغة.

(14) انظر : مقال جون ديوى «تطور البرجماتية الامريكية» The Development of American Pragmatiosm ، وقد نشر المقال في الأصل باللغة الفرنسية عام 1922.

ممارسة الفعل كحكم بالطريقة الآتية :

«يتم تنفيـذ الفـعل وفـقًا لأحكام الموقف وطبـقًا لجـدول زمـنى Agenda»
«وذلك للقيـام بأفـعـال .. أو تلك التى يجب فـعلها . فـيـوجـد ، على »
«سـبيل المثـال قـضـايا الصـورة أو الشـكل Propositions of the form»
p . 38 «مـثـال م. ن يجب أن يفـعل كـذا وكذا ، فـمن الأفـضل، والأكـثر تعقـلاً»
«وحكمـة والأصح ، ومن المتحسن ، والاكثـر ملائمة، والأكثـر نفعًا..الخ»
«أن نفـعل كـذا وكـذا ، وهذا هو نوع الحكم الذي أصـادق على أنه »
«حكم عملى »[15] .

يحتوى حكم الممارسة بالنسبة للموضوع على مشكلة يجب حلها، لهذا كتب ديوى أن الحكم حكم مزدوج binary :

«إنه حكم بمعنى أن المعطى يجب معاملته معاملة خاصة، وهو أيضا حكم»
«بمعنى أن المعطى يسـمح بمثل هذا التناول، أى يسـمح بحكم مـوضـوعى»
«مـحـدد. إنه حكم – (يتناول) نفس التـسلسل – خـاص بالـهدف، أى»
«يجب أن تكون هناك نتيجة له ذات معنى »[16] .

ويعتبر ديوى أن حكم القيمة بهذا التحليل أداة لحكم الممارسة، ويقول :

«.. ولكى نقول أن أحكام القيمة تقع داخل هذا الإطار فيجب أن نقوله »
«لشيئين: الاول : أن حكم القيمة لا يكون كاملاً في ذاته أبداً، ولكنه»
يعتمد على تعميم ما يجب عمله ، والثاني : أن أحكام القيمة (كأحكام»

---

(15) ديوى «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic ، ص 335
(16) المصدر السابق ، ص 340 .

«تختلف عن الخبرة المباشرة لموضوع ما على أنه خير) وتتضمن أن »
«القيمة ليست هي أي موضوع معطى مسبقًا، ولكنها موضوع يعطى »
«لقاء فعل يقع في المستقبل .» [17]

ولقد ذهب ديوى إلى أبعد من ذلك في تحليله المبكر : فقد اقترح أن كل «أحكام الواقع»Judgments of fact (عبارات اثبات وصفية وعلمية) تنفصل عن أحكام الممارسة (ممارسة الفعل) Judgments of practice ، (يقول ديوى) :

«يمكننا أن نكوّن على الأقل فرض مؤداه أن كل أحكام الواقع لها دلالة»
«على تحديد determination مجريات الفعل يتم تجربتها واكتشاف»
«المعاني الواقعية منها، وبناءاً على المعنى الذي سبق شرحه فإن كل »
«كل القضايا ، التي نتجت عنها الاكتشافات discoveries أو تحققت»
«بالتجربة ascertainments وكل القضايا المطلقة Categorical
propositions ستصبح افتراضية (شرطية)Hypothetical ... ويمكن»
«أن نسمى هذه النظرية بالبرجماتية Pragmatism ولكنها نوع من»
«البرجماتية التى لا تعتمد تمامًا على علم النفس الإرادي A volun »
« taristic psychology وهى ليست معقدة مثل عمليات الاشباعات»
«العاطفية emotional satisfaction أو لعبة الرغبات The Play of
desires » [18]

---

(17) المصدر السابق ، ص 361 .

(18) المصدر السابق ، ص 347 . ونلاحظ أن لفظ «دلالة» Reference في هذا النص تعبير مضلل إلى حد ما ، فهو قد يبين ببساطة أن أحكام الواقع هى أحكام الممارسة.

لا يأتي ديوى على تأكيد أحكام الممارسة دائمًا بنفس العبارات (المصطلحات) دائمًا ، ففى نظريته عن التقويم Theory of valuation يعلن عن رضا أن الاحكام العملية يمكن أن تقوم على أساس «أحكام واقعية Factual judgment ، وفى بحث متأخر بعنوان : «مجال القيمة» The field of Value ذهب ديوى الى عكس ما أكده في منطق أحكام الممارسة The Logic of Judgments of Practice وقال إن الأحكام العملية هى أحكام لا تختلف مطلقا في نوعها عن الأحكام الواقعية (حيث يستخدم بصفة أساسية لكى تجعل الاتجاهات Attitudes لا تختلف في محتواها عن الأحكام (الأخرى) .

وطالما أن بيرس لم يطورّ بأى نوع من أنواع التفصيل تحليله الذي تناول بها عبارات القيم والأحكام، وطالما أن ديوى لم يستخدم الأطر العملية لنظرية العلامات لدى بيرس ، فإنه من الصعوبة بمكان أن نقارن بدقة بين الرجلين في هذه القضايا[19] . ولا تبدو هذه الفروق بينهما بهذا الإتساع الذي يراه ديوى في ملاحظاته بالمعنى الضيق الذي اقترحه بيرس في القضية البرجماتية Pragmatic

---

(19) يميز بيرس بين ثلاثة أنواع من المفسِّرات للرموز interpretants of symbols وهى : الانفعالى emotional والعضلى (الميكانيكي) The energetic والمنطقى The logical. (انظر المجلد الخامس ، الفقرتان 475 - 476 ، والمجلد الثامن الفقرتان 314 - 315) فهل تعد هذه الرموز هى الأسس الممكنة للفروق بين معانى أحكام القيمة والإلزام والواقع (الحقيقة) .. Judgments of value, of obligation and of fact وتناول بيرس هذه المفسِّرات الثلاثة بطريقة التجزئة لكى يبين أن مثل هذه العلاقة سيكون لها شأن جلل وربما تكون هذه المفسِّرات أقرب إلى مقولات بيرس المعروفة وهى Firstness و (Thirdness) وsecondness منها إلى الدلالة الوصفية والتقييمية Appraisive and prescrip-

maxim ، ويعطينا تحليل ديوى الواضح تعبيرات القيمة والأحكام وعلى وجه التخصيص «معنى ذهنيًا» Intellectual purport بالمعنى الذي يستخدمه بيرس في تعبيره، وسيوافق بيرس على هذه النقطة بالتأكيد . (كما يفعل حقًا جميع البرجماتيين). ولست متأكداً تمامًا من أن القضية البرجماتية (التى ذكرها) بيرس لا تشتمل على تحليل ديوى ، ولكنها لم تكن لتستطيع (ذلك)، لأن نتيجة بيرس يمكن بالتأكيد أن تكون نتيجة ساهمت في تأكيد الذات المعقولة (أو معقولية الذات) ، ويذكر بيرس عَرَضًا طبيعة البرجماتية بطريقة تكاد تتطابق مع العبارة التى ذكرناها لديوى . وهكذا يكتب بيرس :

«البرجماتية هى المبدأ (القائل) بأن كل حكم نظرى يُعبر به (باستخدام)»
«صيغة دلالية هى صورة مضطربة له من الفكر، وتكمن معانيها»
« - اذا كان لها معان - في ميلها نحو تدعيم قضية عملية »
«مماثلة معبَّر عنها بعبارة شرطية تحتوى في ذاتها على التسليم » p . 40
«بالصيغة الضرورية الإلزامية » .(20)

ويبدو أنه من العدل أن نختتم (الحديث بقولنا أن) ديوى بيّن بطريقة أكثر وضوحًا بعض أوجه معنى تعبيرات القيمة والأحكام التى تتوافق مع النظرية

---

(20) بيرس ، المجلد الخامس ، الفقرة 18 .

العامة للعلامات لدى بيرس ، والتي لم يطوّرها بيرس نفسه بالتفصيل على وجه الخصوص.(21)

9 – تعقيب على نظرية العلامات البرجماتية

شملت الصحائف السابقة كل ما قالته الحركة البرجماتية عن العلامات Signs ، حقًا إنه بمعنى خاص تقريبًا (قيل) أن كل موضوع فى هذه الحركة له علاقة – سواء مباشرة أم غير مباشرة – بنظرية العلامات Semiotic طالما أن الحركة كلها موجهة نحو موضوع المعنى . وسوف نتوسع في عدد من النقاط الخاصة في المناقشات (المتناولة) في الفصول القادمة وما استفدناه منها. ولكن ما قيل يسمح بمراجعة أو تعقيب عام على الموقف .

والنقطة الاكثر أهمية (التى نود التركيز عليها) هى أن البرجماتية – أكثر من أى فلسفة أخرى تضمنت نظرية العلامات في نظرية الفعل أو السلوك، فعلاقة العلامة بالنسبة لما تعنيه دائمًا ما تكون المفسِّر المتضمن في الوسيط mediation ، والمفسِّر هو فعل أو نزوع نحو الفعل عند الكائن الحي .

---

(21) نجد شرحًا وافيًا لموقف ديوى من هذه الموضوعات في الأعمال التى لها علاقة بالفن مثل : «الفن كخبرة» ويحتوى على تمييز بين الحس sense و «الدلالة المجردة» signification ويعنى بلفظ «الحس» المعنى الذي يمكن التعبير عنه The expressive meaning في العمل الفني، كما يمكن أن نجد تفسيراً للعلامة كتصور مقترح في الفصل الرابع، الجزء الثامن من هذا الكتاب .

وقد حدد بيرس المجال العام لنظرية العلامات وتحرك في الإتجاه الذي أعطاه أسس سلوكية أو فعلية actional ، كما رأينا في الصيغة التى وضعها للقضية البرجماتية. هذا الأساس السلوكي ، وعلى وجه الخصوص في مجال اللغة، كان p . 41 أكثر وضوحًا في عمل ميد. فقد درس بيرس نفسه بالتفصيل جزء يسير من نظرية العلامات التى تصورها ، ولكنه لم يدرس نظرية علامات الدليل والصورة The theory of indexical and icon signs إلى المدى الذي قام به في نظرية الرموز The theory of symbols ، وحتى في نظرية الرموز كان تركيزه أكبر على نوع الرموز التى يمكن استخدامها تقريبًا فى أي برهان argument (يعتمد على الرموز الذهنية) intellectual symbols ، ويبدو أنه اعتقد أن الرموز التى في الفن والأخلاق والدين هي من هذا النوع، إلا أنه لم يتناول أبداً مثل هذه الرموز بطريقة كافية لكي يقيم البرهان على هذا الموقف. فقد كان تأكيده أولاً على الناحية الدلالية للرموز، وعلاقة هذا الجانب بالدلالة الوصفية والتقييمية (واستخداماتها المتعددة) لذلك وظلت غير متطورة نسبيًا.

واهتم جيمس على العكس من ذلك بمعاني العبارات الأخلاقية والدينية والوظائف التى تؤديها في سلوك الفرد في الحياة، ولكنه لم يتوسع في نظرية العلامات بنفس الطريقة التى حلل فيها مثل تلك العبارات الملحة ، ولكنه فسرّ القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تخدم اهتماماته هو ، مما أدى ببيرس الى تغيير موقعه من البرجماتية Pragmatism إلى البرجماطيقية Pragmaticism .

وكان ديوى - باهتمام مشابه لإهتمام جيمس - أكثر وضوحًا في تحليله واعتقد في توسيع نظرية المعنى لدى بيرس عن طريق تحليل «أحكام الممارسة» (أحكام ما ينبغي عمله) . واذا كان لدى ديوى الكثير ليقوله عن عبارات القيمة والأحكام الواضحة المتميزة ، إلا أن الحقيقة هى أنه لم يقم بتبسيط

نظرياته داخل إطار نظرية العلامات العامة مما جعل من الصعوبة بمكان أن نقارن نظرياته بنظريات بيرس، وأن نجيب على ما يثار من تساؤلات حول علاقات المفسِّرات بمثل هذه العبارات (المصطلحات) مثل «الخير» Good و «وما ينبغى» ببعضها البعض ،[22] وما توصل إليه بيرس عن مفسِّرات الرموز . p . 42

وعلى الرغم من أن البرجماتيين الآخرين لم يكتبوا بوضوح عن نظرية العلامات العامة (السيمائية) لدى بيرس ، فانه من الواضح ان نظرياتهم عن «المعنى» يمكن أن تعتبر – اذا استرجعناها – كما لو كانت تملأ الفجوات الموجودة في مجال نظرية العلامات والتى حددها بيرس . ونظرية العلامات الموسعة هذه لم تعنون بمثل هذا الاسم ، ولم تنظم بطريقة نسقية، إلا أنها تحتوى على كثير من المواد التى تناولت نظرية الدلالة الوصفية ، والتقييمية والمعنى من وجهة نظر معينة، وبعض استخدامات وظائف العلامات في السلوك الفردى والاجتماعى. إنها على أية حال نظرية «كاملة» عن العلامات ، وقد أهملت أنماطًا كثيرة من الكلام، وتم إساءة توظيف العلامات في حياة الفرد والمجتمع مما جعل (الكثيرون) يجهلونها وعلى نطاق واسع. وبرغم ذلك فإن نظرية العلامات في

---

(22) قام سى. آى. لويس C .I. Lewis بالتمييز الحاد بين «الخير» Good و «ما ينبغى» ought ، وبالتالى بين أحكام القيمة وأحكام الإلزام اكثر مما فعله ديوى . فالأول (لويس) تناول التمييز في كتابه «تحليل المعرفة والتقييم» An Analysis of knowledge and valuation والأخير (ديوى) اقترب منه بطريقة أولية (مبكرة) في كتابه «الأساس وطبيعة الحق» The Ground and Nature of the right . هذا بالاضافة إلى كتاب آخر للويس بعنوان «العقل ونظام العالم» Mind And world Order ، وبهذا قدّم لنا إسهامات هامة شملت جميع النظريات التى عالجت نظرية العلامات البرجماتية .

الحركة البرجماتية وضعت الأسس - نسبيًا - لمجال البحث على نطاق واسع وهو ما تتصف به الأنشطة الحالية في هذا المجال . وفتحت نظرية العلامات - مثل معظم خصائص الحركة البرجماتية - بما سلكته من طرق فتحت الباب لمجالات أوسع مما اكتشفته هى ذاتها (23) .

(23) يمكن اعتبار كتابي «العلامات واللغة والسلوك» مضافًا إليه كتابى الأخير بعنوان «المعنى والمغزى» Signification and significance كتابان يسهمان في شرح البحوث التى صدرت عن «نظرية العلامات» التى قدمها الفلاسفة البرجماتيين على اختلاف مشاربهم، فلم أكتبهما وفى عقلى هدف مسبق .

وقد بدأ عملى ابتداء من ميد وليس من بيرس حيث جاء تأثير كل من ديوى ولويس وبيرس ورودولف كارناب فيما بعد وبنفس الترتيب الذي ذكرته الآن .

الفصل الثالث

الميثودولوجي (علم المناهج) البرجماتي

الفصل الثالث

الميثودولوجي (علم المناهج) البرجماتي

1 - توجه عام p. 48

البرجماتيون أنفسهم لا يستخدمون مصطلح الميثودولوجي «علم المناهج» كثيراً بالمعنى الذى يرد في المشكلة التى تسمى تقليديًا بالابستمولوجيا (نظرية المعرفة The theory of knowledge) ، ولكن طالما أن هناك تصورات كثيرة عن الإبستمولوجيا التقليدية والحديثة يرفضها البرجماتيون، فإنه سيكون مضللاً أن نستخدم مصطلح الابتستمولوجيا كعنوان لهذا الفصل. ويمكن أن يكون العنوان المناسب هو «نظرية البحث البرجماتية» Pragmatic theory of inquiry ، ولكن أسباب (استخدامه) ستتضح عندما يتقدم بنا التحليل .

وغالبًا ما يستخدم البرجماتيون مصطلح الإبستمولوجيا بطريقة مذمومة، وكأنهم يشيرون إلى شيء ما عليهم تجنبه في الواقع . ويرجع هذا إلى ديكارت، واكثر الى فلسفة ما بعد الديكارتية Post - Cartesian Philosophy ، وفهمت الإبستمولوجيا على أنها مشكلة تختص بكيفية استدلال الشخص من معرفة حدسية تختص بحالاته العقلية (الذهنية) الخاصة Private mental states إلى وجود العقول الأخرى والموضوعات غير العقلية (غير الذهنية) nonmental objects . وأحيانا تُذكر المشكلة في صورة مصطلحات «الخبرة» ، وكيف يتجاوز p. 49 الشخص الذي يعرف خبرته الذاتية ، طالما أنه يعتقد أن الخبرة حالة «عقلية» mental و «ذاتية» subjective (في آن واحد) .

وقد اعتبر البرجماتيون هذه (المشكلة) مشكلة زائفة Pseudsproblem تقوم على تصورات زائفة من الخبرة والمعرفة والعقل ، ولهذا فطالما التصقت هذه المشكلة بالإبستمولوجيا ، فقد أصبح البرجماتيون يحاولون تجنب استخدام المصلح، وصاغوا «نظرية المعرفة» الخاصة بهم في مصطلحات مختلفة من حيث تصور الخبرة والعقل .

وكانت الحركة البرجماتية منذ البداية تعادى الفلسفة الديكارتية بصفة أساسية، وتعادى تلك النظريات الخاصة بالتجريبية الانجليزية التى تشترك مع الديكارتية Cartesianism ، وحاول بيرس في ثلاث مقالات طويلة نشرها عام 1868 في «مجلة الفلسفة التصورية أو النظرية» Journal of speculative Philosophy أن يصيغ «الروح الديكارتية» The spirit of cartesianism ، وأنكر بالبرهان الطويل المبادىء الرئيسية التى تقوم عليها [1] . وذكر النتائج التى توصل اليها في المجلد الخامس ، الفقرة 265. وهذه النتائج هى :

---

(1) عناوين المقالات الثلاث هى : «تساؤلات تتعلق ببعض الملكات الخاصة بالإنسان» Questions Concerning Faculties Claimed for man، و «بعض النتائج لأربع قدرات عاجزة» Some consequences of four Incapacities و «أسس صلاحية قوانين المنطق» Grounds of Validity of the Laws of Logic ، و «نتائج أخرى لأربع قدرات عاجزة» Further Consequences of four incapacities ، وتوجد هذه المقالات في مجموعة الأبحاث Collected Papers الخاصة ببيرس، المجلد الخامس الفقرات 213-357 . ولم يركز بيرس هجومه في هذه المقالات على فكرة الجوهر Substance الديكارتية، كما أنه لم يذكر وجهة نظره الخاصة بما هو «نفسى» Psychical ، وما هو «مادى فيزيقي» Physical ولكنه وجّه جلّ اهتمامه نحو الإبستمولوجيا الديكارتية. وهناك مناقشات أخرى متأخرة نشرها بيرس وذكر فيها أسباب رفضه لنظرية المعرفة الديكارتية .

١ - ليس لدينا فكرة عن الاستبطان Introspection ، ولكن كل معرفتنا عن العالم الداخلي تنبثق من الاستدلال الفرضي (الشرطي) hypothetical reasoning الذي يتناول معرفتنا بالوقائع الخارجية .

٢ - ليس لدينا فكرة عن الحدس intuition ، ولكن كل معرفة يمكن تحديدها منطقياً عن طريق المعارف السابقة (*) .

٣ - ليس لدينا فكرة عن التفكير بدون (استخدام) العلامات Signs.

٤ - ليس لدينا تصور عن اللامعرفة المطلقة The absolutely incognisable.

ومن ثم فإنه بالنسبة للمعرفة عند بيرس لم تكن لتفهم على أنها عملية تستند الى المعرفة الحدسية لأنفسنا والتى نحاول بطريقة ما أن تشتمل على الموضوعات الأخرى الخارجة عن ذواتنا التى لم نحدسها . ولكن اذا كان العلم، وما ينتج عنه من معرفة knowledge لم ندركه داخل إطار الفلسفة الديكارتية، فأين وكيف تمت دراستها ؟ (ومن ثم)فإن الإجابة القاطعة للحركة البرجماتية نجدها p. 50
في دراسة «البحث» وهى تختص «بالبحث في البحث» By inquiry into inquiry .

2 - تصور بيرس للبحث

وضع بيرس تصوره الأساسى عن البحث في مقاله الذي أصدره عام 1877 بعنوان «تثبيت الاعتقاد» The Fixation of Belief ، والموقف (الذي أخذه

(*) نذكر هنا أهمية الخبرة في المعرفة البرجماتية. (المترجم) .

بيرس كما صوره ماكس فيش Max H. Fisch قريب للغاية من موقف عالم النفس الانجليزي «ألكسندر بين» [*] Alexander Bain ، وقد قوّم بيرس أفكاره المبكرة عندما تقدمت به السن والمعرفة ، الى الحد الذي جعل بعض المعلقين على فلسفته يعتبرون هذا التقويم بمثابة نظرية أخرى في البحث [2].

ولكن الصيغة الأصلية التى لها مثل هذه الأهمية التاريخية في تطور البرجماتية والتى يجب أن ننظر إليها هنا على إنها الأساس ، هى غالبًا ما نسميها «نظرية الشك / الاعتقاد في البحث» The doubt/ belief theory of inquiry. وقد استخدم مصطلح «البحث» inquiry في مقال عام 1877 لكى يشير إلى To denote الصراع (الذي نشب) لكى يتجاوز حالة إثارة الشك The irritation of doubt إلى حالة الاعتقاد (اليقين) State of belief ، وعلى الرغم من اعتراف بيرس بأن «هذا لا يلائم في بعض الأحيان ما كان يقصده » [**]. (المجلد الخامس ، الفقرة 374) واستمر بيرس يقول :

«إن إثارة حالة الشك هو الدافع المباشر الوحيد من الصراع وذلك لإرساء»

(*) الكسندر بين (1818 - 1903) كا ن من أبرز تلاميذ جون ستيورات مل ، وكان أستاذاً بجامعة أبردين، وله عدة كتب منها : «الحواس والعقل» 1885 و «الانفعالات والارادة» (1859) و «الروح والجسم» (1873) و «المنطق (1875) ساهم في «منطق» مل وله «ترجمة لحياة ستيوارت مل» . (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص 350 (المترجم) .

(2) أنظر بحث موراى جى . مورفى Murray G. Murphey «تطور فلسفة بيرس» The development of Peirce's Philosophy لتتعرف اكثر على نظرية البحث وتطورها عند بيرس.

(**) Inquiry معناها المألوف البحث كالبحث العلمى مثلا، ولكن بيرس يستعملها بمعنى الرغبة في الانتقال من حالة الشك الى حالة الاعتقاد ، وعند ديوى تعنى الرغبة في تغير الواقع تغييراً يكون اكثر تحقيقًا لصالح الانسان». د. زكى نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد ، ص 133 . (المترجم).

«(قواعد) الإعتقاد (اليقين) .... ولهذا ، فإنه بحالة الشك إنما يبدأ»
«الصراع وبالتوقف عن الشك ينتهى ، ولهذا (أيضا) فإن الموضوع »
«الوحيد للبحث هو تثبيت اليقين The settlement of Opinion»
(المجلد الخامس ، الفقرة 375).

إذن لقد أخذ بيرس في إعتباره أربعة مناهج لتثبيت الاعتقاد. ففى منهج العناد The method of tenacity يحاول الإنسان ببساطة أن يثير الشك بجهد غامض لاعادة الثبات، وبهذا يداوم على الاعتقاد بلا انقطاع وقد بدأه الانسان (من قبل) بالشك . وفى منهج السلطة The method of authority يبحث
p. 51 الانسان عن إثارة حالة من الشك عن طريق إخضاع معتقداته لإحدى السلطات المقبولة . وفي المنهج القبلي The priori method يقبل الإنسان بعد البرهنة تلك الاعتقادات التى يجدها أكثر ملائمة، فالانسان يعتقد «فيما هو متعلق بالفكر» (المجلد الخامس ، الفقرة 385) . ويذكر بيرس أن معظم الفلاسفة انتهجوا المنهج القبلي، ويعطينا مثالاً على ذلك بديكارت على وجه الخصوص (المجلد الخامس ، الفقرة 391) . أما المنهج الرابع ، والذي يقبله بيرس ذاته ، وسخره في مجال الفلسفة ، فهو منهج العلم The method of science .

ولم يحاول بيرس في مقاله «تثبيت الاعتقاد» أن يصف المنهج العلمى بشيء من التفصيل ، فإن ذلك تم في مقالات أخرى بالفعل في أعمال بيرس ككل، ولكنه أورد فكرة عامة عن المنهج العلمى نتبينها فيما يلى من عبارات :

«إنه المنهج الذي تمكنا به من تحديد معتقداتنا عن طريقه ولا يمت »
«للانسان بصلة، ولكنه يمت بصلة لديمومة خارجية، (أى) لشيء »
«ليس لفكرنا تأثير عليه ... فهو يجب أن يكون شيء ما ذا تأثيرات»
«أو ينبغى أن يؤثر - على كل انسان ، وعلى الرغم من أن تلك »

«المشاعر الضرورية مثلها مثل العديد من الحالات الفردية ، فإنه مع»
«ذلك يعتبر المنهج الذي يصبح نتائجه النهائية بالنسبة لكل انسان »
«هي نفسها، وهذا هو المنهج العلمي» .
(المجلد الخامس ، الفقرة 384) .

إن المنهج العلمي - كما يفهم - هو المنهج الذي اذا اتبع باستمرار يؤدى بالضرورة بكل باحث علمي الى نفس النتيجة.

(أما) علاقة الاعتقاد بالعادة Habit فإنها تطورت في المقال الذي صاحب ظهور (المقال الأول) «كيف نجعل أفكارنا واضحة» (أو كيف نوضح أفكارنا) How to Make our ideas clear الذي ظهر بعد سنة (من ظهور المقال الاول) وفى نفس المجلة ، فلدينا هنا - كما لاحظنا من قبل في الفصل السابق - الصيغة المبكرة (الأولى) عن القضية البرجماتية، وعلى الرغم من هذا فإن هذا العنوان Label لم يستخدم بعد. ومن ثم فإن التأكيد الذي ذكره «بين» Bain عن العلاقة بين الاعتقاد والعادة يظهر الآن بصورة قوية :

«إن الوظيفة الكلية للفكر هي ايجاد عادات من الفعل ، ... فإن ما » p. 52
«يعنيه الشيء هو ببساطة ما تتضمنه العادة .. فلا يوجد تمييز في»
«المعنى يكون أكثر اتساقا من وجوده فى أى شيء آخر ، ولكن الفرق»
«الممكن يظهر من خلال الممارسة » .
(المجلد الخامس ، الفقرة 400) .

وقد لاحظنا في الفصل السابق رد فعل بيرس بازاء هذه الصيغة عن المعنى، وتوسيعه له لكى يربط بين محاولة الإصلاح وتحقيق هدف معقولية الذات reasonableness Concrete reason ونلاحظ الآن أن نظريته في البحث تتغير

بطريقة مشابهة Correspondingly altered [3]. وقيل فيما بعد أن البحث يكون مدفوعًا «بالانجذاب نحو الفكرة ذاتها » (المجلد السادس، الفقرة 307) ، ومن المفترض أن الأفكار إنما تكون جذابة طبقًا لما لها من قدرة على الاسهام بقدر من الجاذبية الجوهرية والنهائية التى تنسب الى معقولية الذات ... ويترسخ التأكيد الأساس على البحث مثل التأكيد على ذوبان الشك في الإعتقاد، لكى يحل محله البحث داخل الميتافيزيقا المثالية عند بيرس . وبالطبع، فإن هذه (النظرية) كانت نظرية جيمس المبكرة عن البحث ، قبل أن تظهر التعقيدات المتأخرة في فكره والتى تركت تأثيرها على التطور التاريخي لنظرية البحث البرجماتية .

3 - آراء ديوى في البحث

صدرت دراسة منطق ديوى عام 1938 بعنوان : «نظرية البحث» The Theory of inquiry ويعتبر من أكثر الصيغ نضجًا في مجال علم المناهج «الميثودولوجيا» ، ولكن إستمراراً للاتجاه الذى أشار اليه في أعماله المبكرة مثل «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic و «كيف نفكر» How we think ، فإن هناك دليل على أن مقال بيرس «تثبيت الإعتقاد» ترك تأثيره على ديوى في عمله المبكر ، وحتى في كتابه «المنطق» Logic حيث كان معنيًا بأن يؤكد بالدليل على وجه الشبه بين آرائه في «المنطق» بتلك لدى بيرس ، وكان أحد مراجعه الأساسية التى أشار فيها لبيرس المادة (التى وجدها) فى بحث «تثبيت الاعتقاد» [4]. وهناك محاولة لبيان أن أعمال ديوى وبيرس في هذا المجال أعمالاً متكاملة حقًا، وبرغم ذلك فقد كان رد

---

(3) أنظر ، موراى جى. مورفى، «تطور فلسفة بيرس» ، ص ص 356-64 .

(4) أنظر ، ديوى ، «المنطق ، ص 14 رقم 4 .

الفعل عند بيرس عنيفًا ضد الصيغة التى كتبها ديوى مبكرًا عن موقفه (موقف ديوى)، ومع ذلك فإنه يوجد بعض الفروق الأساسية والهامة لتأكيد ذلك ، ويجب ملاحظتها أولا .

وأحد هذه (الفروق) يدور حول تأكيد ديوى في «المنطق» على الخاصية الإشكالية للموقف كبحث أساسى Problematic Character of a situation as initiating inquiry أكثر من تأكيده على الحالة السيكولوجية (النفسية) للشك. وفي الصفحات الأولى من كتابه «المنطق» كتب عن البحث بإعتباره الوسيلة لإثبات الانتقال من «الموقف غير المحدد » an indeterminate situation إلى «الموقف المحدد » determinate situation ولكن بتقديم برهانه هذا أصبح من الواضح أن ذلك «غير المحدد » يمكن أن يعالج الإشكالية Problematic ، وأن الخاصية الإشكالية للموقف تتضمن اضطراب الفعل المستمر .(5) وعلى الرغم من أن التأكيد يختلف نوعًا ما بهذا الشكل عن الصيغة المبكرة لبيرس ، فإن الشك يبدو أنه يتضمن اضطراب unsetting الإتجاه المعتاد للفعل .

وهناك فرق آخر يأتى عن طريق التأكيد على «الموقف» Situation، فإذا كان اضطراب الفعل متضمن في موقف بعينه ، إذن فإن حل البحث سيفترض أنه موجود (أيضا) فى استمرار الفعل بازاء هذا الموقف المحدد .. وقد حاول باحث ما أن يبرهن على أن بيرس يجب أن يقف نفس الموقف ، طالما أن الشك المحدد

---

(5) يبدو هذا أكثر وضوحًا في حالة هربرت ميد ، فبالنسبة إليه فإن الاشكالية تعود إما إلى موقف لم يجد المثيرات المناسبة لكى يتجه نحو الفعل المستقبلى ، أو إلى الصراع الدائر بين مختلف اتجاهات السلوك .

انظر: مقال «نظرية الصدق البرجماتية» A Pragmatic Theory of Truth .

يجب أن يكون له موضع محدد وإثبات محدد ، ومع ذلك فإن بيرس في الحقيقة لم يؤكد على باحثين بعينهم في مواقف بعينها ، ولكن جاء تأكيده على مجموعة من الباحثين ، أما «العادة» التي يكونها البحث وموضوعها فقد ساقها لنا
بيرس في عبارات مثل : «كيف يمكن أن تؤدى بنا إلى الفعل ، ليس فقط تحت p. 54
مثل هذه الظروف كما يبدو لنا أنها نشأت ، ولكن تحت ظروف يمكنها أن تحدث فيها ، ولا يهم كيف يمكن أن تكون بعيدة الاحتمال (المجلد الخامس ، الفقرة 400) ، وسوف يتبين لنا الفرق الذى نشأ عن هذا التأكيد في مناقشات متأخرة عن الصدق Truth ونظرية المعرفة Knowledge . و ميّز ديوى بين «الحكم» و «القضية » مما مكنّه – على الأقل إلى درجة ما – من أن يجد مكانًا فى تقديره لتأكيد بيرس Peirce emphasis ، ومع ذلك فإن التأكيد على أنماط محددة من المواقف تستدعى بحثاً محدداً، وهو ما نجده عند ديوى (وعند جيمس وميد) ، وهو أحد التناقضات البارزة بين بيرس وباقى البرجماتيين الكبار .

(ويتمثل الفرق) الثالث ، وربما كان الفرق الأكثر أهمية فى موقف ديوى من أن «الحكم» يعتبر هو التحول الحقيقى من موقف «الإشكالية» غير المحددة إلى موقف «الاشكالية» المحددة . (و «القضية » الأخيرة التى تتناقض مع الحكم، هى فقط القضية التى (تستخدم) التعبير الرمزى في الحكم ، ولهذا تظل ممكنة الإستخدام في مواقف أ خرى [6] . وهنا يوجد شيء ما متناقض تقريبًا وهو : أنه بالنسبة لبيرس – كعالم تجريبي – فإن البحث ينتهى (باحداث) تغير فى الاعتقاد ، وبالنسبة لديوى – وهو ليس عالمًا تجريبيًا ينتهى به البحث إلى تغير

---

(6) ان فكرة تمييز الحكم من القضية – وهى فكرة مسيطرة على عقل وكتابات ديوى – ليست فكرة تقليدية . وبالنسبة لى (تشارلز موريس) فهى على الاقل فكرة ينشأ عنها بعض الصعوبات وبالتالى لم أؤكد عليها فى حديثى . ولمناقشة هذا الموضوع انظر أبحاث متعددة عن ===

في الموقف . ويبدو انه كما لو كان ديوى أكثر «تجريبية» من بيرس . والآن (نجد)أن بيرس ذاته يصر فى مجال القضية البرجماتية على أن المعنى يجب أن يتضمن في الفعل ، ولكن مثل هذا الفعل كان ضروريا لكى نحصل على دليل حسى للبرهنة على تكوين اعتقاد جديد ، بينما يتضمن هذا (الرأى) - على أية حال - تغير في الموقف المباشر ، والتغير ليس - كما لدى ديوى - تحويلا في الموقف ذاته من «الاشكالية» إلى «اللااشكالية» .

إن الفروق الثلاثة التى بيّناها (فروقًا) أساسية وهامة. أنها تبدو أن لها p. 55 علاقة بالواقع fact الذى يتوجه اليه اهتمام ديوى ومنه إلى البحث الأخلاقى ، بيتما يتوجه اهتمام بيرس الي البحث كما يتناوله العالم الطبيعي ، وبعد الأخذ في الإعتبار علاقة المنطق بالبحث ، فإننا سوف نعود إلى القضية الخاصة لنؤكد على انه بالرغم من أن هذه الفروق مؤكدة ، فإن النظريات العامة لبيرس وديوى بازاء البحث هى نفسها بصفة أساسية .

4 - المنطق والبحث :

إن عنوان أكبر كتب ديوى في هذا المجال هو «المنطق : نظرية البحث» جعل فيه ديوى المنطق ونظرية البحث متطابقان ، وقد اعتقد ديوى بوضوح أنــه فى هذا الكتاب يعمل على شاكلة بيرس : «فإن بيرس على حد علمى هــو أول

=== ديوى كتبها إرنست ناجيل فى مجلة «هيمنة العقل» Sovereign Reason ، وعلى وجه الخصوص بحث «تجديد ديوى للنظرية المنطقية» Dewey's Reconstruction of Logical Theory.

وأنظر ايضا : إتش» . إس . ثاير H. S. Thayer «منطق البرجماتية» The Logic of Pragmatism.

كاتب في المنطق جعل البحث ومناهجه المصدر الأول والأساسى لموضوع المنطق؟ (المنطق ، ص 9n).

واعتبر ديوى أن مبادئه الخاصة فى المنطق (والتى سنعرضها حالا) نقل أمين عن بيرس (المنطق ، ص14 , n. 4) . فكيف يمكن إذن أن نفسر خطاب بيرس 1905 إلى ديوى والذى ذكر فيه أن نظرية ديوى تمنع بالتأكيد تكرار كل الأبحاث التى من هذا النوع كتلك وهى التى استوعبتها خلال الثمانية عشرة سنة الأخيرة ؟» .

ويتعلق الفرق (بين الفيلسوفين) فى جانب منه عند استخدام المصطلحات Terminological ، فقد استخدم بيرس مصطلح «المنطق» بتوسع أكثر من المعتاد ، واعتبره «بالمعنى العام» general sense مجرد اسم آخر لنظرية العلامات ...، شبه ضروري (أوله ضرورة زائفة) The quasi-necessary أو صورى ، نظرية العلامات» (المجلد الثانى ، الفقرة 227) (7) ، وبهذا المعنى العام ينقسم المنطق (كما لوحظ) الى ثلاثة أقسام فرعية subdivisions ، أحدهما «المنطق النقدي» critical logic أو «المنطق الخالص» Logic proper ، وهو نظرية p. 56 الاستدلالات inferences (الابعادي abductive والاستدلالي deductive والاستقرائي inductive) ، ولكن بيرس أيضا لديه تقسيم آخر لنظرية العلامات Semiotic (و «المنطق» Logic بالمعنى العام) وقد سمّاه بأسماء متعددة مثل ، فن الخطابة النظرى Speculative Rhetoric و «ثنائي المنهج» methodeutic

---

(7) لاحظ ديوى نفسه أن «نظرية البحث » inquiry تتضمن رموزاً symbols, لأن النظرية المنطقية تتضمن نظرية في الرموز (المنطق ص ص 19 - 20) ، ولكن الموقف لم تتم معالجته بالتفصيل.

وكـذلك «نظرية فى البـحث theory of inquiry (المجلد الثـانى الفـقـرة 106) وتحدث فى هذا النوع الثالث من التقسيم عن «نظرية العلامات «باعتبارها أعلى قسم للمنطق واكثره حيوية) .

وبناءً عليه فإن تصور ديوى «للمنطق» على أنه نظرية في البحث يمكن أن يعتبر نوع من التطوير لهذا القسم الثالث من المنطق بالمعنى العام وهو المصطلح الذي اختاره بيرس ، بينما عمل ديوى نفسه ، في مجال المنطق النقدي ، وهكذا فإن الفرق الواضح يتعلق باستخدام المصطلح بصفة أساسية ، وطالما أن معظم المناطقة المعاصرين لا يستخدمون «المنطق» بمعنى نظرية البحث ، فإن بعض الأشخاص قد تعاطفوا مع كتاب ديوى (مثل سى . آى . لويسC. I. Lewis) وشعروا بالأسف لأن ديوى إستخدم مصطلح «المنطق» كعنوان له . وأعتقد أن ديوى نفسه اعترف بهذا وذكر أنه ربما كان من الأفضل أن يسمى كتابه ببساطه «نظرية البحث» .

وعلى الرغم من ذلك فهناك نقطة تستحق أن نذكرها وهى (أن الفرق) ليس اصطلاحيًا ولكنه تاريخيًا . فعمل بيرس الرئيسى كمنطقى كان في «المنطق النقدى» وعنى فى البداية بتحليل أشكال الاستدلال بالتفصيل. وكان عمل ديوى المبكر هو «المنطق» غير أنه لم يطوّر أو يؤكد على الناحية«الصورية» في المنطق. وهكذا فإن خوف بيرس من أن نظرية ديوى لن يكون لها مكان حيث أن مجال عمل ديوى الأساسى كان في المنطق على وجه الخصوص . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يكن حقيقيًا حيث طوّر ديوى موقفه كما هو في كتابه «المنطق»: «نظرية البحث » .

وبالنسبة لبيرس ، فهناك ثلاثة أشكال للاستدلال هى : الإبعاد (أو الفرض) والاستدلال ، والاستقراء . وفى كل شكل من أشكال القياس كان الاستدلال

يتطلب بالاضافة إلى ذلك قضايا Premises ومبدأ موجه منطقى أو صورى a leading principle.

p. 57 والمبدأ الموجه المنطقى هو عادة أو منهج دائمًا ما يوجه إلى «الصدق» أو يوجه الى تقريب غير محدد نحو «الصدق»، أو هو بوجه عام ، تقريب نحو التحقق من الصدق (بالتجربة). (المجلد الثانى ، الفقرة 354).

إن المبادىء المنطقية الموجهة إما صورية Formal أو مادية Material ، ويتصف النوع الأول بالصدق في كل لحظة يوجد فيها ، وهكذا فإ ن المبدأ الموجه المنطقى الصورى بالنسبة لقياس بربارا Barbara (كل أ هى ب ، وكل ب هى جـ إذن كل أ هى جـ) يفسره بيرس على أنه مبدأ عام فى نظرية العلامات :

«إذا كانت علامة واحدة تصدق بوجه عام على كل شيء ، فإن كل »
«شيء يصدق على العلامة الثانية ، وهذه العلامة الثانية تصدق »
«بوجه عام على كل شىء ، وكل شيء يصدق على العلامة الثالثة»
«إذن فإن الأولى تصدق بوجه عام على كل شيء وبالتالى يصدق »
«على العلامة الثالثة » .
(المجلد الخامس ، الفقرة 320) .

ما هو مكان مثل هذه المبادىء الصورية (أو المنطقية الموجهة) في تحليلات ديوى ؟ لقد ذكر ديوى موقفه العام كما يلى :

«كل الأشكال المنطقية (بخواصها المميزة) تنجبس داخل عملية »
«البحث ، وتُعنى بضبط البحث حتى يمكن استنتاج قضايا مؤكدة»
«مبرهن عليها . ويتضمن هذا التصور أبعاد أكثر مما تكشف عنه »
«معظم الأشكال المنطقية خاصة عندما نفكر في عمليات البحث»
«المستخدمة بالطبع إنها تعنى ذلك ، ولكنها تعنى أيضا ، أن »

«الأشكال تنشأ فى عمليات البحث» .

(المنطق ، ص ص 3 - 4) .

ويقول فى نسبة الإستدلال الى المبادىء المنطقية ما يلى :

«إن هذه المبادىء المنطقية المرشدة ليست مقدمات في الاستدلال أو»
«البرهان ... إنها أشكال تنتج عن طُر ق معالجة موضوع البحث »
«الذي يوجد لكى نحدد (عن طريقه) نتائج كانت معروفة في »
«الماضى الذي وجدت فيه ، وذلك لامكان تنظيم (اجراء) بحوث»
«أخرى مستقبلية حتى يتم تحديد الأسس التى عن طريقها يتم» p. 58
«التساؤل.» (المنطق ، ص 13) .

وهكذا فإن المبادىء المنطقية هى « (مبادىء) من الوجهة العملية قبلية a priori بالنسبة للبحث المستقبلى» ، «وتعتبر هى المصادرات postulates والشروط Stipulations »[8] . وبهذه الطريقة وجد ديوى مكانًا للمبادىء المنطقية الصورية في نظريته العامة للبحث ، وبنفس الطريقة كان قادراً على استيعاب وتعديل القضايا التحليلية غير الوجودية The analytic nonexistential propositions للرياضيات وكتب عن المنهج الرياضى يقول

«لقد تكوّن هو ذاته (المنهج الرياضى) على أساس التحرر من»
« الاستدلال الوجودي للنوع وعلى الأخص الاستدلال غير المباشر ،»

---

(8) أنظر : ديوى «المنطق» ، ص ص 14 - 16 ، وقد طوّر لويس موقف مشابه عندما تناول تصوره عن «البرجماتية كمبدأ قبلى Pragmatic apriori مستخدمًا مصطلحات عدّها هو نفسه مبادىء منطقية مثل «مبادىء الاجراء أو الاجرائية Principles of procedure ، وقد عرض وجهة نظره في بحثه الهام «مفهوم البرجماتية للقبلى» A Pragmatic conception of Apriori وقام أخيراً بتطويرها في كتابة «العقل ونظام العالم» . ولكن - لدهشتى - لم يشر ديوى الى تحليل لويس المبكر عندما كتب «المنطق»

« والذى يعتبر اكثر تأخراً وبعداً » .

(المنطق ، ص 396) .

اننا نجد فى نظرية البحث أن وظيفة القضايا الرياضية هى تحويل القضايا الوجودية (المركبة) synthetic الى قضايا أخرى مثل تلك القضايا التى يمكن اختبارها تجريبيًا بسهولة .

(المنطق ، ص 396) .

لذلك فإن معارضة بيرس لديوى تقوم على أساس «تأصيل» ديوى لتصور المنطق الذي لا يشتمل على ذلك النوع من البحث المنطقى الذى برهن بيرس على أنه منطق لا أساس له على ضوء موقف ديوى المتطور .

ويشمل منطق ديوى المنطق النقدى لبيرس ، لأن نظرية البحث عند ديوى تشتمل أربع مراحل رئيسية هى : (1) شكل المشكلة ، (2) صياغة الفروض لحل المشكلة ، (3) استدلال النتائج من الفروض ، (4) اختبار صحة الفروض عن طريق اختبار النتائج التى يستدل عليها . وتطابق المراحل الثلاثة الأخيرة بوضوح نسبيًا أنواع الاستدلال الثلاثة لبيرس وهى : الإبعاد أو الفروض ، والاستدلال ، والاستقراء . وبهذه الطريقة فإن الأنواع الثلاثة «للمنطق النقدى» التى حللها بيرس وضعت في مكانها في نظرية البحث كما نجدها في تحليلات ديوى .(9)

---

(9) حقًا ، إن بيرس ذاته كان يعتبر - أحيانًا - أنواع الاستدلال الثلاثة وكأنها مراحل ثلاث في نظرية البحث وهى : الابعاد Abduction والاستدلال Deduction والاستقراء Induction، وهى التى أطلق عليها مراحل البحث وهى : الشعور The first، والإرادة Second ، ===

p. 59 **5 - جميس ومفهوم الصدق :**

إن نظرية البحث هى فكر موجه نحو حل مشكلة ما ، وهى لب النزاع بين البرجماتيين حيث (يرون) أن المشكلة تحدث دائمًا فى سياق غير إشكالى Unproblematic ولا يمكن أن يكون كل شيء «إشكالى» أى أن يكون محل شك كما جاء فى الصياغة المبكرة لبيرس على الإطلاق . ولهذا فلا يوجد مشكلة عامة عن «وجود العالم» The Existence of the world ، كما لا توجد «خبرة» Experience تمثل مثل هذه المشكلة . فالكائنات الإنسانية المفكرة تعيش في عالم يواجه من المشكلات في هذا العالم اكثر مما يواجهون . وقد طوروا مناهج نظرية البحث (خصيصًا) لكى يتناولوا هذه المشكلات ، وكان المنهج العلمى هو المنهج المفضل للفيلسوف البرجماتى .

وعن طريق استخدام تعبيرات هذا الاتجاه ، فإن العالم الذي يقع تحت خبرتى ليس هو هذا العالم ، في كليته ، موضوعًا « للصدق» أو «المعرفة» ، ونحن متأكدون من أن جيمس تحدث عن الخبرة المباشرة على أنها «إدراك مباشر» Knowledge by acquaintance ، ولكن الفرق بين الخبيرة المباشرة لشيء ما ، ومعرفته knowledge about it تبرهن على أنه فرق كبير، حتى أن البرجماتيين المتأخرين عادة ما يحددون «المعرفة» و (الصدق) بفروض مكتوبة بطريقة الرموز «عن» شيء ما ، إذن فالصدق والمعرفة خاصيتين (من خواص) الأفكار أو الرموز ، أى خواص هذه ؟ إنه من المفيد أن نبدأ مع جيمس بالإجابة على هذا السؤال ، طالما أن توجهه لا يكون باستخدام تعبيرات مباشرة من نظرية البحث كتلك الخاصة بالبرجماتيين الآخرين .

= = = والمعرفة / الاعتقاد / Third.

انظر : المجلد السادس الفقرات 468 - 473 ويطلق فى هذه الفقرات على الفرض اسم Abduction (الإبعاد) أو Retroduction .

كان جيمس صريحًا فى قوله إن القضية البرجماتية للمعنى يجب أن تطبق فى (مجال) تحديد معنى الصدق [10] ، ولنتذكر أن جيمس فسّر هذه القضية بطريقة الفصل أو الجمع المنطقى Disjunctively بين الظواهر ، كما يوجد أما فى العبارة «الاحساسات التى نتوقعها» أو «ردود الفعل التى يجب أن نستعد لها». وقد كنا نتوقع هذا الفرق لكى نبينه فى نظرياته عن الصدق . وقد بدأ بالاعتراف بأن الفكرة الصادقة «تتفق» agrees أو «تتطابق» (تتناظر) Corresponds مع الواقع [11] ، ويصبح السؤال عندئذ عما يعنيه (بكلمتى) «يتفق» أو «يتطابق» إذا كانت القضية البرجماتية في المعنى أصبحت مقبولة. ثم اعترف جيمس بعد ذلك بأنه اذا كانت العلامة نسخة من الصورة a copy-an icon ، فإن صورة نظرية الصدق تصبح مفهومة . ولكن ليس كل العلامات صور، وإذا كان المفسِّر المنطقى صورة ، كما قال بيرس ، عادة، إذن فكيف يمكن أن تتفق العادة أو تتطابق مع أى شىء (آخر) ؟ p. 60

لقد فكّر جيمس فى استخدام عدة طرق لكى يعبر بها عن مفهوم «الصدق» Truth ، ووجد أن النموذج الأصلى لعملية الصدق هو المبدأ الموجه منطقيًا أو تصوريًا نحو الفكرة وإلى (ما يمكن) أن (يتم) «التحقق منه تحققًا كاملاً وببساطة» وعلى سبيل المثال ، فإن الاحساسات (التأثيرات الحسية) تجعل الإنسان يتوقع ما يحدث بالفعل . وخلاف ذلك يكون بالإمكان تحقيق المبدأ

---

(10) تجد المصادر الرئيسية لتحليل جيمس لعبارة «الصدق» Truth فى فصول كتبه ، تصور البرجماتية للصدق» فى كتابه «البرجماتية Pragmatism «وتتمة للبرجماتية» A se- quel to pragmatism فى كتابه «معنى الصدق» The Meaning of truth .

(11) جيمس، «البرجماتية » ، ص ص 198 - 200.

الموجه منطقيًا أو صوريًا بصورة جزئية وليس بصورة (كلية) كاملة، ولكن التطابق (التناظر) مع الوجه الثانى لعبارة جيمس عن القضية البرجماتية يبدو فى نصوص تفترض أن فكرة ما تكون صادقة اذا كانت تمثل ردود الأفعال التى تشير الى أننا يجب أن نستعد لها وثبت أنها مناسبة لإستمرار مجريات الفعل الذي ارتبطنا به ، والعبارة التالية تبين وجهتى نظريته معًا :

«أن يتفق» مع الواقع بمعناها الواسع يمكن أن تعنى فقط أن يتم الارشاد»
« الى الواقع إما مباشرة أو إلى ما حوله ، أو أن يوضع (الواقع) في »
«مجال العمل المرتبط به إما لكى يتناوله أو (يتناول) شيئًا ما يتصل»
«به ، (وهذا) أفضل من عدم اتفاقنا ومن الافضل إما أن يكون »
«ذهنيًا أو عمليًا!» .

(البرجماتية ، ص ص 212 - 13).

وعندما ذكر جيمس أن الموضوع الصادق هو تلك الفكرة «التى تعطى أقصى حد للاقتناع (أو الشعور بالرضا) ، (مقالات في التجريبية الأصيلة، ص 260) ، وقد شمل الموضوع الصادق بوضوح كل من حدوث التنبؤ «تأثيرات حسية» Sensible effects والشعور بالاقتناع أو الرضا (بإزاء) ردود الأفعال التى يجب أن نستعد لها بسبب (و جود) الفكرة، إذن فإنه من دواعى السخرية أن نقول عن لسان جيمس أن أى فكرة بالنسبة إليه تمنحنا الشعور بالاقتناع فهى صادقة. ثم عرض علينا جيمس الصعوبات التى تواجه مفهوم الصدق نذكر أنها أحيانًا ماتأتى فى الحقيقة «بالاحساسات المتوقعة» Expected sensations بينما فى أوقات أخرى يبدو أن هناك شعور بالرضا بهذا الاقتناع Satisfactoriness خاصة تجاه رد الفعل الذى تمنحه لنا الفكرة، وهكذا استطاع ان يكتب أنه «على ضوء المبادىء البرجماتية فإننا لا نستطيع أن نرفض أية فروض اذا كانت النتائج

p. 61

اذا كانت النتائج نافعة للحياة التى تنبع منها »

(البرجماتية ، ص 177) .

وهناك مبدأ أساسى واضح (تسبب) فى هذا الخلط ، وهو أن التأكيد على الصدق كأفكار قابلة للتحقيق يضع «الاحساسات المتوقعة» Expectation of sensations في جانب تفسيره للقضية، بينما ينمو تأكيده على الصدق كأفكار مقنعة في بعض الأحيان إلى أن تعكس النتائج النافعة للحياة، وذلك عندما حاول تفسير تلك القضية، وهكذا ، فإن التأكيدين الواردين بشأن نظرية جيمس في الصدق يعكسان وجهتى نظريته في المعنى .

وحاول ديوى أن يحل مشكلة هذا الخلط لدى جيمس وذلك بالتأكيد المستمر الذى نجده فى البحث التاريخى الهام الذى نشره بعنوان : «ماذا تعنى البرجماتية بلفظ العملى؟» What does Pragmatism Mean by Practical? (12) ناقش فيه ديوى معالجة جيمس لنظرية الصدق وذكر أنه يوجد «خلط في اختبار فكرة ما كفكرة خاصة تلك المتعلقة بقيمة اعتقادى كاعتقاد» ، وأعلن أنه لا يوجد اقتناع لا يعد جزءاً من الفكرة وله صلة بامكان التحقق من صدقه . واعترف جيمس بنفس الموضوع في خطاب لـه عام 1907 الـى آرثر لفجوى Arthur O. Lovejoy (إستجابة لنقد مشابه للفجوى)، كتب أنه أخطأ sinned في خلطه بين نتائج الأفكار الصادقة القائمة بذاتها Per se ، وبين نتائج الأفكار

---

(12) المجلة الفلسفيةJournal of Philosophy 5, 1908. ص ص 85 - 99 . وتم طباعته أيضا في كتاب ديوى «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic . والنص المقتبس في هذا السياق من الكتاب الأخير ص 322n.

حتى تلك التى نعتقد فيها » [13].

P. 62 إن هذا الإعتراف الذي صدر عن جيمس ، كمايبدو ، اعترافًا هامًا، ولا يستطيع إزالة آثار كتاباته المبكرة عن الصدق، ولا أن يمنع غالبًا الخلافات الحادة التى نشأت بيه نقاده ومناصريه (معًا). ولكن الكتابات التى تحتويها دقيقة للغاية ، والموقف الذى آثاره جيمس له على الأقل ميزة إصدار كتابات هامة كثيرة عن علم العلامات semiotic ونظرية البحث The theory of inquiry، مثل الشروط التى على أساسها تكون العلامات «مقبولة» وعلاقة المعنى بالقيم ، وصفات العلامات الأخلاقية والدينية . ولم يكن لدى جيمس نظرية في العلامات متطورة تطوراً كافيًا ، تسمح له بالتحدث بوضوح فى مثل هذه الموضوعات ، وهكذا فإن أخطار الخلط بين المعنى والمغزى Signification and significance (أو الدال «وهو الجانب المرئى أو المسموع من العلاقة signification و«المدلول» وهو الجانب المجرد وغير الملموس للعلاقة) ، والصدق كقيمة ثم قيمة الصدق. ولكن كتاباته ساعدت على أن تفرض على مثل هذه الكتابات الوضوح . ولم يكن ممكنًا بعد جيمس أن نقول بوعى صحيح وببساطة أن الفكرة الصادقة «تتطابق (تتناظر) مع الوقائع»Corresponds to the facts.

6 - بيرس وديوى والصدق

قام كل من بيرس وديوى بتحليل مصطلح «الصدق» داخل سياق نظرية البحث، واعتبر بيرس في بحثه «تثبيت الاعتقاد» أن المنهج العلمى هو المنهج الوحيد بين المناهج الممكنة الذي يستخدم في هذا «التثبيت»، ولم يكن لتصور

---

(13) تجد الخطاب المقتبس في كتاب «فكر وشخصية وليم جيمس» The thought and character of William James بقلم رالف بارتون بيرى Ralph Barton Perry.

الصدق دور بارز :

«ولهـذا يبدأ الصـراع بالشك ، وبتـوقف الشك ينتـهى الصـراع، ومن»
« هنا فـإن الموضـوع الوحيـد لنظرية البـحث هو تثبـيت اليـقين. ويمكننا »
«أن نتـخـيل أن هذا ليس كـافـيًا بالنسـبة لنا ، وعليـه فـإننا يجب أن »
«نبـحث ليس فـقط عن اليـقين ، ولكن عن يقين حـقـيـقي ، إلا أنه»
«يجب وضع هذا التـصـور موضع الاختـبار، وسيـثبت أن هذا التـصـور»
«بلا أسـاس ، لأنه بمجـرد أن نصل إلى يقين ثابت فـسـتـشـعـر بأنك»
«مـقـتنع تمامًا ، سـواء أكـان الإعـتـقـاد صـادق أم كـاذب» .
(المجلد الخامس ، الفقرة 375)

p. 63 وتشير هذه العبارة إلى أن صدق الاعتقاد بالنسبة لبيرس ليس كافيا لكونه مقنع تمامًا لليقين ، إذن : ما هو صدق الإعتقاد ؟

سوف ينعكس تأكيد بيرس ذاته على المنهج العلمى - كما رأينا - على قبوله للقضية البرجماتية . وإذا كان ، كما تذكر القضية البرجماتية (على الأقل فى صيغتها المبكرة) ، معنى التصور الذهنى موجود في نوع الخبرات التى ستنشأ عن نوع معين من الفعل ، إذن فإن صدق القضية يثبت هذا التصور الذي يمكن أن يعنى ببساطة التحقيق Verification ، وأن نوع الخبرة فى القضية حقًا ناشىء عن نوع الفعل فى القضية . إن القضية الصادقة ستكون عندئذ قضية محققة تحقيقًا تجريبيًا، مثل «تحقيق نظرية الصدق» التىستتناسبمع عبارات إثبات كثيرة عند بيرس وكذلك مع عبارات اثبات كثيرة عند جيمس وديوى وميد . بالتأكيد انها علاقة رئيسة فى نظرية الصدق عند البرجماتيين .

ولكن هناك (بعض) التعقيدات ، فبالنسبة لبيرس ، طالما أن مثل هذه

المعانى عامة ، فإنه لا يمكن أن تكون محققة تحقيقًا كاملاً أبداً فى أي موقف خاص والذي يتطلبه البحث ، لهذا فأن تأكيد بيرس ابتعد عن التركيز على البحث في مواقف إشكالية خاصة ، ليركز على عملية البحث المستمرة عن طريق مجموعة من الباحثين ، ولن يحتاج اليقين الصادق أبداً إلى مراجعة عندما تتقدم خطوات البحث عن طريق الباحثين .

ونشأ عن هذا الوضع مشكلات كثيرة خاصة مع المعلقين الذين تناولوا كتابات بيرس بالنقد والتحليل ، فهل سلّم بيرس بأن الوضع فى البحث لن ينتهى به إلى الحقيقة أبداً ؟ أو اذا كان يمكن أن ينتهى به إلى الحقيقة ، فهل ستكون الاعتقادات الأخيرة للباحث صادقة؟ أو إذا كان سيأتى ذكر الصدق فى عبارات «محددة» خلال البحث بمثابة نظرية للدفاع «المحدد» فى هذه العلاقة ، ولن
p. 64 نحتاج إلى مناقشة هذه الآراء حاليًا [14] ، ويكفى أن نلاحظ أنه في تحليلات الصدق لا يمكن أن يتأكد الإنسان من أن ما يعتقده فى وقت معين وفى موقف محدد هو اعتقاد صادق (وبالرغم من ذلك فمن الممكن بالطبع أن يكون صادقًا ، هذا ما يعترف به بيرس صراحة ، وهذا الإعتراف الذى لم يشعره بالاضطراب يمكن أن يفسر فى الحقيقة بأنه كان يتمتع بمزاج خا ص هو مزاج العلماء الذين عاش بينهم، واعتياده على أن يعتبر الآراء العلمية تحتوى على موضوعات تجريبية مؤقتةَ (الصدق) وقابلة للتعديل كلما تقدم البحث ، ولكن هناك حقيقة

---

(14) أنظر : كواين W.V. Quine الكلمة وا لموضوع Word and Object ، ص 23 ، وأيضا «نظرية الصدق البرجماتية» The Pragmatic Theory of Truth فى كتاب : إدوارد مور Edward C. Moore البرجماتية الامريكية : بيرس ، جيمس ، وديوى American Pragmatism: Peirce, James, and Dewey

أخرى ذات صلة بالموضوع وهى أن بيرس لم يعتقد أن «المشكلات الحيوية Vital Problems فى الحياة يجب ألا نحلها بالبحث العلمى فقط ولكن بالقلب أيضا فهو أحرى من الرأس (15) .

وعلى الرغم من ذلك فإن معالجة ديوى للبحث كان عن طريق الفعل الأخلاقى حيث يجب أن تكون بؤرة الاهتمام هنا مركزة على الموقف Situation وليس عن طريق البحث الطويل عن التعريف ، لذلك ركّز ديوى على علاقة البحث بالموقف الإشكالى المحدد (كما فعل كل من جيمس وميد) ، وقد جعل هذا الموقف تحليل ديوى للبحث تأكيداً مختلفًا نوعًا ما (ولكنه متسق) أكثر مما نجده عند بيرس (خاصة كتابات بيرس المتأخرة) . وقد لاحظنا من قبل أن تأكيد ديوى على الأفكار يعتبر «كخطط للفعل» As Plans of action كما في الأحكام التى تقرر ما يجب عمله لحل المشكلة الموضوعة عن طريق الموقف المحدد Specific situation ، لذلك فإذا كان الفعل قد تم تأديته والمشكلات قد تم حلها فإنه يقال أن الفكرة أو الفرض قد تم التحقق منه ، وأنه صادق (16) . وبهذا المعنى يكون الصدق قد تحدد طبقًا للموقف ، ويبدو أنه موقف مختلف عن موقف بيرس .

أزالت صيغة ديوى هذه التعارض الظاهرى ، حيث أبدى ولاءه لإستخدام

---

(15) أنظر : بحوث عام 1898 التى تشكل الفصل الأخير (الخاتمة) من المجلد الأول من مجموعة الأبحاث لبيرس Colleted Papers والفصل بعنوان «موضوعات هامة حيوية Vital important topics.

(16) ديوى ، «مقالات في المنطق التجريبى» ، ص 346 .

بيرس لعبارة الصدق [17]، إلا أن تأكيد ديوى ظل مركزاً على البحث حيث عنى بإقرار المشكلات المحددة ، وبهذا المعنى الفضفاض تحتاج عبارة «الصدق» إلى إضافة شيء ما أكثر تحديداً. وفى الحقيقة ، فإن عبارة الصدق في «المنطق» (وعبارة نظرية المعرفة Knowledge) ، ترتد إلى الأساس الأول ، ويصبح التأكيد على تعبير «الإقرار المبرهن عليه » Warranted assertion أولى. p. 65

ويكون الإقرار مبرهنًا عليه إذا تكوّن على أساس أن الدليل له علاقة بالمشكلة المعطاة، وإذا كان الفعل على أساس المشكلة المطروحة موجوداً فإن البحث يقوم بحلها. وقد استخدم ديوى (لبيان) هذه العلاقة تعبير «الحكم» Judgment ، أكثر مما استخدم تعبير «القضية»Proposition : والحكم هو إقرار بالموقف المشكّل (غير المحدد) بإزاء موقف غير مشكل ومحدد). وكما ذكرنا من قبل فإنه يمكن وضع نتائج البحث فى «قضية » حتى تكون في متناول الاستخدام الممكن في مواقف إشكالية أخرى مشابهة .

ولا نجد هناك اختلافا للاساس الذى اعتمد عليه ديوى في التحليل طالما أن عملية البحث العامة تهتم بالربط بين البحث العلمى والبحث الأخلاقى ، وكلاهما يتبع النموذج العام للبحث الذى لخصه ديوى . أما الفرق الموجود بينهما فيمكن إيضاحه عندما نقدم تصور كل منهما عن القيمة فقط .

---

(17) انظر : كتاب «المنطق» ص 345n . وقد اعترف جيمس (كأحد الذين استعملوا تعبير الصدق»، بأن «الصدق المطلق» لا يعنى أية خبرات بديلة في المستقبل ، وأن النقطة المثالية الغائبة عنا هى أننا نتخيل أن كل حقائقنا المؤقتة سوف تلتقى عند نقطة واحدة في يوم ما ، وأضاف قوله : «وفي نفس الوقت علينا أن نعيش اليوم بالصدق الذى نحصل عليه اليوم، وأن نكون على استعداد في الغد لأن نطلق عليه صفة «الكذب» Falsehood (البرجماتية ص ص 222 - 223).

7 – المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند بيرس

اعتبر كل من بيرس وديوى منهج البحث اللذين قاما بتحليله هو المنهج العلمى بالإضافة إلى تلك البحوث الخاصة بالفهم المشترك Common Sense على إعتبار أنها ارهاصات العلم . كما أعتبراه أيضا المنهج المناسب للفلسفة
P. 66 التى قبلت القضية البرجماتية . وكما فعل العلم على زمن نيوتن Newton[*] الذي أدخل الرياضيات والتجريب Experimentation فى المنهج العلمى، فكذلك يبدو أن تعميم نظرية البحث جعل كل من النزعة العقلية والتجريبية فى مستوى واحد مع الفلسفة التقليدية بينما تجنب التعبير عنهما منفردين [18] . وسوف يوجه البحث الفلسفى لحل المشكلات الخاضعة للخبرة، وافتراض الحلول التى يمكن اختبارها في العالم الواقعى (وهو خاضع أيضا للخبرة) . ولكن بما أن منهج الإبعاد abduction (أو الفرض Hypothesis) لا يمثل استقراءً بالنسبة لبيرس . وهو تأمل واضح (كما أنه منهج منفصل عن منهج القياس Deduction) سوف يتسقا مع قبول القضية البرجماتية ، مما يعلمنا أن الفروض المقترحة قادرة على الضبط بإستخدام الملاحظة التجريبية empirical observation .

ومع ذلك فقد شك نقاد كل من بيرس وديوى ، فيما اذا كانت فلسفاتهما تتسق بالفعل مع نظرية البحث التى طوّراها وكرّسا نفسيهما من أجلها. وهذا

(*) اسحق نيوتن Isaac Newton (1643 - 1727) عالم الطبيعة الانجليزي الأشهر وفلكى ورياضى أيضا ، مؤسسة علم الميكانيكا الكلاسيكى، مكتشف قانون الجاذبية وأهم كتاباته هى «المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية» (1687) والبصريات (1704) . (المترجم) .

(18) أنظر : تحليل ديوى للنزعتين التجريبية والعقلية التقليديين في فصل الخاتمة من كتابه «المنطق» Logic

هو الحد الذي وصلا إليه في الواقع ، فالنقد الذى يمكن أن يوجه إلى فلسفاتهما بخصوص ابتعادهما عن المنهجية الصريحة ، أو يمكن توجيهه نحو نظريتهما في البحث لكونها تعبير غير مناسب لما قاما به فى الواقع كفلاسفة . ويُنظر أحيانًا إلى بيرس على أنه سقط في قبضة النزعة العقلية التقليدية (وهو كذلك لإتباعه المنهج القبلى apriori method ، بينما يُنظر إلى ديوى على أنه فشل سواء في أن يتعدى مأزق «الذاتية» subjectivistic للمذهب التجريبي التقليدي أو تعديه النزعة المثالية الموضوعية Ojective idealism للتراث (الفلسفي) الهيجلى. بينما اعتقد أن هذه الاتهامات غير قابلة للدفاع عنها مطلقًا، فقد بدا أنه من الأجدر أن ننظر الى ما يوجه لأعمال كل من بيرس وديوى ويؤدى إلى توجيه مثل هذه الإتهامات ، ولا سيما أننا لا نرغب في استباق مناقشة ميتافيزيقاهما - موضوع الفصل الأخير - فإننا نستطيع أن نتناول هنا بعض الكتابات المنهجية المتميزة فقط .

ويبدو أن النزعة العقلية الميتافيزيقية Metaphysical Rationalism لدى
p. 67 بيرس أتته من يقينه الميتافيزيقى في المنطق والتحليل المنطقى .

وقد حاول في أعماله المبكرة أن يتعدى المنطق الكنطى Kantian logic بصياغة منطق يستخدم فيه عبارات علم العلامات terms of semiotic وتصور عندئذ قوانين المنطق كما تصور مباديء العلامات التى لها ضرورة قبلية.

وعلى الرغم من ذلك فلا شك أن بيرس إتجه في بعض الاحيان الى إعطاء مدلولات ميتافزيقية مجردة لنتائج التحليل المنطقى . وقد واجه باستمرار continuity صفة العلامات (علامة تنشأ عن علامة ومنهما تنشأ علامة أخرى وهكذا ...) (*)ولهذا أعتبر أن الاستمرارية صفة حقيقة على الإطلاق . وتوصل

(*) نلاحظ هنا تأثير بيرس بالديالكتيك (الجدل) الهيجلى الذي يستخرج المركب من الموضوع ===

الى ثلاثة أنواع فقط من القضايا هى (الواحدية monadic والثنائية dyadic ، والثلاثية triadic) واعتبر ذلك دليل علي وجود ثلاث مقولات ميتافيزيقية فقط . وعلى العموم فقد كان بيرس على ثقة من أن العقل المتطور كتطور العلامات طبقًا لقوانين الاستدلال) يطابق (يناظر) التطور العام للكون Cosmos).(19)

وغالبًا ما كان بيرس يكتب بهذه الطريقة «العقلية» Rationalistic ومع ذلك فإن هذا الاتجاه يجب أن يُعدل على ضوء العبارات الملّحة المتساوية التأثير وهى :

«إن التصورات التى تعتبر نتاجًا حقيقيًا للتفكير المنطقى ، لابد من »
«أن ينظر اليها على انها كذلك ، فضلا عن انها تمتزج مع أفكارنا »
«العادية وتكرر هذا الامتزاج بصفة دائمة» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 370) .

بالاضافة إلى ذلك يذكر بيرس في بعض الاحيان أن «الاستمرارية»

= ونقيضه، وهكذا في حركة مستمرة دائبة الى أن يصل إلى المطلق ، أما بيرس باعتبار انه لا يؤمن بالأفكار المطلقة فقد اعتبر ان عملية التحليل المنطقى عملية مستمرة لا نهاية لها طالما ان هناك علامات تنشأ عن علامات أخرى في حركة جدلية لا تنتهى . (المترجم).

(19) لا يشارك جيمس بيرس ثقته فى تطابق Isomorphism المنطق مع الواقع ويقول : «إن أهم الملامح الرئيسية (الأساسية) لتكويننا الذهنى هى ما نعنيه بدراسة القواعد grammar والمنطق Logic ، وتأتى القوة violence بعدهما في الترتيب الطبيعي كإنعكاس لما نعتقده في وجودها » (العبارة مقتبسة عن بيرى R. B. Berry في كتابه سالف الذكر «فكر وشخصية وليم جيمس» المجلد الاول ص 718 .

continuity هى مبدأ منهجى Methodological principle[20] (يجب ان نبحث فيه بقدر ما نستطيع عن هذه الاستمرارية) ، وبرغم ذلك فقد كتب في معظم كتاباته عن الاستمرارية كما لو كانت مبدأ منهجيًا عامًا . ويجب ألا ننسى أن بيرس قبل موقف (أو مبدأ) عدم القابلية للخطأ Fallibilism في فلسفته،
ومهما كان اقتناعه الذاتى بميتافيزيقاه ، فقد اعترف أنه ليس متأكداً من p. 68
صدقها ، وعلى سبيل المثال ، فهى لن تكون قابلة للتعديل من خلال بحث تالٍ . وبهذه العلاقة أدرك أن التطبيق الفينومينولوجي والعلمي للمقولات الميتافيزيقية الثلاثة التى اعتقد أنها تكشف عن تحليل منطقى ، إنما كشفت عن مقولات ميتافيزيقية أخرى .

ومع أن «عقلية» بيرس كما تبدو ، عقلية ذات اتجاه دوجماطى بمعنى أن ميتافيريقاه لن تتسق مع منهجية البحث المقبولة ، ومن ثم لم يكن يقصد أن يكون فيلسوفًا قبليًا بالمعنى الذي ورد في مقاله «تثبيت الاعتقاد» حيث قابل فيه بين المنهج القبلى وبين المنهج العلمى . أما أن يكون بيرس متسقًا دائمًا مع ما يقصده فهذا موضوع آخر .

---

(20) كتب بيرس في المجلد السادس الفقرة 173 أن «الاستمرارية» synechism (أو مبدأ الاستمرارية The principle of continuity ليس نظرية ميتافريقية خالصة، بل إنها مبدأ تنظيمى فى المنطق» ، واعتقد تشارلز هارتشورن Charles Hartshorne - الذى تعاطف بدرجة كبيرة مع فكر بيرس - أن هناك خلطًا بين فكرة الاستمرارية الممكنة (أو المنطقية) وفكرة الاستمرارية الفعلية . وهى من أكبر أخطاء بيرس الخطيرة .

انظر : مقال هارتشورن بعنوان : «أحد اسهامات تشارلز بيرس في الفلسفة وأكبر أخطائه الخطيرة

"Charles Peirce's One Contribution of Philosophy and his Most se-

8 - المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند ديوى

أما بالنسبة لديوى فإن هناك إتهام عام بأن نظريته في البحث تؤدى الى الشك skepticism فيما يتعلق بحدود المعرفة التى جاءت بها التجريبية الانجليزية . ولهذا أعلن أنه بالنسبة إليه فإن «العالم ... ينهار (ويتحول) الى النزعة المباشرة The world ... Collapses into immediacy » . وهناك اتهام آخر له علاقة بالاتهام الأول وهو أن نظرية البحث عند ديوى تؤدى الى ميتافيزيقا مثالية idealistic metaphysics وفيها يتم توجيه العقل Mind إلى ما هو معروف فى البحث .

ويعود أساس هذه الاتهامات على ما يبدو الى تأكيد ديوى المستمر على البحث باعتباره يتضمن تحويل Transformation الموقف الاشكالى الى موقف لا إشكالى ، لذلك فالمعرفة لا تحتوى الا على الموقف المتحول كموضوع لها ، وعلى ذلك فيبدو أنه لن توجد معرفة للموقف الفطرى initial situation قبل تحوله ، أو أى شيء (آخر) لم يصدر عن هذا التحول . p. 69

ولنذكر العبارة بطريقة أخرى ، عَرف ديوى - في بعض الأحيان - الموضوع بأنه حادثة ذات معنى an event with meaning ، وطالما أن البحث يقوم بتكوين موضوع بهذا المعنى ، كجزء من عمله ،(وعلى سبيل المثال ، إن الموقف لم يعد اشكاليا ، ولم يعد له معنى غير محدد) فإنه سيبدو لنا أن الشيء المعروف هو موضوع مكوّن في عملية البحث ، فلا شيء معروف يقع «خارج» البحث .(21) ومن هنا نشأ الاعلان الخاص بأن ديوى ظل فقط مع الخبرة المباشرة. وإذا كنا

---

(21) كتب ديوى في «المنطق» يطلق اسم الموضوعات objects - موضوع هذا الكتاب - على الموضوعات الناشئة عن تنظيم متسلسل لما نسميه البحث» ، «فالأشياء توجد فقط كموضوعات اذا كانت قد حُددت من قبل كنتائج للبحوث » (ص 119) وهنا استخدام خاص لمصطلح «الموضوع» object ، وليس مصطلحًا عامًا يستخدمه البرجماتيون.

تعتبر البحث بحثًا «ذهنيًا» mental ، فإن ابراز دور «العقل» - في اعتقاد ديوى - يوجه الموضوع (بطريقة مباشرة) نحو ما يعرفه.

وقد رد ديوى على مثل تلك الاتهامات مرات عديدة ، وأخذ في اعتباره أن وجهة نظره عن العالم World-view تمثل «النزعة الطبيعية الثقافية» Cultural naturalist والتى تعتبر الخبرة جزء من الطبيعة وليست هى كل الطبيعة . وفى المقال الطويل الذي رد فيه على هذه الإتهامات وهو بعنوان «الخبرة، والمعرفة ، والقيمة » Experience, Knowledge and value ضمن كتاب «فلسفة جون ديوى » (الذى أشرف على إصداره بول آرثر شلب) رد ديوى مرة أخرى على الإتهامات وذكر ، أن نظريته في المعرفة لا تتسق مع كوزمولوجيته الطبيعية Naturalistic cosmology . ويجدر بالقارىء الذي يجد نفسه مهتمًا بالجدل حول هذا الموضوع أن يرجع إلى مقال ديوى المفصّل في هذا الشأن . ولكن طالما أن علاقة نظرية البحث البرجماتية بالكوزمولوجيا البرجماتية علاقة جوهرية ، فإننى أخصص بقية هذا المبحث والمبحث القادم لإيضاح هذه العلاقة وذلك لتدعيم بعض الأسباب التى تبين لماذا تتسق نظرية البحث البرجماتى مع الكوزمولوجيا الطبيعية (أو الواقعية) [22].

إن نظرية البحث هى بحث في البحث inquiry into inquiry ، لذا وكما يعتبرها ديوى بإستمرار، فإنها تفترض مسبقًا أبحاث أخرى لموضوعات ذات صلة بموضوع الدراسة . أما اتهامه بأن المشكلة التى تدعو الى البحث تكمن داخل p. 70
مجال لا إشكالى على إساس بحث تلك الأبحاث الأخرى، فإن البرجماتى يعلن أن

---

(22) أنظر ايضا مقالى : «البرجماتية والميتافيزيقا» Pragmatism and Metaphysic
وأيضا مقال سى . آى . لويس C.I. Lewis «بعض الاعتبارات المنطقية المتعلقة بالذهن»
Some Logical considerations Concerning the Mental.

هذا الإتهام إنما هو «إقرار مبرهن عليه» Warranted assertion .

ولا تحل نظرية البحث العامة محل المباحث المحددة الأخرى بطبيعة الحال ، لذلك فإن هناك تساؤلاً يدور حول عمر الأرض مثلا يجاب عليه ببحث محدد يتناول هذا التساؤل . وإذا جاءت النتيجة (التى نصل اليها) فى مثل هذا لبحث المحدد متحدية ، فإن هذا (التحدى) يجب أن يتم ببحث آخر في المشكلة، ولا يمكن أن يتم حله عن طريق نظرية البحث العامة . وهذا ما يحدث أيضا في مثل هذه المشكلات على سبيل المثال : هل سبقت الحياة التى ظهرت على الأرض حياة أخرى ، أو ما اذا كنت قد ولدت ، أو هل سيستمر العالم بعد موتى. إن الردود على مثل هذه المشكلات لا يمكن أن تحدد عن طريق نظرية البحث العامة . وحتى إذا أدركنا أن البحث الخاص لا يستطيع أن «يعرف» ما سبقه من أبحاث أو (يدرك) محتواه اللاشكالىUnproblematic context ، فإنه من الممكن أن يكون هذا صحيحًا فيما يتعلق بالأبحاث الأخرى، كما ذهب ديوى فى مقاله الذي رد فيه على الاتهامات الموجهة اليه والسابق الإشارة اليه . وفى تصور البحث البرجماتى لا يوجد (ما يسمى) «الإسناد في البحث المركزي» Inquiry centric predicament .

إذن لماذا اتهم النقاد ديوى أنه يسلّم بكوزمولوجيا «مباشرة خالصة» pure immediacy ، وغالبًا ما يتهموه كذلك بالنزعة المثالية؟ من ناحية، ستبدو لنا الإعتبارات التى توصلنا اليها في الفقرتين السابقتين مهملة ، ولكن من ناحية أخرى، أعتقد أن ذلك يعود الى نقص معين في الصياغات التى عبّر بها ديوى عن موقفه .

ولا اعتقد أن ديوى استفاد بدرجة كافية من مصادر بذاتها ، ذلك أن البرجماتى يجب أن يستفيد من كل موقف يتاح له إتاحة واضحة ، هذا من ناحية

العوامل الاجتماعية في التحقيق (البحث) ، ومن ناحية أخرى هناك عوامل غير مباشرة indirectness فى كثير من التحقيق (البحث)، وليس القضية هنا أن هذه الاعتبارات كانت غائبة عن وعى ديوى تمامًا ، ولكن القضية أنه لم يؤكد عليها تأكيداً كافيًا .

p. 71 وإذا تساوى بعض الأشخاص تساويًا جوهريًا فى الخبرة مع الشخص الباحث - طالما أن الأربعة جميعًا برجماتيين - فسيكون التحقيق (البحث) إذن الذى يجريه أشخاص أخرين على الفرض الجزئي Particular hypothesis مساويًا من الناحية المنهجية مع عمليات التحقيق (البحث) التى يقوم بها باحث بعينه .

وهكذا فإن تقارير الآخرين عن مولدى يمكنها أن تعطينا الدليل في عبارات أقررها إقراراً مبرهنًا عليه أننى ولدت ، حتى على الرغم من أننى لا أستطيع أن أجعل مولدى موضوعًا لخبرتى المباشرة .

إن مثل هذا الدليل حالة خاصة فقط للدليل غير المباشر : والموضوعات الفزيقية يمكنها أيضا أن تقدم الدليل بالتأكيدات المبرهن عليها بنفسي أو عن طريق الآخرين. ويقوم الجزء الأكبر من قبول العبارات العلمية والفهم المشترك على أساس هذا الدليل غير المباشر . وبوجه عام فإن أى آلة أو جهاز (كما في شهادة الآخرين وأحكام آلات التصوير والمجاهر) يمكنه أن يقدم دليلاً غير مباشر على أن الاعتماد على هذه الآلة أو الجهاز يمكن أن يكون - في حالات أخرى - دليلا مباشراً .

واذا كان هذا مسموحًا به، فإن قبول نظرية البحث البرجماتية العامة إذن لا يؤدى فى حد ذاته إلى قبول مثل هذه الكوزمولوجيا كنزعة ظاهرية Phenomenolism أو مثالية. Idealism فلا يوجد (دليل على) عدم اتساق منهجية ديوى وبين كوزمولوجيا النزعة الطبيعية الثقافية Cosmology of cultural naturalism

9 - بعض مظاهر تصور ميد للموضوع

وهناك موقف يتشابه مع الموقف الذي ناقشناه فى المبحث السابق ظهر في
p.72 بعض تفسيرات فكر ميد . وبما أن الكتاب هام ، وبما أنه فى حالة ميد حيث
سيطر مأزق مشكلة معانى «الموضوع» (23) فإنه يبدو من المهم أن نناقش أكثر
العلاقة بين منهج البرجماتية وكوزمولوجيا البرجماتية .

لاحظنا من قبل أن ميد يرى أن «الرمز الدلالي» Significant symbol هو أحد الرموز التى يتم استدعاؤها لناتج من نفس المنظومة يستجيب له مما يستدعى معه وجود رموزاً أخرى في المجموعة اللغوية . وهكذا فإنه عن طريق هذه الرموز يأخذ الرمز دور الآخر» بمعنى أن الرمز يتجه نحو الاستجابة لإشارات رمز آخر كما ستستجيب له الرموز الأخرى . وبالتوسع فى هذه العملية يستطيع الرمز أن يأخذ دور الموضوعات الفيزيقية عن طريق إثارة المقاومة التى يعرضها الموضوع استجابة لضغط (الرمز) الآخر عليه . وبهذه الطريقة يستطيع الرمز أن «يتجاوز» (يعلو) Transcend الخبرة المباشرة بطريقة رمزية للرمز الآخر وذلك بأخذ دور الرموز الأخرى وموضوعاتها. ولهذا فلن يصبح هناك «لا معنى» meaningless لقولنا أن الشخص يستطيع أن يفكر فى قضية الأرض قبل أن يظهر عليها الإنسان أو في الخبرات المختلفة للموضوع أكثر مما يفكر في شخص آخر بحيث يجتاز التفكير في ذاته ، كما لا يستطيع الانسان أن يفكر، اذا كانت عبارات الإثبات السابقة عن الدليل غير المباشر مسموح بها ، ولن يكون هناك أى اعتراض على أن نقول أن مثل هذه الأفكار (كعمليات رمزية) «مبرهن عليها» .

---

(23) المصادر الرئيسية التى عالج فيها ميد مشكلة الموضوعات objects هى : «فلسفة الفعل» The Philosophy of act ، و«فلسفة الحاضر» The Philosophy of the present .

ولكننا نستخدم فى هذه الحجة تعبيرات (مصطلحات) مثل «الموضوع» object و «الموضوع الفيزيقي» Physical object فما هو مدلول هذه العبارات عند ميد؟

يسمى ميد الموضوعات الخاصة بالخبرة مثل : الأشجار ، والكراسى ، والأشخاص «موضوعات حسية»(*) Perceptual objects . ففى أى خبرة تكون مثل هذه الموضوعات «لا اشكالية» unproblematic ، وتستخدم في اختبار ما نسميه الفروض التى تظهر فى عملية البحث. (وهكذا فإن ميد يرى أنه حتى نظرية الإدراك الحسى كنظرية متطورة فى علم النفس تفترض الموضوعات الحسية لإختبار النظرية) .

ويذكر أنه يوجد ثلاثة أنواع من الصفات لمثل هذه الموضوعات الحسية p.73 تتناسب مع مراحل الفعل لمدركيها (24) ، ولها صفات متباينة (من حيث الألوان والاشكال المرئية الخ ...) تتطابق (تتناظر) مع الأنشطة الخاصة بالحواس المختلفة، عندما لا يتصل المدرِك (بكسر الراء) اتصالاً فيزيقيًا مع الأشياء) فالأشياء لها صفات فيزيقية (المقاس ، الحجم ، الوزن الخ ...) تتطابق مع الأنشطة التى تمت معالجتها ببراعة مع المدرك ، ولها صفات متكاملة Consummatory qualities تتطابق مع مرحلة اكتمال الفعل الذي يلاحظه المدرك.

وفى عالم الخبرة العادية يمكن أن يقترب عدد من الأشخاص من منضدة ما، ويكون لكل منهم ادراكاته الحسية المختلفة عنها ، ولكل منهم هدف مختلف

(*) أى موضوعات مدركة ادراكًا حسيًا . (المترجم)

(24) أنظر : كتاب «فلسفة الفعل،» فصل مراحل الفعل ، ص ص 3 - 25

بإزائها، ومع ذلك يتفقون تمامًا بشأن خواصها الفيزيقية ، ولأنهم بإزاء رموز دالة (على الجانب المادى سواء مرئى أم مسموع من العلاقة) فإنهم يستطيعون فهم العلاقات الأخرى ويكوّنوا منها نتائج متشابهة بارعة . وعندما تتم عملية التجريد (الأكثر تغيراً) من حيث المسافة والخواص الكاملة ، فإننا نحصل على «الموضوع الفزيقى» Physical object الذي يدرسه العلم [25].

وكتب ميد في الغالب عن مثل هذه الموضوعات الفيزيقية (وبالطبع عن المسافة والخواص المتكاملة للموضوعات المدركة حسيًا) التى تنشأ داخل الفعل، ولا يضرنا أن نتذكر أن ميد يعمل هنا كعالم اجتماعى يحاول أن يبين كيف طوّرت الكائنات البشرية خبرتها وتصورها عن الموضوعات الفيزيقية . إلا أن بعض نقاده فسّروا عبارته «داخل الفعل» Within the act على أنها تعنى أن الكائن البشرى يوجد أو يقوم باظهار الموضوع الفيزيقى إلى الوجود حرفيًا ، وأن هذا الموضوع ليس له وجود «خارج» Outside مثل هذه الأفعال البيولوجية biological acts [26]، ولهذا أعلن الدارسون أن نتائج تحليل ميد نوع من «الآنية البيولوجية» أو «الأنا وحدية البيولوجية»biological solipsism.

وبالتأكيد فلم يكن هذا فى نية ميد أو في الروح العامة لعمله ، أكثر من مثل هذا التفسير : فالكائن البشرى يدرك بنيته شكل الفعل والموضوعات المدركة إدراكًا حسيًا باعتبارها أساسًا مشتركًا، وإلى حد ما محددة تحديداً مشتركًا . إلا أن ميد لم يذكر أبداً موقفه وهو أن الصفات الفزيقية للموضوع p.74

---

(25) انظر : «فلسفة الحاضر» ، وعلى وجه الخصوص في «الشيء الفيزيقى» Physical thing، ص ص 119 - 39 .

(26) أنظر : مقال آرثر إي مورفي Arthur E. Murphy» إهتمام ميد بفلسفة الفعل« Concerning Mead's the Philosophy of Act .

كموضوع على وشك الإكتمال بواسطة الكائن البشرى توجد عن طريق ذلك الكائن ذاته .

وعلى الرغم من ذلك ، ما هو موقف «الموضوعات العلمية» Scientific objects (مثل الالكترونات Electrons) التى لا هى موضوعات مدركة إدراكًا حسيًا ، ولا هى موضوعات مجردة يمكن ادراكها إدراكًا حسيًا ؟ يرى ميد أن مثل هذه «الموضوعات العلمية» والنظريات التى تدور حولها يمكن أن يكون لها معناها ، فقط من خلال الوظيفة الآلية التى تستخدم في البحث العلمى ، وكتب ميد :

«إن الإتجاه الكلي للعلوم الطبيعية ، كما تبدو - بوجه خاص - »
«فى الطبيعة والكيمياء هو احلال موضوعات الخبرة المباشرة عن طريق»
«الموضوعات المفترضة Hypothetical objects الموجودة فيما »
«وراء الخبرة الممكنة . وكما أشرت ... يجب أن يخضع العلم »
«التجريبي آية نظرية لتجربة الخبرة المباشرة الكامنة في «الآن»
«إنها - فى رأيى - نظرية صحيحة Legitimate doctrine »
« .... فهى يجب أن تكون ممكنة لأنها تأخذ في اعتبارها الموضوعات»
«المفترضة الناتجة عن الخبرة مثل عبارات المناهج والمعادلات لضبط»
«الموضوعات في عالم الخبرة الفعلية ، وبكلمات أخرى ، تلك التى »
«نسميها الموضوعات الكامنة فيما وراء مجال الخبرة الممكنة وهى فى»
«الواقع الاجراءات المعقدة التى تضبط الخبرة الفعلية.» .

(The Philosophy of the act, pp, 291 - 92)

إذن فمثل هذه «الموضوعات العلمية»« هى اجراءات معقدة لضبط الخبرة

الفعلية «لا يمكن إنكارها، إنها فقط وكذلك - كما يبدو في قول ميد - في موضوع آخر [27] ويبدو أن ميد ذاته يخلط في بعض الأحيان بين الأدوات المعرفية (الابستمولوجية) والكوزمولوجية ... وإذا كانت الحجة قوية فى الجزء السابق الذي عالجناه ، فإن البرجماتية ليست في حاجة الى مثل هذا الخلط .

10 – تعقيب على علم المناهج البرجماتى : p.75

إن أكثر ما فى علم المناهج (البرجماتي) من جدة هو محاولته تناول المشكلات التقليدية في نظرية المعرفة داخل سياق نظرية البحث ، وطالما أن البحث يتضمن استخدام الرموز ، فكذلك يجب أن تستفيد دراسة البحث من نظرية العلامات (السيمياء) ، لهذا فإن علم المناهج البرجماتي - يتفق مع التأكيد الأساسى لنظرية العلامات (السيمياء) السلوكية - هو علم ذات توجه سيميائي ، والمعرفة شكل (من أشكال) سلوك العلامة ، ومفتوحة للبحث الموضوعى.

إن نوع البحث الذى تناوله البرجماتيون بالدراسة بصفة أساسية (والمفضل) لديهم هو البحث العلمى، المعروف بمعناه الواسع لكلمة «العلمى» Scientific وهو البحث الذي تتفق مصطلحاته الأساسية مع متطلبات القضية البرجماتية والذى توجد فروضه فى مبدأ الملاحظة المنحقق. وتتفق تحليلات كل من بيرس وديوى

(27) أنظر : مناقشة ارنست ناجيل للوقوف على مزيد من المعلومات بشأن موقف نظرية المعرفة من النظريات العلمية في الفصل السادس من كتابه «بناء العلم» The Structure of Science ، وقد وافق رودولف كارناب ناجيل على تحليله الذى ذهب اليه في كتابه «الأسس الفلسفية للطبيعة» .
Philosophical Foundations of Physics.

لهذا النوع من البحث بشكل عام مع ظهور مشكلة (التناول اللااشكالى)، وفرض (الإبعاد) الذي وضع لحل هذه المشكلة، وتتطور نتائج هذا الفرض (القياس)، وهذه النتائج (ومن ثم الفرض) يتم اختبارها عن طريق ملاحظة الفعل باستخدام مصطلحات (أو عبارات) نابعة من هذه النتائج المستنبطة. فإذا جاء الاختبار ايجابيًا، فإن المشكلة تختفى ويُعمم الفرض المتحقق. ويمكن استخدام النتيجة كفرض عندما تتصل بمشكلات جديدة يجب مجابهتها.

وعلى ذلك فالفروق بين بيرس وديوى داخل هذا الاطار العام كبيرة وهامة، لأنها تتعلق بحقيقة توجه بيرس الذي ينبع من العالم الطبيعي Natural scientist p.76
، بينما توجه ديوى ينبع من العالم الأخلاقى Moralist. وقد اتجه بيرس نحو التأكيد على استمرارية البحث اللانهائية، بينما إتجه ديوى نحو التأكيد على الموقف الإشكالى المحدد الذي يتضمنه البحث. ولهذا عُنّى بيرس أكثر «بصدق» الفرض (بشرط أن يتآزر مع البحث اللانهائي مستقبلاً) بينما ركّز ديوى (على الرغم من اعترافه بتعريف بيرس «المجرد» «للصدق») على «البرهان» Warrant (الخاص بقضايا) الإقرار Assertion من أجل حل مشكلة محددة). واتفق كلاهما على أن الفعل يتم بناءً على الفرض (الفعل الشرطى) الضرورى للتحقيق (التجريبى بالمعنى الواسع عند بيرس)، إلا أن تأكيد ديوى كان على إعادة بناء الموقف الفعلى لكى لا يصبح (الموقف) إشكاليًا. وقد تم إيضاح هذا الفرق في الفعل القائم على الملاحظة الضرورية في دراسة ظاهرة كسوف الشمس eclipse، كما يتكشف في تغير الفعل للموقف عند حل مشكلة أخلاقية معينة. والتناقض بين بيرس كعالِم وديوى كأخلاقى يبدو في مواقف أخرى: فإن ديوى بيّن أن هناك فرق بسيط بين البحث العلمى (بالمعنى الضيق للتعبير/ المصطلح) وبين البحث الأخلاقى، بينما كان بيرس يشك في قدرة العلم على حل المشكلات الأخلاقية.

أما في (مجال) المنطق، فبينما اتفق كل من بيرس وديوى على أن تفسير المنطق يتم في سياق البحث ، فإن تحليل بيرس لقوانين المنطق كقوانين نظرية العلامات (السيمياء) يختلف (في التأكيد على الأقل) عن تحليل ديوى لقوانين المنطق في عبارات Terms تعبر عن وضعها كمبادىء قبلية برجماتية as pragmatic a priori principles في مجرى البحث .

واتفق كل من بيرس وديوى على أن البحث الذي يتوجه في الأصل نحو المشكلات الإنسانية الأساسية هي مشكلات الفعل في المواقف الإشكالية ، والذي يجب أن يولّد مشكلات (جديدة) خلال تطوره .

p.77 وأصبح البحث «مستقلاً» automonous عند هذا الحد، ويجب عليه أن يحل المشكلات الضرورية من أجل تحقيق تقدمه الخاص . واتفق الاثنان على أن الرياضيات «صورية» ، ولها «دلالات لا وجودية» Nonexistential in reference ومع ذلك تتطور داخل الاطار العام للبحث . واعتبر بيرس – على الرغم من ذلك – أن الرياضيات سابقة على المنطق من الناحية الفلسفية ، وركز بدرجة أقل من ديوى على وظيفتها الاجرائية instrumental function البحث اللارياضى nonmathematical.

واستطاع اتجاه البرجماتية نحو علم المناهج أن يجد مكانًا لكل من الاستدلال الصورى Formal reasoning والملاحظة التجريبية empirical observa tion داخل عملية البحث ، وهكذا أمكن تجنب المبالغات للنزعتين التقليديتين «العقلية » و «التجريبية». كما اختلف (البرجماتيون) حول محاولة كنط لحل الصراع وذلك عن طريق احلال تصور اجرائي Operational أو (برجماتى) لما هو قبلى محل نظرية (كنط) التوفيقية في (الأفكار) القبلية .

ويرى البرجماتيون أن الفلاسفة يتطابقون في استخدام نموذج البحث الذي قدّمناه، أما اذا كانت فلسفاتهم تنسجم دائمًا مع هذه الرؤية أو تختلف، فإن هذا بالطبع تساؤل آخر.

ويجب أن ننتقل الى الموضوع التالى عن علم القيم البرجماتى : ماذا قال البرجماتيون عن القيم؟ وهل تتضمن نتيجة بحثهم حلولاً للمكشلات المتعلقة بها ؟

الفصل الرابع
الاكسيولوجيا (علم القيم) البرجماتية

1 – مكانة ديوى الرئيسية في علم القيم البرجماتى p . 81

إن جميع البرجماتيين الأمريكيين فلاسفة ذوى توجه نحو القيم ، ففى بؤرة اهتمامهم نجد عقلانية الإنسان الموجهة man's intelligence-guided ونشاطه الباحث عن الهدف goal-seeking activity ، فالنشاط بالنسبة اليهم لا يعتبر أبداً مجرد عاطفة ، ولا مجرد حركة أثنوا عليها، فقد تصوروا الحياة من خلال عبارات الفعل موجهة نحو أهداف وغايات ، فالحياة الانسانية تتميز في درجتها عن الذكاء المنعكس الذي يستطيع توجيه مثل هذه الأفعال. وبينما يعتبر هذا التوجه نحو اعتبارات القيمة توجهاً عاماً لدى معظم البرجماتيين الكبار، فإن جون ديوى برز كعالِم قيم axiologist في الحركة البرجماتية. ومن ثم فإن هذا الفصل سيدور حول فكره ، مع الإشارة الى البرجماتيين الآخرين الذين لديهم إهتمامات أكسيولوجية (قيمية) .

وكتب ديوى عبارة هامة نقتبسها هنا تقول :

«إن مشكلة استرداد التكامل والتعاون بين معتقدات الانسان عن»
«العالم ومعتقداته عن القيَم والأهداف التي يجب أن يوجه اليها»
«تصرفه إنما هى من أعمق مشكلات الحياة الحديثة» . p . 82

(البحث عن اليقين ص The Quest for certainty-255)

وقد كرس ديوى حياته كمفكر وكإنسان لهذه المشكلة، ولم يكن ليقف موقفه المتشدد هذا سواء أكان مقتنعًا به أم مدفوعًا إليه .

وفي العبارة المقتبسة من كتاباته التى ذكرناها منذ قليل فإن ديوى كان يتمثل «معتقدات الإنسان عن العالم» ، فى عبارات أولية مبكرة تتناول هذه المعتقدات المتأثرة بالعلم. ورأى (ديوى) أنها من الناحية التاريخية توجه الإنسان الحديث نحو القيم (كموضوع) يتنازع عليه بين نمو الأفكار العلمية (من ناحية) (والوسائل الفنية التكنولوجيا) Technology التى ساعدت على تدعيم هذه الافكار (من ناحية أخرى) ورأى (كذلك) أن الرد بوجه عام على عدم التوجه الذي كان يكمن ليس فقط في ابتعاده عن العلم ولكن فى توغله فيه إلى مدى بعيد : «لا يكاد العلم يستخدم لتعديل الأفعال والإتجاهات الأساسية للناس فيما يخص الموضوعات الإجتماعية» ؛ وما زلنا في انتظار هبوب الثورة العلمية العظيمة» [1] .

وكان على ديوى وهو يتناول هذا العمل أن يطوّر نظرية عامة في البحث العلمى، وأن يعرض فى ضوء هذه النظرية مشكلات القيمة المسئولة عن مثل هذا البحث، وقد طبّق توجهه المنهجى والاكسيولوجي العام على مثل هذه المجالات الخاصة مثل الأخلاق ethics ، والفلسفة الاجتماعية، والتربية، وعلم الجمال، والدين، والفلسفة ذاتها .

ويمثل عمل (ديوى) الإجمالى بالتأكيد معظم الإسهامات لفيلسوف معاصر للحياة الحديثة. وذكر ميد أن : «جون ديوى هو فيلسوف أمريكا بأعمق المعانى» [2].

(1) جون ديوى، «البحث عن اليقين» ، ص ص 324 - 329 .

(2) جورج هربرت ميد ، «فلسفات رويس ، وجيمس ، وديوى في إطارها الأمريكى "، وقد اقتبست الجملة من آخر عبارة في المقال .

كما تم تقديم ديوى عام 1920 في الجامعة الأهلية فى بكين National University of Peking باعتباره « كونفوشيوس الثانى» The second Confucius. وكتب هوايتهد أن ديوى «هو القوة الذهنية الرئيسية التى تمد تلك البنية (قارة امريكا الشمالية) بهدف مترابط» (3) . وفى السنوات الأخيرة على
وجه الخصوص كانت هناك انتقادات بقدر ما كان بعضها خبيثًا كان بعضها الآخر p . 83
ممتازاً . إن ديوى كفيلسوف إكسيولوجى axiologist عالِم أخلاق Moralist رجل يمكن الاعتماد عليه بوضوح .

2 - موضوع البحث في علم القيم البرجماتي

يتوقع (القارىء) من البرجماتيين أنه لكى نظل على صلة بتوجههم العام - فيجب أن يقوموا بتطوير نظرية القيمة التى تربط القيم بالفعل ، والتى ترى أن مصطلحات القيمة المتميزة (مثل «الخير» Good وما ينبغى»Ought فى أكثر استخداماتها تميزاً ، كمصطلحات تم تحليلها فى النظرية البرجماتية العامة للمعنى ، والتى تذكر التقويمات evaluations (مثل البحوث التى تتناول الموضوعات أو الافعال التى يمكن تقويمها) هى المسئولة عن نفس النموذج العام للبحث الذي يحدث في العلم .

وقد تناول ديوى جميع هذه الكتابات بالتفصيل ، وسنستخدم دراساته في

---

(3) انظر : «تأثير جون ديوى» John Dewey and His Influence فى : «فلسفة جون ديوى» إصدار بول آرثر شلب (الطبعة الثانية) ، ص 478 .

«نظرية التقويم»Theory of valuation ، والصفحات (التى كتبها) فى كتابه «المنطق» كمصدر رئيسى لعرض وجهات نظره . ولم يضع ديوى نظريته الاكسيولوجية في نسق يضمه عمل ضخم مثل كتابه «المنطق» لبيان منهجه ، ولكن دراسته فى «نظرية التقويم» تعطينا على الأقل النقاط الجوهرية لموقفه الأكسيولوجي. ويوظف (ديوى) فى هذه الدراسة (ص 5) مصطلحات مثل «شيء ما جدير بـ....» Prizing وتعيين القيمة لـ..Appraising . ولبيان الفرق الهام بينهما يقول :

«عند ما يركز الإنتباه عن طريق استخدام الفعل من أجل »«التقويم» « To value ، فإننا نجد أن الكلام الشائع يمنع استخدام (هذا المصطلح» «استخدامًا مزدوجًا ، واذا نظرنا نظرة سريعة في القاموس فسنجد أنه» «فى الكلام العادى نستخدم كلمات «التقويم» Valuing و «القيمة» «المقدرة» Valuation استخدامًا حرفيًا لكى نحدد كل من «شى ما» «جدير بـ Prizing بمعنى أنه شىء ثمين ... وتقـــويم Appraising» «بمعنى وضع قيمة لـ...أو تحديد القيمة لـ ... » .

p . 84 وفى كتاب ديوى «المنطق» يستخدم تعبيرات مثل يستمتع بـenjoy و «يقّوم» evaluate لبيان نفس هذا التمييز .

إذن فإن «شيء ما جدير بـ ... » (أو الاستمتاع بـ...) هو نوع من الفعل أو السلوك المفضل [4] تجاه شيء (فعلى أو مثالى) ، وفى الكلام الشائع غالبًا ما يستدعى ما هو جدير بـ .... » أو شيء ممتع فهو «قيمة» A value ، ووضع

---

(4) استخدمت هذا المصطلح ، ونادراً ما كان ديوى يستخدم مصطلح «التفضيل» أو الأفضلية Preference في أعماله ، ولكن التعبير المفضل لديه (على الأقل فى آخر حياته) ===

قيمة لـ ... ((أو عملية التقويم) - يستدعى - التناقض، وينتج عن البحث أن الشيء الفعلى أو المثالى هو شيء جديد بالتقدير ، أو يجب أن يُقدر. فالعلاقة بين شيء ما جدير بـ .... ووضع او تحديد قيمة لـ .... علاقة تبادلية ، وعندما نجد أن الشيء المراد تقديره أصبح مشكلة ، فإن البحث يوجه إلى حل هذه المشكلة ، و«على سبيل المثال، فإنه لتحديد ما يجب تقديره، وما ينتج عنه من وضع قيمة له ، سيحدد لنا شيء جديد جدير بالتقدير ، أو يُعزز باعتباره كذلك . ومثال هذا البحث الخاص بوضع قيمة الشيء، مثل أى بحث آخر يحدث داخل نطاق اللاإشكالية unproblematic ، وفى هذه الحالة سيكون نطاق الأشياء الجديرة بـ ... لا إشكالية ، ولكى يكون البحث مقنعًا ، فإن علم القيم سيختص بدراسة الأشياء الجديرة بـ ... ووضع قيّم لـ ... والعلاقة بينهما ، موضوع تجريبى ، وستدخل دراسة وضع القيّم (أو التقويمات) فى إطار نظرية البحث العامة . ويمكن اعتبار علم القيم هو العلاقة المميزة لعلم القيم البرجماتى.

ومع ذلك فإن هذا الموضوع سيكون موضوعًا بسيطًا لدرجة أنه سيمثل وجهة نظر ديوى الدقيقة، وهى نظرة تتخذ على أية حال موقف الخصم من هذه المشكلات ، ويجب أن نعود الآن إلى هذه الموضوعات .

= كان السلوك المختار / المرفوض selective-rejective behavior (أنظر المقال فى مجلد ليبلى Lepley الذي أشار فيه إلى هذه الملحوظة). كما أن ديوى نفسه لم يستخدم مصطلح «علم القيم» Axiology بل كان يفضل عليه «نظرية التقويم» Theory of valuation كتعبير عام يستخدم في كلتا الحالتين «شيء ما جدير بـ»Prizing ووضع القيمة لـ .أو تحديد القيمة لـ...appraising أو كتعبير جامع لسائر التقويات Evaluations .

3 - اعتبار آخر لعلم القيم عند ديوى

اذا كانت الظاهرة الإمبريقية (التجريبية) الأساسية للقيمة موضوعة على أساس علاقتها بالسلوك كشيء جدير بـ ... أو كشيء يمكن الإستمتاع به، p . 85 فسيبدو أنه من الطبيعي تعريف «القيمة ، بأوسع معانيها ، بأنها أى شيء يمكن أن يكون جديراً بـ .... أو ممتع لـ ... وقد إتجه جيمس نحو هذا الإتجاه، فكتب فى مقاله «الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية: (5)« إن ما هية الخير هى ببساطة ماهية لإشباع حاجة» . وعرّف رالف بارتون بيري - الذي أخذ «اهتمامه بنظرية القيمة» من مقال جيمس «النظرية العامة للقيمة» (6) General Theory of Value (عرّف) فيه أصل القيمة بأنها « أى موضوع لأى إهتمام»(*) ، ويحث سى. آى . لويس C.I.Lewis عن أساس تجريبي لمعنى عبارة الشيء ذو القيمة المباشرة» (**) فوجده فى «الأشياء ذات القيمة والأشياء التى لا قيمة لها لمحتوى الخبرة المعطاة في الوقت الحاضر» (7) . ولم يكن ديوى ذاته يفضل أن يطبق تعبير «القيمة» على كل شيء جدير بـ ... ولكن فقط على تلك الحالات

---

(5) أنظر : «المجلة الدولية لعلم الأخلاق» The International Journal of Ethics ص ص. 330 - 54

(6) هذا الكتاب أضافه بيرس فى كتابه عوالم القيمة» Realms of value ، والعملان من الإسهامات الكبيرة في علم القيم الحديث .

(*) Any object of any interest.

(**) The immediately valuable.

(7) «تحليل المعرفة والتقويم» An Analysis of knowledge and valuation ص 397 ، ولويس هو أول من طبّق مصطلح «القيمة» على الموضوع أو ساوى بينهما وقال : هناك بعض الاحتمال لإشباع الخبرة» Some Potentiality of it for satisfaction Experience ص 528.

التى يكون فيها الشيء مستحقًا للتقدير بعد تصور النتائج لهذا الاستحقاق . فالقيمة بهذا المعنى الضيق تتطلب على الأقل عملية ذهنية بسيطة، بينما لا يكون من الضروري أن تكون النتيجة كاملة التقويم أو التقدير، وعرّف ديوى «القيمة» فى بحثه «البحث عن اليقين» بأنها المباهج التى تنتج عن الفعل الذكى » ص 259) .

أما بحث الحكمة (وهو المصطلح الدقيق) لهذا التحديد (الصارم) لتعبير «القيمة» فإنه مثار جدل [8] ، غير أن الانتباه تركز فى هذه النقطة فقط بسبب أهمية السؤال الذي يتناول وجهة نظر ديوى والتى لها مكان فى موضوع «لا إشكالية القيمة A value unproblematic تلك الإشكالية التى تحيط بكل تقويم وتحدد الحدود التى تحتوى على حلول البحث المتعلق بالقيم . والاجابة هى «لا » إذا كانت القيمة التى يصبح من وظائفها تحديد البحث وهى نفسها محددة في ذلك البحث ، وهى «نعم» إذا لم تكن هذه هى القضية .. ما هو موقف ديوى من هذه النقطة إذن ؟

لم يكن ديوى يريد أن تكون القيم ضمن البحث ولكنه أراد لها أن تكون
p. 86 «محددة فيه عن طريق عملية البحث ذاتها» (المنطق ص 503) ، وشدّد على أن صلاحية أو برهان عملية التقويم لها علاقة بموقف إشكالى محدد . إن نتائج التقويم السابق لها علاقة بالطبع بحل المشكلة المحددة للقيمة، تمامًا مثل العلاقة التى لحلول الأبحاث العلمية السابقة التى تتصل بحل المشكلة العلمية المحددة،

---

(8) أنظر : بحث «علم القيم كعلم السلوك المفضل» Axiology as the science of Preferential Behavior فى كتاب «القيمة» بحث جماعى ، نشره : راى لوبلاى Ray Le-play ، ص ص 211 - 22 .

ولكنهما فى كلتا الحالتين بالنسبة لديوى هما مجرد وسائل (أدوات) instruments لتكوين الفروض المتعلقة باثبات مشكلة ما معطاه ، ولكنها ليست معايير قياسية في عبارات يمكن أن نصدر عن طريقها حكمًا أو نختبر بها مشكلة . إن الأهداف النهائية ends - in - view بالنسبة لموقف إشكالى معطى قد تكونت فى ذلك الموقف ذاته واختبارها اذا كانت تحل المشكلة المحددة فى نفس الموقف . ولهذا فإنه يبدو من وجهة نظر ديوى أنه يوجد سياق لا إشكالى لكل بحث ، ولكن لا يوجد سياق «غير اشكالى للقيمة» value - unproblematic في البحث الذي يتناول التقويم .

ومن ناحية أخرى ، فإن ديوى كان محدداً عندما ذكر أننا «نُقْبل على التقويم فقط عندما تصبح القيمة اشكالية بالمعنى المادى المستمتع به» (المنطق ص 172) ، وهو محدد فى الحالتين بأنه «ذلك الذى يحدد (التقويم)ولا يكون حُكمًا أبداً فى موقف محدد كان محدداً (من قبل) ». ويسمى أحيانًا هذا العامل غير المحكم injudged factor بأنه عامل لا قيمة له أو غير مقوم unvaluable ، ولكنه يضيف :«إن الكلمة لا تعنى شيئًا ذات قيمة عليا عند مقارنتها بالأشياء لأخرى أكثر مما تعنى شيئًا قيمته صفر .... إنها تعنى ، باختصار ذلك الحكم الذى يصدر ضد الحقيقة (الواقعة) الأولية لشيء ثمين محدد» .

(مقالات في المنطق التجريبي ، ص 384) .

إذن ، يبدو أن مصطلح «القيمة» سواء أكان أم لم يكن ، يطبق على أى موضوع جدير بالتطبيق ، وهناك نطقة (هامة) وهى أن التقويم الذي حددناه بأنه «ما هو جدير بكذا...»، يحدث فى موقف إشكالى يتضمن موضوعات لا p . 87

إشكاليـة جديرة بالبحث ، وإنهـا تمد السـياق (على الأقل بجزء منهـا) الذى تستحقه الفروض ويمكن اختبارها به . وكمـا يبدو ، فإن التـقـويم هو أحكام «معرفيـة» (إدراكية) جوهرية ، تجريبية فى طبيعتها وممكنة الإختبار التجريبى فى المواقف اللاإشكاليـة التى تكون بعض موضوعاتها جديرة بالبحث . وقد اعتبرت هذه النقطة محورية فى علم القيم البرجماتي .

4 - علاقة التقويم بالنظرية العامة للبحث

نرى من المناقشـة السابقة أن التقويم يتبع نفس منهج العمليـة العامة للبحث كمـا يحدث في التـفكيـر العلمى ، ولكى نتبين أن هذا الموقف كان من أهداف فلسـفة ديوى الكبرى ، ولكى نتبين أيضا المدى الذي وصل اليـه ديوى فى هذه النقطة ، فإن المجال الكلى لمشكلات القيـمة الإنسانيـة تظل مفـتوحة لإستخدام نفس المنهج العام للبحث والذي له مثل هذا النجاح المثير فى العلم ، وعلى الرغم من ذلك فـهناك بعض الأسـاليب فى دفـاع ديوى عن هذا الموقف ، يجب أن نوضحها ، كما أن هناك بعض أنواع الغموض التى يجب إزالته .

وقد رأينا في الفصل الذي عالج نظرية العلامات (السيميـاء) البرجماتية أن ديوى أقـر منذ البـداية بالفـرق بين «أحكام الواقع» Judgments of fact و «أحكام الخيـر» Judgments of goodو «أحكام العـادة» Judgments of practice ، ولكنه إتجه نحو إخضـاع النوعين الأوليـان الى النوع الثـالث (من الأحكام) : وتقع أحكام الواقع وأحكام الخير فقط في نطاق احتيـاجنا لأحكام العـادة، كما يستـخدمان كأدوات لأحكام العـادة . ولكن تحليل طبيـعة هذه الأشكال الثلاثة من الحكم والعلاقـة بينها يبدو أنهـا تعبر عن رغبـة ديوى فى كتاباته المبكرة .

p . 88 ولم يوضح كتاب «المنطق» (لديوى) تمامًا الكتابات المتضمنة للفرق بين أحكام الخير وأحكام العادة، ولم يؤكد ديوى [9] عليها كثيراً على ما يبدو، وفى الحقيقة فقد استخدم مصطلح (تعبير) تعيين أو تحديد القيمة لـ ... (أو التقدير estimate) استخداماً متكرراً فى سياق منهج البحث ، ولكنه تم تحديده عن طريق «الأحكام الجزئية» Partial judgments التى تتجه نحو حكم التطبيق النهائي الذي يمثل الحل لمشكلة البحث (المنطق ، ص ص 133 -140) . وسواء اعتبرت هذه «الأحكام الجزئية ، أم لم تعتبر كأحكام تطبيقية أولية فإن الأمر لا يبدو أنه واضح أمامى .

وعلى الرغم من ذلك فإن «أحكام الواقع» (وتسمى الآن قضايا إعلانية أو لفظية declarative or enunciative propositions) واضحة تمامًا، ولكنها تعتبر أيضا «كأدوات أو «وسائل» أو «ذرائع» instrumentalities فنحتاج إليها فى سياق البحث . ولهذا فإنه سيبدو أنه يوجد فقط نوع واحد من البحث وأعنى به ذلك النوع المتمثل في أحكام العادة . وربما يُعتقد أن هذا ما فهمه ديوى من البرجماتية .

وهناك صعوبات أخرى فى كتابات ديوى لا يبدو أنها تسترعى انتباهنا وهى : أن مثل هذا البحث دائمًا ما ينتهى بحكم من أحكام العادة، وقد اعترف أن البحث يتضمن بحوثًا Investigations أخرى لتحديد «الوقائع» Facts (الشروط الوجودية الزمنية من حيث الحاضر والماضى) لكى نتمكن من الشروع في البحث . ولا أرى سببًا لعدم تسمية مثل هذه البحوث بحوثًا بمعنى inquiries

---

(9) لمزيد من الإطلاع على النصوص التى كتبها ديوى لبيان الفرق بين «الخير» Good و «الحق» Right ، أنظر كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation ص ص 47 , 57 . .

(أو بحوثًا فرعية subinquiries) ، ولا لماذا يجب أن تسمى نتائجها بأحكام العادة judgments of practice .

وعلى سبيل المثال ، فإذا كان البحث يدور حول مرض السرطان - كخطر يهدد البشرية جمعاء - وينشأ عن المشكلات التى تواجه الحياة الإنسانية ، فلا شك أنه يبدو اذا كنا سنصف (أو يجب) أن نصف نتائج البحوث الفرعية واذا
p. 89 كانت مواد معينة تعد مواد فعّالة تسبب مرض السرطان cancerigenic باعتبارها أحكام تطبيقية (أحكام عادة) (مثلما يجب على الأحكام أن تفعل) ، فإننا سنعتبر حقيقة هذه المواد جديرة بالتقدير، بينما لا تعتبر غيرها من المواد كذلك كنتيجة لهذه البحوث (الفرعية) ، ولكن الإعلان عن أن المادة المعطاة هى مادة سرطانية فعّالة أم غير فعّالة يبدو أنه لا علاقة له بالتقدير البشرى سواء فى مدلوله (المادى) أو فى صيغته التعزيزية . ولهذا فإن هذا البحث المحدد (أو البحث الفرعى) لا يبدو أنه يتكشف عن نتيجة ما فى الحكم التطبيقي .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، فإنه من الحكمة أن نميز بين المشكلات (بطريقة كنط)و التى نعتقد أنها القضية The case بأنها مشكلات تستحق التقدير، ومشكلات تتعلق بالفعل . وسوف تتكشف البحوث المعنية بهذه المشكلات عن نتائج يمكن صياغتها بأنواع مختلفة من التعبيرات الرمزية، وبهذه الطريقة يمكننا أن نميز بحوثًا بعينها، ومحددة القيمة، ووصفية [10]. وجميع هذه الانواع من البحث يمكن أن يشملها تعبير ديوى بمعناه الواسع فتصبح «علمية» ، ويعنى أنها فقط يمكن أن تمثل النموذج العام للبحث الذي قام ديوى بتحليله وأصبح من

---

(10) أنظر كتابى «المعنى والمغزى» دراسة فى علاقات العلامات والقيم
Signification and significance : A study of the Relations of signs and Values.

الوجهة التاريخية علامة واضحة لعمل العلماء . وأن هذا سيكون متسقًا مع إدراكنا أن الأنواع الفرعية للبحث تختلف فيما بينها في نوع المشكلات التى تتناولها مع/ وفى التعبيرات الرمزية التى تتكشف عنها. إن مثل هذا الإدراك سوف يحمى ديوى من إتهامه «بالنزعة العلمية أو التعالمية» Scienticism التى غالبًا ما يدمغه بها النقاد (واعتقد أنها تلتصق به خطأ) (11) . ويحميه أيضا من الإتهام المضاد بأن نظريته العامة فى البحث تأثرت بتوجهه الأخلاقى الخاص (12)، وبالتالى فهو ليس «علميًا» بدرجة كافية .

5 - مشكلة نظم علم القيم p . 90

إذ ا كان علم القيم يرتكز على ظواهر تجريبية للاشياء الجديرة بالتقويم وعلى

---

(11) إن تركيز ديوى على «العلم» Science كان في بدايته تركيزاً على الإتجاه العلمى Scientific Attitude وكتب ما يلى عن هذا الموضوع ، «يُعرف الإتجاه العلمى هنا بأنه صفة (كيفية) quality تبدو لنا أينما توجهنا في الحياة. إذن ما هو الاتجاه العلمى؟ إنه من الناحية السلبية عبارة عن التحرر من قيود الروتين ، والتعصب ، والفكرة المتسلطة Dogma ، والتقاليد غير المحصة، والتجرد من الإهتمامات الذاتية . أما من الناحية الإيجابية فهو الرغبة فى البحث ، والفحص ، والتمييز ، وفى الوصول الى نتائج تقوم على أساس إقامة الدليل بعد طول معاناة لجمع كل الأدلة الممكنة . إنه النية (القصد) فى الوصول الى معتقدات ثابتة ، وأن نختبر تلك المعتقدات التى تأملناها ولكن على أساس من الحقائق التى تمت ملاحظتها، وأن نتعرف أيضًا على الحقائق التى لا معنى لها ولكنها قد تشير إلى أفكار ما . إنه (الاتجاه العلمى) فى مقابل الاتجاه التجريبى الذى نفهم من خلاله أنه عندما تكون الأفكار ضرورية للتعامل مع الحقائق ، فإنها تكون مجرد فروض تختبر عن طريق نتائجها التى نتجت عنها». (انظر نظرية القيمة ، ص 31) .

(12) إن ديوى على وعى بإحتمالات هذه النقطة ، وذكر أنه لو تمكن من نقد أفكاره لوضع هذه القضية من أجل أن يدحضها . (أنظر : الملحق فى كتاب : فلسفة جون ديوى .إصدار بول آرثر شلب ، ص 579، ff. .

نوع البحث الذي ينتج عنه التقويمات الخاصة (بأحكام الخير، وأحكام ما ينبغى) فإن الأنساق الاكسيولوجية المحددة يجب أن تختلف فى طريقة التعبير عن الأنواع المحددة للأشياء الجديرة بالتقويم أختلافًا نسقيًا ، وتبعًا لذلك تختلف فى تعبيراتها الخاصة بـ «القيمة اللااشكالية» المحددة والمتضمنة في التقويمات المحددة المناظرة . وسوف يشتمل علم القيم البرجماتي النسقى على مثل هذا العمل . ولا يوجد علم قيم برجماتى نسقى آخر يماثله [13].

حقًا لقد قام بيرس بعمل تقسيم فرعى محدد للعلوم المعيارية normative sciences فى الفلسفة، ذكر فيه أن المنطق كان يعتمد على الأخلاق Ethics ، والاخلاق تعتمد على الجمال » Aesthetics ، ولكن جاء هذا التقسيم في الأعمال المتأخرة لبيرس وقد ظل متناثرًا [14]، ولم يكن موجهًا بنفس الطريقة كما فى العمل السابق ، ولم يحاول ديوى أن يربط علم القيم العام (على الأقل كما أنذر بهذا فى كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation) بمعالجته لمثل هذه المجالات المحددة مثل علم الأخلاق وعلم الجمال . ومع ذلك فقد عنى البرجماتيون بدرجة كبيرة بالمجالات المحددة للقيمة ، وسوف نتناول بعض أفكارهم عن علم الأخلاق ، والنظرية السياسية، وعلم الجمال ، والدين [15] .

ويجب أن نثبت هنا أولاً ملاحظة عامة ، وهى أنه من الضرورى فى التوجه

---

(13) يعتبر كتاب «رالف بارتون بيرى» «عوالم القيمة» Realms of value ، السابق ذكره ، إسهامًا عظيمًا فى هذا المجال .

(14) انظر : تشارلز ساندرزبيرس ، «فى المعايير والمثل» On Norms and Ideals بقلم فنسنت بوتر Vincent G. Potter .

(15) انظر : بحثنا القصير في ملحق هذا الكتاب بعنوان : «جون ديوى معلمًا» John Dewey as Educator.

البرجماتى فى جميع الحالات أن نضع الموضوع التجريبى للنسق فى صيغة تساؤل ومن ثم فإنه من المهم أن نميز الكتابات النظرية العامة التى تتضمنها أنساق
التقويمات المحددة التى قد يتناولها فيلسوف برجماتى بعينه . وعلى سبيل المثال، p . 91
فإن الأخلاق النظرية ستُعنى بمثل هذه المشكلات كنوع من أنواع إرتياد مجال المشكلات الأخلاقية وكذلك لتحديد ماذا يُعنى بما يُسمى فعل «صحيح أخلاقيًا» morally right لتمييزه تقويميًا، فعل معين فى موقف محدد كفعل صحيح من الناحية الأخلاقية. وهناك بعض الفروق المشابهة سيكون من الضرورى (الإشارة اليها) فى مجالات إكسيولوجية أخرى . وهناك فيلسوفان برجماتيان يمكن أن يتفقا فى طبيعة علم القيم العام وفى إرتياد بعض الأنساق الإكسيولوجية الخاصة مثل ميد وديوى ، اللذان اختلفا فيما اذا كان على الولايات المتحدة أن تلتحق بعصبة الأمم The League of Nations التى أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، أو مثلما اختلف كل من جيمس وبيرس اللذان اختلفا فى تأكيدهما على أهمية الفرد والمجتمع .

6 - علم الأخلاق البرجماتى

إن علم الأخلاق (*) هو العلم الذي يتناول نظرية السلوك المعقول أو الأخلاقى moral behavior فما هو إذن السلوك الصحيح ؟ لقد اختلف الفلاسفة فى اجاباتهم (على هذا السؤال) : فبعض الفلاسفة يعتبر جميع

(*) تفرق القواميس بين مصطلحى الأخلاق بمعنى Ethics والمعقولية أو التصرف السليم أو الصحيح moral . فتذكر القواميس أن علم الاخلاق Ethics هو (1) فرع من فروع الفلسفة يتناول معيار اتباع الخير والصح ويقوّم الصح والخطأ . (2) معايير التصرف أو تقنيات السلوك ==

المشكلات التى تتعلق بالتعقل والحكمة والحذر مشكلات أخلاقية ، أو أنها تختص بالتهذيب والحكمة ، بينما لا يعتبرها الآخرون كذلك . واعتقد أن جميع الفلاسفة البرجماتيين فكروا فى السلوك الأخلاقى (الصحيح) من خلال مصطلحات اجتماعية ، أى أننا لكى نأخذ فى الإعتبار سلوك فردى لشخص ما من منطلق نقطة أخلاقية ، فإن هذا الاعتبار للسلوك ينبع من نقطة تأثره بأشخاص آخرين فضلاً عن تأثره بسلوكه الشخصى نفسه . إذن فتقويم السلوك انما هو بحث موجه لتحديد السلوك الصحيح (أو السلوك الخطأ) .

وكما ذكرنا فى الصحف السابقة ، فإنه من صفات التوجه الأخلاقى
البرجماتى أن تنظر إلى المشكلات الأخلاقية من خلال عبارات تعبر عن المواقف P. 92
الفريدة المحددة [16]. لهذا ذكر جيمس قوله «إن ماهية الخير هى ما يشبع حاجة ما» فقد نظر الى الفعل الأخلاقى باعتباره تحقيق أكبر قدر ممكن من الخير فى

= سلوك المهنة والشرعية. (see: Macmillan Dictionary, New York , 1973, p. 350) بينما تذكر القواميس أن مصطلح Moral هو :(1) ان يكون المرء صالحًا تبعًا لمعايير الصح والخطأ فنقول «شخص صالح» a moral person. (2) ما يتفق مع معايير السلوك الصحيح، فنقول : «إنه الشيء الصحيح لفعله» The moral thing to do ، (3) بالنسبة إلى ... أو يهتم بمعيار التصرف الصحيح، فنقول : المناخ الصحيح (الصحى) للجامعة The moral climate of a University ، (4) ما يرتقى به الإنسان ، أو يساعده على الترقى ، أو ما هو فى جانب التصرف الصحيح أو الخطأ. على سبيل المثال التصرف الجنسى Sexual conduct ، وهذا المصطلح من المصطلح اللاتينى morālis أي ما يتصل بالاخلاق mōs, والعادات والسلوك . واللفظان Moral-Ethical يعنيان ما يتفق مع التصرف السليم .
(Ibid, p. 660) (المترجم) .

(16) لا يبدو أن هذا ينطبق على بيرس الذى ركز أكثر على «الحكمة المألوفة» (أو المعتادة) Customary morality أكثر من تركيزه على حل المشكلة الأخلاقية عن طريق البحث التأملى.

مواقف تتصارع فيها «الحاجات» Demands ، (ويقول جيمس) :

«لا يوجد غير أمر واحد غير مشروط ، وهو ما نبحث عنه بغير انقطاع»
«بخوف وارتعاش ، لذلك نصوّت ونفعل ، كما نسعى للحصول على »
«أكبر قدر ممكن من الخير للكون .. وكل معضلة حقيقية هي بمعناها»
«الحرفى الدقيق موقف فريد، والتركيب الصحيح للمُثل المدركة »
«والمثل التى فشلنا فى إدراكها هي أن كل قرار يوجد هو دائمًا كون»
«غير مسبوق بشيء ، ولم يكن هناك قاعدة قبله مسبقة مناسبة» ،(17)

وكتب ميد عبارات مشابهة تتعلق بعلاقة القيمة بالفعل الكامل :

«ليست المسألة الأخلاقية مسألة إيجاد قيمة صحيحة تعلو على قيمة»
«خاطئة، انها مسألة إمكانية إيجاد فعل نراعى فيه إلى أبعد مدى »
«ممكن جميع القيم (التى يجب) أن تتضمنه (فلسفة الفعل ، ص 465).
«ليس لدينا حق أكثر من ذلك فيجب علينا الا نهمل القيمة الحقيقة»
«للشيء كما يجب أن لا نهمل واقعة فى مسألة علمية. ففى حل »
«مسألة ما يجب أن نأخذ (فى اعتبارنا) جميع القيم التى لها بها »
«علاقة . (المصدر السابق ، ص 461) (18) » .

---

(17) وليم جيمس ، «الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية» The Moral Philosopher and the Moral Life ، ص ص 349 - 50 .

(18) البحث الرئيسى الذي كتبه ميد في علم الأخلاق هو «المنهج العلمى وعلوم الأخلاق» Scientific Method and the Moral sciences إن نظرية ميد الخاصة «بالقيام بدور ما» Role - taking ، توقظ فى نفس الانسان اتجاهات القيمة لدى الآخرين .

وقد تم اختبار التركيز على «الموقف الوحيد أو الفريد» the unique situation الذى يُحَدّث فن السلوك الاخلاقى والتقويم الاخلاقى على وجه الخصوص فى نظرية ديوى الأخلاقية الدائمة ، وهى دائمة ، وعلى سبيل المثال، فى الفصل الذى كتبه عن الأخلاق Morality فى كتابه «التجديد فى الفلسفة» Reconstruction in Philosophy ، بالإضافة إلى «نظرية التقويم» Theory of valuation . إن تحديد ما هو صحيح في الفعل (أي ما يجب فعله بطريقة أخلاقية) يشبه جميع (أنواع) التقويمات (الأخرى) ، وهو تحديد ما هو p . 93 مطلوب لحل موقف إشكالى محدد، فالفرض الأخلاقى المحدد يتكون فى الموقف (ذاته) ولا يأتيه من خارجه :

«إن الإنتهاء الى وجهات نظر هو تعيين قيمة أو تقويم (الفعل) كخير »
«أو شر على أساس مطابقتها على ما ينفع serviceability فى »
«مقابل السلوك الذي يتعامل مع حالات غرضية توجد لكى يتم »
«الاعتراض عليها بسبب وجود بعض النقص او الصراع بداخلها. »
«إنها محددة القيمة (بمعنى ان نقول) أنها مناسبة أو غير مناسبة»
«صحيحة أم غير صحيحة، صح أم خطأ ، على أساس ما تمثله»
«من حاجة requiredness لإنجاز هذه الغاية »
(نظرية التقويم ، ص 47) .

إنه نفس النقد المتكرر لمثل هذه النزعة الموقفية Situationism فى النظرية الأخلاقية (وأيضا السياسية) والتى لها مكان لها فى المعرفة الاخلاقية التراكمية وفى الحكمة . ولكن الحالة تختلف بالتأكيد بالنسبة لديوى ، (فهو يقول) :

«نحن نشك فى وجود أفكار الغايات والقيم الخاضعة للتعميم (وعلى »

«الرغم من ذلك) فهي قد توجد ليس فقط كأفكار تعبر عن العادة »
«وكأفكار لا تقبل النقد وربما كانت غير صالحة، ولكن وبنفس الطريقة»
«أيضا كأفكار عامة صحيحة تنشأ في أي موضوع ... لأن الأفكار»
«العامة للسلوك في أي علم طبيعي تستخدم كأدوات ذهنية للحكم»
«على حالات خاصة كما تنشأ الأفكار الأخرى ، إنها في الواقع ، »
«أدوات توجه وتيسر تمحيص الأشياء في الواقع العيني (التجريبي) »
«بينما هي أيضا متطورة وتم اختبارها عن طريق نتائج تطبيقاتها »
«في هذه الحالات » (نظرية التقويم ، ص 44) .

وفي المجلد التاريخي الهام عن «الأخلاق » Ethics الذي كتبه ديوى وجيمس هـ . توفتس James H. Tufts [19] ، نجد أنهما ميّزا بين الأخلاق «التأملية» Reflective و «العُرفية» Customary أما اهتمامنا في هذه الصفحات (الصحف) فإنه سيكون منصبًا على العبارات الأخلاقية التأملية، ولكن طالما كانت العبارة المقتبسة الأخيرة واضحة ، فإنه لا يمكن إنكار الغايات الاخلاقية العامة والمبادىء ، ويشملها المبادىء الأخلاقية «العُرفية» ، كما إنه ليس من الضروري إنكار صحتها ولأمكان استخدامها كأدوات (وسيلية) their
p . 94 instrumentality ، وعلى الأقل فإن بعضها يمكن حتى إعتباره » قبليًا من الناحية الاجرائية أو العملية Operationally a priori بمعنى أن هذا العنوان قد استخدم من قبل ، ولكننا سنظل تعتبرها ناشئة . الاهتمام بمسائل (مشكلات) أخلاقية محددة، ولكونها قد قننت (مسبقًا) فإننا نستطيع أن نواجه بها مسائل أخلاقية أخرى محددة .

---

(19) نشر كتاب كل من جون ديوى وجيمس توفتس عن «الأخلاق» Ethics عام 1908, وظل لعدة سنوات أحد الكتب الهامة ذات الأثر البعيد في الفلسفة الأمريكية .

7 – النظرية السياسية : الديموقراطية كتصور أخلاقى

إن تفاعلات الأشخاص فى أي عملية خاصة بالتفاعل الإجتماعى المباشر – أخلاقى أم غير أخلاقى – تتضمن بطريقة مباشرة التأثير على أشخاص آخرين، وهؤلاء الأشخاص الآخرين هم «الجمهور» a Public . ففى أى عملية خاصة بالتفاعل الاجتماعي المباشر يوجد «جمهور» مكوّن من أشخاص غير أولئك الذين اشتركوا فى التفاعل المباشر ، ولكنهم متأثرون بهذا التفاعل ، فكل عضو فى المجتمع هو في الواقع جزء من الجمهور ، وله علاقة بالتفاعلات الإجتماعية المباشرة بالأعضاء الآخرين فى المجتمع . ويطوّر أعضاء المجتمع – كجمهور – القواعد أو المعايير norms أو المقاييس الخاصة بالتفاعل الإجتماعى المطبقة على جميع أعضاء المجتمع لكى يتم التحكم فى المؤثرات العامة للتفاعل الإجتماعى ، والأبعد من ذلك فإن هذه المؤثرات التى ذكرناها تنشىء بالضرورة مجموعة من القوانين ، والأشخاص الذين يطبق عليهم هذه القوانين هم أعضاء فى المجتمع السياسي ، والأشخاص الذين يقومون بتنفيذ هذه القوانين يكوّنون الحكومة. إن النظرية السياسية هى الدراسة العامة للمجتمع السياسى .

وتعتبر الفقرة السابقة نقل بتصرف إلى حد ما لموقف ديوى (الذى نشره) فى كتابه «الجمهور ومشكلاته» The Public and its Problems [20] ، وقد قدمناها باعتبارها الأساس لتفسير ديوى للديموقراطية الأمريكية وعلاقته بها. p .

---

(20) يمكن أن نلاحظ وجود فرق بين «النظرية السياسية» التى وردت فى كتاب «النظرية الأخلاقية» وبين العبارات المحددة عن المجتمعات السياسية، وبينهما وبين التقويم من حيث وصفه للمجتمعات السياسية ، فإن الفكر السياسي والاخلاقي لدى ديوى يحتوى على كلا العنصرين المذكورين معًا آنفا.

ويتضح للقارىء في الحال أن كتاب «الجمهور ومشكلاته» يتناول العلاقة ذات الصلة بالموضوع[21]، (ويلاحظ) أن ديوى لا يكتب كعالم سياسى يحاول أن يصف المؤسسات السياسية في الولايات المتحدة، ولكنه يكتب كأحد الأشخاص الذين يدينون الديموقراطية الأمريكية ، ناقداً بشدة فى أعماله ما وجده حوله ولكنه معنّى بتحسين هذه المؤسسات السياسية ونشرها . ولم يعرّف ديوى الديموقراطية فى عبارات تاريخية، أو سياسية ، أو وفق أنظمة اقتصادية (معينة) ، فالديموقراطية بالنسبة اليه كانت تصور أخلاقى Moral Conception بصفة أساسية .

وكان هذا واضحًا منذ البداية ففى عام 1888 ألقى بحثًا فى جامعة ميتشجان The University of Michigan بعنوان : «أخلاق الديموقراطية» The Ethics of Democracy ، تصور فيه الديموقراطية على أنها الأخذ بالمنهج الأخلاقى عند تناول المشكلات الاجتماعية، والمنهج الاخلاقى - كما فسّره مؤخراً بالتفصيل - كان - كما رأينا - تطبيقًا للبحث (وبصفة أساسية كما يبدو فى العلم) لحل مشكلات القيمة التى تنشأ فى المواقف الاجتماعية . فالديمقراطية - فى تصور ديوى - تُستمد من التوجه الأخلاقى (ليشمل هذا التصور) المشكلات السياسية . إذن ستصبح المشكلات السياسية مشكلات أخلاقية . وبما أن الغاية بالنسبة لديوى لحل أى مشكلة تختص بالقيمة، فإنها تتبلور فى تعبيرات الوسائل المتاحة، والوسائل المتاحة تحدد قيمتها بتعبيرات تشمل مدى مناسبتها للغاية الناشئة (حتى يكون اختيار الوسائل والغاية قد تقررا معًا) والفعل

---

(21) أنظر كتب ديوى «النزعة الفردية Individualism ، و «القديم والجديد» Old and New ، و «النزعة التحررية والفعل الاجتماعى Liberalism and social Action و «الحرية والحضارة» Freedom and Culture ، و«مشكلات الناس » Problems of Men .

الأخلاقى - إذن عند هذا الحد - هو فعل سياسي يجب أن يستخدم وسائل أخلاقية لمحاولة بلوغ الغاية الأخلاقية .

وهناك طريقة أخرى للتعبير عن هذا الموقف وهى أن نقول أنه بالنسبة لديوى (وجيمس وميد) فإن وجهة النظر الأخلاقية تعتبر أن كل شخص يقف فى موقف p . 96
تقييمى إشكالى يعتبر (هذا الموقف) غاية فى ذاته وليس وسيلة ، وتدخل هذه الصياغة ضمن التراث الكنطى ومن ثم المسيحى ، وسيكون قبول الديموقراطية كتصور أخلاقى نتيجة لإتساع هذا الموقف ليشمل مشكلات المجتمع ككل .

وهناك نقطة إضافية يجب أن نركز عليها طالما أنها تبين أكثر الإسهامات المتميزة للبرجماتية الأمريكية (فى هذا المجال) ، فإن بيرس يتوجهه نحو المجتمع العلمى وعمليته الاجتماعية للبحث ينزع نحو التقليل من شأن النزعة الفردية. ولكن جيمس - على العكس - ركز على الأشخاص كأفراد ممجداً الفرد، بعد أن كتب موافقًا على أن «الجماعة أقل شأنًا من الفرد » (*) ، وكتب يقول : «دعونا نشعر بالغبطة ونحن نطلب الديموقراطية ، فإ هذا لن يخنق الفرد ، وهذا هو كل شيء» .

وعلى الرغم من ذلك فإنه بالنسبة لديوى وميد نجد أن الفرد والمجتمع متلازمين تلازمًا كاملاً، وكتب ديوى أن الفرد هو «مركز التجديد بالنسبة للمجتمع » (**)، أما ميد فقد سلّم بأن الفرد المفكر ، الواعى لذاته Self-Conscious والأخلاقى ، يوجد فقط من خلال العملية الاجتماعية، إلا أن

(*) The group is inferior to individual.
(**) The reconstruction center of society.

تمثيل الفرد بدوره يجعل المستويات الأكثر تعقيداً واختلافاً للمجتمع الإنسانى ممكنة . ولذلك فان المجتمع الانساني بالنسبة لديوى وميد ليس نسيجًا فسيفسائيًا a mosaic من أفراد مستقلين ، وليس كلٌ عضوى بحيث يعتبر الفرد دخيلا عليه . وهكذا فإن تصورهما للديمقراطية يعد خليطًا شاذاً من استحسان للعبارة المشهورة ، «دعه يعمل» Laissez faire والأنظمة السياسية التى تحتكر السلطة (الاستبدادية) totalitarian ، ويبدو لى أن هذا الإدراك للمنفعة الكاملة لكل من الفرد والمجتمع هو أحد الانجازات الهامة للحركة البرجماتية .

8 - علم الجمال والمظهر الجمالي للخبرة p - 97

ليس هناك دليل على أن التفسير العام للبرجماتية كفلسفة عملية Practically وانتهازية opportunism وتجنح للنزعة التعالمية scientism أفضل من المكانة العالية التى نالتها الخبرة الجمالية aesthetic experience (وبالتالى ما وصل اليه الفن والفنانين من مكانة عالية) منحها إياهم البرجماتيون الأمريكيون . حقًا ، هناك المظهر الجمالى للخبرة التى يجب أن يستند إليه المعنى فى سبيل بلوغ أعلى منزلة لهذه الحركة الفلسفية .

وعلى الرغم من أن المؤلفات (الصادرة) فى علم الجمال ليست مركزة، فإنه لا يوجد عرض مناسب ممكن فى صحف قليلة [22] . وسوف نركز الانتباه على

---

(22) هناك بحث لميد بالإضافة الى ما ذكره ديوى فى كتابه «الفن كخبرة» وبعض الفصول في كتابه «الخبرة والطبيعة» Experience and Nature بعنوان «طبيعة الخبرة الجمالية»The Nature of Aesthetic Experience (وقد تم إعادة طبعه مع بعض الحذف فى ==

وجهات نظر ديوى منذ أن بدأ عمله (وعلى وجه الخصوص «الفن كخبرة Art as Experience) وهو ذو أهمية رئيسية فى هذا الموضوع .

كتب ديوى فى كتابه «التجديد فى الفلسفة» :

«حقًا، لا يوجد تساؤل دال أمام العالم أكثر من التساؤل عن إمكانية»
«ومنهج التوفيق بين إتجاهات العلم العملى والادراك العالى للجمال» .(23)

وقد صدر كتاب «الفن كخبرة» عام 1934 (وبعد 14 سنة) أجاب ديوى على هذا التساؤل ، فقد وجه ديوى فى هذا العمل الإنتباه لما تتضمنه الممارسة اليومية للحديث عن «الخبرة» :

« (نقول) أننا حصلنا على الخبرة عندما تجرى المادة المختبرة فى مجراها »
«إلى غايتها، عندئذ وعندئذ فقط تتكامل داخل مجرى الخبرة العام»
«المحدد عن الخبرات الأخرى. وقد إنتهى جزء من العمل بطريقة مُرضية،» p. 98
«فالمشكلة تجد لها حلاً ، لقد انتهت المباراة ، إن الموقف - سواء أكان»
«تناول طعام ، أو ممارسة لعبة الشطرنج ، أو إجراء محادثة، أو كتابة»
«كتاب ، أو الاشتراك فى حملة سياسية -، إنها (جميعًا) تقترب من»
«الكمال وليس من التوقف ، إن مثل هذه الخبرة كاملة وتتسم بفرديتها »
«الخاصة المتفردة واكتفائها الذاتى . أنها الخبرة »

= كتابه «فلسفة الفعل» فى الصحف 454 - 457. والفصول 14-15 فى كتاب لويس «تحليل المعرفة والتقويم» ، وكتاب «الفن والحرية» (فى مجلدين) لهوراس م . كالين Horace M. Kallen وكتاب «مقدمة فى علم الجمال» An Introduction to Beauty بقلم «فان ميتر آمز» Van Meter Ames.

(23) جون ديوى ، «التجديد فى الفلسفة» ، ص 127 .

(الفن كخبرة ، ص 35) .

(و يضيف قائلاً) :

«وفى الخبرة الجمالية المتميزة صفات تخضع لخبرات أخرى مسيطرة ، »

«تلك الخبرات النابعة أعني بها (خبرات) ضابطة، فالصفات التى»

«توجد فى الفضيلة والتى تتكامل فى الخبرة هى خبرة متكاملة »

«بمعناها الخاص » .

المصدر السابق ص 55

(ثم يضيف أيضا قوله) :

«إن الموضوع الخاص المتميز والمسيطر هو موضوع جمالى ، ينتج عنه صفة»

«الاستمتاع التى ترتبط بالادراك الحسى الجمالى ، وعندما تعلو العناصر»

«التى تحدد أى شيء وهى ما يمكن أن نسميها الخبرة الجمالية التى تسمو»

«على الإدراك الحسى المجرد وتعلن عن نفسها» . (المصدر السابق ص57)

وعندما تتميز الخبرة الجمالية بهذه الطريقة فإنه يصبح من الواضح أن الجمال ليس نوعًا واحداً خاصا من الخبرة يختلف اختلافًا بيّنا عن الأنواع الأخرى منها، ولكنها مسألة درجة تأخذ فيها الخبرة صفة الإكتمال . ومن ثم يصبح لدينا خبرة جمالية، ومثل هذه الخبرة هى موضوع علم الجمال ، ويعتبر الفن جزءاً من هذا الموضوع فقط ، حيث أن الفن كنتاج إنسانى يمكن النظر اليه باعتباره من انتاج موضوعات تكونت على وجه الخصوص لكى تسمح بوجود الخبرة الجمالية وتؤكد عليها .

وطالما أن الانتاج والادراك الحسى في الفن أنشطة إنسانية (وهى بالنسبة لديوى أنشطة إنسانية متشابهة تمامًا) ، وطالما أن الحصول على خبرة جمالية -

p . 99 حتى عندما يثيرها العمل الفنى – تتضمن نشاطًا متكاملاً، فإنها جميعًا تتسق مع التوجه الفعلى للبرجماتية في علم الجمال عند د يوى . ولا ينتفى القول بالوسيلية instrumental فى فكر ديوى فى هذا التحليل ، أما بالنسبة للأعمال التى ينتجها الفنانون فإنها تعد كوسائل فى عملية التغيير ، وإضافة لبيئة الإنسان لكى يمد سيطرته على جميع نواحى التكامل فى خبرته .

إذن أين يوجد العنصر «التأملى» Contemplative فى «التقدير الجمالى» aesthetic appreciation ؟ هناك مصدران على الأقل عند ديوى لهما علاقة بهذه النقطة. أحدهما يتمثل فى إدراكه أن الخبرة وجهان : فهى موضوع معاناة undergoing ، فضلا عن أنها عمل ، فإن ما يعانيه الإنسان نتيجة لعمله يمكن أن يكون هو ذاته رد فعل وبالتالى يصبح موضوعًا (أو عنصراً جوهريًا) للخبرة الجمالية . فتوجه ديوى نفسه توجهًا قويًا لدرجة أنه يعد توجه عالم الأخلاق الذي لا يؤكد تأكيداً مناسبًا دائمًا فى كتاباته على «المعاناة» الناشئة عن الخبرة ، ولكن هذا الإهمال يصح فى علم الجمال لديه وليس في علم الأخلاق .

(والموضوع) الأكثر أهمية أن ديوى يتيح فى علم الجمال التأكيد البرجماتى العام على علم العلامات (السيمياء) ، بينما يجد أنه من غير الضروري أن يفعل ذلك دائمًا ، فإنه يمكن أن يعبر عن «الخبرة» وبهذا يكسب نوعًا من الاتجاه التأملى إلى جانبه . إلا أن الدلالة الأكبر هى أنه فى الحقيقة حتى إذا لم تكن جميع الأعمال الفنية علامات (سيمائية) (وهذه نقطة مثار خلاف) ، فإن كثيراً منها يعد علامات أو أنها تتضمن علامات ما .

وفى كتاب «الفن كخبرة» نجد أقوالاً كثيرة لديوى فيما يتعلق «بالمعنى» الخاص بالفن، وعلى وجه الخصوص فى الفصل الخاص » بالموضوع المعّبر» . .

وقد ميّز بين التعبير والبيان The expressive object : «إن العلم يقرر المعانى ، والفن يعبر عنها » . (*) (ص 84) ، والنص التالى يوضح هذا التمييز:

p . 100 «يختلف الشعر عن النثر، وفن الجمال يختلف عن العلم، ويختلف »
«التعبير عن التقرير، ويوجد فى هذا الاختلاف شيء ما مختلفًا فيما »
«يؤدى إليه من خبرة ، إن المسافر الذي يتبع»
«العبارة أو الإتجاه الذي تشير اليه اللوحة يجد نفسه فى المدينة»
«التى تشير اليه. وبالتالى فإنه يحصل من خبرته الخاصة على»
«شيء من المعنى الذي يخص هذه المدينة. فبامكانه أن يحصل عليها »
«إلى الحد الذى تعبر به المدينة عن نفسها بالنسبة إليه ، كما عبّرت»
«مدينة تينترن أباى Tintern Abbey عن نفسها فى قصيدة»
«ورد ورث Wordworth .... فإن قصيدة وردورث تختلف فيما »
«تمنحه تينترن أباى (من معنى) بالنسبة لجامع الآثار والتحف . »
«فالقصيدة .. لا تحدث أثراً ملائما بالحجم الصحيح الذى فى العبارة»
«الوصفية ولكن بما يوجد فى الخبرة نفسها. فالشعر والنثر، والتصوير »
«والرسم تعطى أثراً ملائمًا من خلال وسائل مختلفة لكى تصل»
«إلى غايات مختلفة. فالنثر يتناول قضايا ، ومنطق الشعر قضايا »
«عليا، حتى عندما يستخدم ما يسمى نحويًا بالقضايا . فالثانية»
«لها قصد ، فالفن هو تحقيق مباشر للقصد»
(الفن كخبرة ، ص 85).

(*) "Science states meanings; art express them".

وعلى الرغم من أن ديوى لا يستخدم المصطلحات الواردة فى علم العلامات الذى ورد في كتابات بيرس ، فإنه يمكننا أن نرى من هذا النص (ومن إشاراته المتكررة إلى الرسومات Paintings فى الفن كخبرة ، أن عمل الفن غالبًا ، وربما دائمًا ، ما يعتبر علامة صورية an iconic sign (فالصورة) هى النظرية التى تقوم بدور رئيسى فى أعمال بيرس المختلفة إلا أن لها اشارات معبّرة عن علم الجمال [24] . (وتتمثل) خصوصية العلامة الصورية فى أن ما تشير اليه متضمن فى العلامة الأداتية ذاتها ، ولهذا فإذا كانت تشير إلى خبرة متكاملة فإن جزء من تلك الخبرة المتكاملة يكون متضمنا فى العلامة الأداتية ذاتها[25] . وهذه ليست القصة الكاملة لكيفية تفسير تصور ديوى عن «المعنى المعّبر » expressive meaning ، ولكن هذا يوضح أن مصادر نظرية العلامات (السيمياء) متاحة لإيضاح تصور ديوى المشار اليه .

9 - الدين والقيم الإنسانية p. 101

كتب جيمس : «إن الدين مهما كان ، هو مجموع ردود أفعال الانسان بإزاء

---

(24) أنظر : ماكس هوكت , Max O. Hocott ، «الاسس المنطقية لعلم الجمال عند بيرس » The Logical Foundations of Peirce's Aesthetics.

(25) قام مؤلف هذا الكتاب بتطوير هذا الموقف فى عدد من الدراسات . أنظر : الفصل الخامس (الفن والعلامات والقيم Art, Signs, and Value) فى كتاب : المعنى والمغزى Signification and significance ، للاطلاع على مناقشة الموقف العام والاشارات للمقالات الأخرى . وهناك تحليل مصطلح «معبّر» Expressive فى كتاب «الإشارات» ، واللغة والسلوك Signs, Language, and Behavior ، ص ص 67 - 71 .

الحياة» [26]. ولم يعتقد جيمس نفسه أن هذا يعتبر معياراً كافياً عن الدين، كما لم يعتقد بيرس نفسه ذلك ، فبالنسبة اليهما فإن الاعتقادات الاضافية موجودة (في شيء آخر) (مثل الاعتقاد في قوى إلهية مقدسة يتعاون معها الشخص في درب الحياة) . ولكن بالنسبة لجيمس فإن هذه الاعتقادات الدينية على وجه الخصوص تختلف اختلافًا بيّنًا بين الأفراد والحضارات ولذلك تأتي بمعنى ثانوي بالنسبة لوظيفة الدين الشائعة للإنسان الجديد فهي مجرد «مجموع ردود أفعال الانسان بإزاء الحياة» .

وعلى الرغم من أنه لم يكتب أحد من البرجماتيين ، أو لديه كتابات من هذا النوع ، مثل اللاهوتيين التقليديين، فإنهم تعاطفوا بلا استثناء مع الدور العام الذي يؤديه الدين في الحياة الإنسانية . وكان لكل من بيرس وجيمس اعتقادات قريبة مما تحتوية المسيحية اللاهوتية التقليدية، بينما نظر كل من ميد وديوى إلى الدين نظرة طبيعية. وطالما أنه من المستحيل التعامل مع موقف كل هؤلاء الرجال عن الدين في هذا الفصل ، لذلك فإننا سوف نركز هنا بطريقة عشوائية على نحو ما على فكر ميد [27].

---

(26) وليم جيمس ، . «تنوع التجربة الدينية» The Varieties of Religious experi-ence ، ص 35 .

(27) بالإضافة إلى المراجع التي تم ذكرهاليد في هذه الفقرة فهناك مراجع أخرى هامة تمثل وجهات نظر البرجماتيين في الدين منها : بيرس «مجموعة الأبحاث» Collected Papers ، المجلد التاسع، الفقرات 395 - 556 ، وليم جيمس «تنوع الخبرة الدينية» The Varieties of Religious Experience ، ديوى «الايمان الشـائع أو الفطرى» A common Faith إدوارد سكريبنر آمـز Edward Scribner Ames «علم النفس الخبرة الدينية The Psychology of Religious Experience «والصلوات والتأملات والدين» Prayers and Meditations, and Religion وهو راس كالين «العلمانية هي إرادة الإله» Secularism is the will of God . وهناك كتابان لي (مؤلف هذا الكتاب) لهما علاقة بالدين والقيم هما «دروب الحياة : مقدمة الى عالم الدين» Paths of Life: Preface to a world Religion و «تنوع القيمة الانسانية». salvation Varieties of Human value

وقد اعتقد ميد أن بعض فروض المسيحية «على درجة كبيرة من الأهمية في العالم الغربى» (فلسفة الفعل ص 466) ، وكان أحد هذه الفروض يتناول معقولية العالم The intellig ibility of the world ، وقد منح هذا الفرض الرجل الغربي ثقة فى أنساقه الذهنية (سواء) الفلسفية أو العلمية . (بينما) ساعدت نظريات أخرى مثل تلك النظريات (الخاصة) بأبوة الإله The fatherhood of God وإخّوة الإنسان Brotherhood of man الرجل الغربي على الثقة فى أنساقه العلمية ، وقامت بدور هام فى الحركة الخاصة بالديموقراطية السياسية .

p . 102 وميّز ميد بين وجهين من أوجه الخبرة الدينية : الوجه الصوفى Mystical و «الحاجة إلى الخلاص» The need for salvation . وحاول أن يميز بينهما بإستخدام تعبيرات علم النفس الإجتماعى .

أما الوجه الصوفى للخبرة الدينية «فإنه ذلك الإتجاه لشعور الشخص نحو كل الناس وكل شيء عن أنفسنا» . (العقل والنفس والمجتمع ، ص 275) – واعتبره تعميمًا كاملاً عن الدور المنوط به role - taking نحو الأشخاص والأشياء :

«إن اهتمام الشخص هو اهتمام بكل الناس ، وهناك توجه كامل نحو»
«الأفراد ، ويوجد التحام بين ضمير المتكلم me وضمير الفاعل I داخل»
«الفرد ، (المصدر السابق ص 274) الموقف " الاجتماعى يسود فوق "
«جميع العالم» (المصدر السابق ص 275) .

واعتبر ميد أن «الحاجة الى الخلاص» أهم وجه من وجهى الخبرة الدينية (المذكورين آنفًا) وتناوله بشيء من الاسهاب (فلسفة الفعل ص ص 475 - 78) .واعتبر الحاجة الى الخلاص «ليست خلاص الفرد ولكن خلاص الذات كموجود اجتماعى» (ص 476) لأن النفوس الاجتماعية – طبقًا لرأى ميد – (تتمثل

في) «أننا دائمًا ما نحمل نظامًا اجتماعيًا مثاليًا لا يوجد في الحالات التي نعيش فيها» . (ص 475) . وكلما كان التناقض كبيراً ، كلما كانت الحاجة للتغير الاجتماعي ، والأكثر انتشاراً الحاجة للخلاص» (ص 477). «وتعود خبراتنا الدينية الى إمكانية تطوير المجتمع لكي نحقق تلك القيم التي تمتلكها الكائنات الإجتماعية» (ص 476)، ويسأل (ميد) بطريقة خطابية هذا السؤال : «أليس أكبر عبقريًا في مجال الدين شخص يحمل بمعنى ما معين في نفسه نظامًا إجتماعيًا أعلى (حيث اعتبر) نظامه المباشر أكثر علواً (من غيره) ؟ (ص 477).

p . 103 ويجب أن نلاحظ أن ميد لا يستعمل التفسير النفسي الاجتماعي Social-Psychological بديلا عن الخبرة الدينية بطريقة الميتافيزيقا الدينية التي استخدمها به كل من بيرس وجيمس ، فهو يقول :

«لا توجد طريقة في الوقت الحالي نستطيع بها مع وجود أي ضمان

«أن نصل تاريخ الإنسان والقيم التي ظهرت في المجتمع بتاريخ»

الكون الفزيقي» .

(فلسفة الفعل ، ص 478) .

«كما لم ينظر ميد إلى اللاهوت Theology على أساس التقويمات»

«التي نحتاجها لمجابهة المشكلات الاجتماعية والفردية . وقد تناول»

«هذه الكتابات في بحثه النزعة التجريبية كفلسفة للتاريخ »

« Experimentalism as a Philosophy of History »

(فلسفة الفعل ، ص ص 494 - 519).

ويقال أن ميد في هذا المقال بيّن الفرق بين «الفلسفة الأوغسطينية عن

التاريخ The Angustinian Philosophy of History التى (ترى أن) جميع القيم محددة وثابتة عن طريق السلطة» وبين «فلسفة التاريخ الجديدة» The New Philosophy of History (الناتجة) عن التطور الاجتماعي. (ص 504) فى هذه الفلسفة الجديدة للتاريخ التى يفضلها ميد بوضوح ، يواجه الانسان مشكلاته الاجتماعية كما تبدو له (دون تغيير يذكر). ويعترف ميد أن بعض الملاحظات عن القيم «تحدث .....بعيداً جداً عن بداية الخبرة الفكرية» (ص 504) ولكنه يعتقد - متفقًا مع النظرية الأخلاقية البرجماتية التى ناقشناها بالفعل - أن منهج العلم يجب أن يستخدم الآن لمواجهة مشكلاتنا الاجتماعية (ص 509) و (رأى) ميد هنا واضح للغاية فهو يؤكد على تطبيق المنهج العلمى ولا يطلب من العلماء أو «العلم» (أن يحددوا له) «ماذا يفعل» فلا الميتافيزيقا ، ولا اللاهوت ، ولا العلم يستطيعوا أن يحلوا محل نشاط التقويم الاخلاقى .

فإذا كانت فلسفة التاريخ للشخص من النوع التطورى ، فإنه يجد معنى
p . 104 الحياة فى تنظيم جميع القيم التى تتضمنها مشكلات التصرف (السلوك) Conduct والتفسير، والبحث عن إعادة بنائها بناءً يتفق مع السلوك الذي أدرك جميع الاهتمامات الموجودة بداخله» (فلسفة الفعل ،ص 512).

وخلاصة القول ، فإنه يمكن أن يقال أنه اذا كان جميع البرجماتيين قد تعاطفوا مع ملامح بذاتها فى الدين ، واذا كان كل من بيرس وجيمس - عكس ميد وديوى - أنفسهم يتمسكان بشكل اللاهوت المسيحى ، فإن التأكيد المميز للبرجماتية كان على الدين كعنصر يعمل على التوجيه الكلى للإنسان وليس

على الدين باعتباره نسقًا من المعتقدات اللاهوتية .

10 - تعقيب على علم القيم البرجماتي

إن إسهام البرجماتيين الامريكيين فى نظرية القيمة هو أحد انجازاتهم الفلسفية الكبرى . فمكانة ديوى الرائدة فى مجال القيم واضحة للعيان . كما أن عمل جيمس أيضا موجه نحو القيمة وله أهمية خاصة فى موضوع الدين ، ولكنه لم يتناول بطريقة فنية أكبر الكتابات الأكسيولوجية، ولا الموضوعات الاكسيولوجية على تنوعها، بنفس الطريقة التى تناولها به ديوى . وعلى الرغم من أن كل فلسفة بيرس يتخللها نظريات خاصة بالقيمة ، إلا أن تناوله المحدد لموضوعات اكسيولوجية جاء فى أخريات حياته ، وعُنى أكثر بمكانة العلوم المعيارية فى بنائه الفلسفى أكثر من تحليله المفصل لتعبيرات (مصطلحات) القيمة والتقويم . أما تصور ميد عن المرحلة المتكاملة للفعل وتحليله لدوره، فهو على درجة وثيقة بالمشكلات الاكسيولوجية ، غير أنه لم يجعل عرض هذه الصلة
محور اهتمامه. ويظل ديوى فيلسوف القيمة (الاكسيولوجي) المؤيد البارز p . 105
للحركة (البرجماتية) ومن ثم كان اهتمامنا منصبًا أولاً على هذا الفكر .

وما فعله البرجماتيون بوجه عام عند تناولهم لنظرية القيمة هو وضعهم لمكانة القيم داخل سياق حياة الكائن الانسانى الحى فى علاقته بعالمها، ومكانة التقويم داخل النظرية العامة للبحث . وهكذا أصبحت الاكسيولوجية (علم القيم) علمًا تجريبيًا، ومن ثم أصبح توجه علم القيم نحو النزعة التجريبية والسلوكية .

والقيم كظاهرة تتم بالملاحظة عزلت كل ما يتعلق بالسلوك ، وعلى الرغم من ذلك فقد تم ذلك بالتفصيل : لأن هذا الذى تم اختباره أو سيتم اختباره يدعو «للأعجاب» (بيرس) ، ولأنه يمثل صفات الموضوع الذي يسمح بتمام الفعل (ميد) ، ولأنه يشبع «الاحتياجات» (جيمس) ، ولأنه يتصل بموضوعات الأشياء

الجديرة بالتقدير، أو بمعنى أدق ، بتلك الأشياء الجديرة بالتقدير والتى تحدث بعد مشاركتها لتلك النتائج الجديرة بالتقدير (ديوى) .

والشائع عن هذه النظريات هو تصور أن الفعل غرضى purposive أو موجه نحو غاية ما Telic، أو موجه نحو هدف ما Goal - Oriented ، وهى تعبيرات تحتاج تطبيقاتها إلى أن تكون لديها القدرة على تعزيزها عن طريقة الملاحظة . ولا يتضمن هذا أن جميع الأفعال ذات «هدف» أو أنها تهدف الى غاية end-in-view. وما يتعلق (مثلاً) بكلب «ذاهب الى البيت»، فإن دوافعه هى أن هناك موقفًا بعينه فقط سيسمح له بأن تكتمل غايته ، وأن حركاته ستؤدى به الى الوصول الى هذا الموقف ، وهذا لا يتطلب أن يكون هدف الوصول إلى البيت بالنسبة للكلب هو نهاية المطاف ، وعلى سبيل المثال ، إن ما يحدد الهدف - وهذا التحديد بالذات - يتم تحديده على الأقل بطريقة جزئية عن طريق حركاته الفعلية . وكثيراً من أفعال السلوك البشرى (على الرغم من أنه قد يكون كله) يهدف الى غاية بطريقة رمزية .

ويمكن النظر الى التقويم (وعلى وجه الخصوص عند (ديوى) كبحث يحدد ما
p. 106 هو جدير بالتقويم فى موقف إشكالى يختص بالقيمة Value-problematic situation ، وذلك فى موقف أصبح فيه التقدير إشكاليا. ومثل هذا البحث يتشكل من خلال النزوع نحو نهاية المطاف ، واختباره بعبارات تتناول قدرته على حل المشكلة التى يقصد حلها . ويمكن أن يكون بحث التقويم (وبالنسبة لديوى يجب أن يكون) نفس النموذج العام للبحث الموجود في العلم ، ويكمن الفرق فى نوع المشكلة (وعلى سبيل المثال فالقيمة أو مشكلة الجدارة) هى ما تحدد ضرورتها . وبالمثل ، يمكن أن يكون هناك أنواع خاصة من مشكلات القيمة ، وستعكس الفروق بينها الفروق الخاصة بالتقويم فى البحوث الأولية سواء أكانت

فى طبيعتها أخلاقية أو سياسية أو جمالية .

وسيحدث نفس الشيء فى كل تلك البحوث وفى أى حالة خاصة (محددة) فى سياق لا إشكالى ، وهو لا إشكالى بالنسبة لذلك الموقف . وستقيم نتائج البحوث الناجحة المختلفة صرحًا معرفيًا (تأكيدات مبرهن عليها بالنسبة لديوى) كما ستستخدم مثل كل النظريات التعميمات كأدوات (وليس كإعتقادات dogmas) عند تناول مشكلات جديدة خاصة بالقيمة .

ويوجد هناك إتفاق معقول في القيم "الاشكالية العامة لدى البرجماتيين المختلفين أنفسهم وهى هامة بالنسبة للمنهج العلمى ، والديموقراطية ، والأخلاق. ولم يمنع هذا بالطبع من وجود فروق معينة بينهم. وهذا المفهوم سيتضح اذا ميّزنا فيه بين النظرية فى طبيعة القيم العامة للشخص والتقويمات وبين القيمة الشخصية والتقويمات الفردية للشخص .

ويبدو لى أن الصعوبات الفنية الرئيسية فى علم القيم البرجماتى تكمن فى الواقع فى أن البرجماتيين لم يطوروا ، كما لم يطبقوا نظرية عامة فى العلامات (السيمياء) على تحليل الجمل والعبارات الاكسيولوجية وغير الاكسيولوجية، ولهذا فليس من السهل أن نتأكد من العلاقة بين «أحكام الواقع» Judgments of facts و «أحكام الخير» Judgm-ents of Good وأحكام العادة Judgments of Practice p . 107 ببعضها البعض أو بعلاقتها بالقضية البرجماتية.

وفى بعض الأحيان ميّزوا بين الحكمين الأخيرين ، وفى أحيان أخرى لم يميّزوا بينهما كما أن العلاقة لأحدهما أو لكليهما «بحكم الواقع» لم تكن واضحة دائمًا ، وكنتيجة لهذا فإن علاقة البحث الاكسيولوجى وغير الاكسيولوجي أصبحت علاقة غامضة. وقد لاحظنا منذ البداية أن علم العلامات (السيمياء)

البرجماتى - وهو هامًا كما يبدو - ظل علمًا غير مكتمل في تطوره ، ويتضح مرة أخرى علم الاكتمال هذا في النصوص البرجماتية التى تناولت علم القيم .

أما التقويمات فإنها تحتوى على «محتوى معرفى»Cognitive content عبقرى أو على «معنى ذهنى» intellectual purport (وليس فقط تعبيرات عن الانفعالات او محاولات للتأثير على الآخرين) فإن هذه التقويمات تدل على وجود ملامح هامة فى علم القيم البرجماتى . وهذه النظرية تناولها جميع البرجماتيين على المشاع . فهى نظرية محورية فى نسقهم ككل .

الفصل الخامس

الكوزمولوجيا (علم الكون) البرجماتية

p.110 أ - - «الكوزمولوجيا أو «الميتافيزيقا :

كان من الممكن أن نعنون هذا الفصل بعنوان « الميتافيزيقا البرجماتية » واذا فعلنا ذلك نكون قد أخذنا حقاً بمصطلح بيرس(1) وقد تساءل بيرس ماذا يتبقى من الفلسفة إذا قُبلت القضية البرجماتية، تلك القضية التي تحدد الفروض المسموح بها من تلك التي تقبل التحقيق ، وكانت اجابته كالتالي : -

« ..... إن ما يتبقى من الفلسفة هو سلسلة من المشكلات القابلة للبحث»
«باستخدام مناهج الملاحظة الخاصة بالعلوم الحقيقية.... وبهذا تعتبر»
«البرجماتية نوع من الوضعية الأصيلة Prope-Positivism, و لكن ما يميزها عن»
«الأنواع الأخرى هو أولا: احتفاظها بالفلسفة الخالصة ، ثانيا : قبولها التام»
«للأساس الرئيسى لمعتقداتنا الجوهرية ، وثالثاً : إصرارها الهائل على صدق»
«الواقعية المدرسية Scholastic realism .. وبهذا ، فبدلاً من مجرد السخرية»
«من الميتافيزيقا مثلما فعل أصحاب الوضعية الأصيلة الآخرين ، بإطلاق»
«الضحكات الساخرة الطويلة ، فإن البرجماتى يستخرج منها [الميتافيزيقا] »
«ما هية ثمينة ،مما يمكن استخدامه ومنحه الحياة والقاء الضوء على»

---

(1) يعتبر بيرس كل من الانطولوجيا (علم الوجود)Ontology و الكوزمولوجيا (علم الكون) Cosmology والدين فروع من الميتافيزيقا (انظر المجلد الأول . الفقرة 192) .

«الكوزمولوجيا والفيزيقا ، وفى نفس الوقت فإن التطبيقات الأخلاقية للنظرية» « ستكون إيجابية وفّعالة ، وهناك استخدامات أخرى كثيرة ليس من السهل» «تصنيفها »(المجلد الخامس الفقرة 423) .

p.111 ويعتقد هنا بيرس أن البرجماطيقية Pragmaticism تستخلص « ماهية ثمينة»، من الميتافيزيقا ، تخدم « الكوزمولوجيا والفيزيقا » وما تبقى Resi-due منها هو الميتافيزيقا التقليدية التي سادت لفترة طويلة وتقوم على الملاحظة - ومن ثم فإنها ستصبح «ميتافيزيقا علمية » Scientific metaphysics ، وبهذا المعنى ستكون الميتافيزيقا بالنسبة لبيرس جزءاً من الفلسفة - ونظرية فى الواقع ، أما الأجزاء الأخري فستكون ظاهرية Phenomenology (دراسة ما هو ظاهر) ، والعلوم المعيارية (علم الجمال، والأخلاق) والمنطق . وسنلقى الضوء على ملامح ميتافيزيقا بيرس فى التو والحال .

ومع ذلك ، فإذا كان عنوان هذا الفصل « الكوزمولوجيا البرجماتية » فإنه يبدو أن العنوان المفضل هو « الميتافيزيقا البرجماتية ». وغالبا ما كان بيرس ذاته يبدى ملاحظات سلبية علي الميتافيزيقا التقليدية . أما ديوى - الذى استخدم المصطلح (كما فى كتابه : الخبرة والطبيعة) - فقد اعتقد أن المصطلح يكون غامضا إذا ما طبق علي نظرياته . واستخدم ميد المصطلح بوجه عام بنوع من الاستخفاف . وبالنسبة لمعظم [كتّاب] تاريخ الفكر الفلسفى فقد كانت « الميتافيزيقا » معارضة للعلوم التى تقوم على الملاحظة . أما بالنسبة

لكتّاب معاصرين كثيرين فمازال هذا الموقف صادقاً (2) . ومن ثم فالأسباب بالنسبة للحركة البرجماتية - سواء أكانت أسباباً داخلية أم خارجية - فيبدو أنه من المرغوب فيه أن نتحدث عن « ميتافيزيقا برجماتية » فى هذه المناقشة الحالية ، ولهذا فإن التعبير « كوزمولوجيا » استخدم على الرغم من خلفياته [الخاصة] (مثل الحقيقة التى تقول أن علم الكون عند بيرس عبارة عن جزء فقط من الميتافيزيقا) وعلى أية حال ، فان الإهتمام هنا سينصب على نظريات البرجماتية عن « العالم » أو « الكون » The Universe أو الكون Cosmos شاملاً مكانة الإنسان فى هذا الكون .

ويجب أن يكون مثل هذا الكون - بالنسبة للبرجماتى - موجود علي أساس الخبرة ، ويجب أن يكون نافعاً مبدئياً ، ومنسجماً مع ذاته ، و ستختلف نتائج
العلوم الخاصة عن العلوم فقط فى تعبيراتها ومصطلحاتها بصفة عامة . لهذا p.112
يجب أن يكون [الكون] موجوداً ، وأن يتم إختباره علي ضوء المدي الكلى للخبرة (3) و لكن لأن نقول هذا فإننا نجابه مشكلة أساسية مره أخرى وهى : ما هو تصور البرجماتى عن الخبرة ؟

---

(2) وهذا هو الغالب عند بعض البرجماتيين ، فالميتافيزيقا لدى سى ، آى . لويس تتكون من جمل وعبارات تحليلية ولكن بدون محتوى كوزمولوجى . (أنظر : الفصل الأول من كتابه : العقل ونظام العالم Mind and world - Order وقد بيّنت فكرة مشابهة إلى حد ما فى كتابى « العلامات واللغة والسلوك » ص ص 175 - 178 وهكذا تم التمييز بين الكوزمولوجيا والميتافيزيقا .

(3) يتسق هذا النقد مع عدد من الفروض حول الكون Cosmos ، وفي الواقع توجد عدة اختلافات بين البرجماتيين عند تناولهم لعلوم الكون Cosmologies ، وبالتالى فلا توجد « كوزمولوجيا برجماتيه موحدة » يمكن أن نخرج بها من هذه المناقشة . بل إن الفروق الباديه فى وجهات النظر الخاصة بالكوزمولوجيا متسقة تماماً مع الواقع بالنسبه للمعنى والمنهج ، تماماً كما يتفق عدد من علماء الطبيعة على استخدام المنهج العلمى ، ولكنهم فى ذلك يختلفون فى نفس الوقت عند تناولهم للفروض طبقاً لذات المنهج ، ومثال ذلك الفروق العلمية المعاصرة فيما يختص بأصل القمر ونشأته .

2- الخبرة كمحتوى :

لقد ناقشنا باستفاضة في الفصل الثانى النظرية البرجماتية فى الخبرة وعلاقتها بالبحث ونظرية المعرفة ، وسوف نتناول هنا الخبرة وعلاقتها بالكون.

وقد ثار جدل شديد في الحركة البرجماتية بإزاء هذه المشكلة الموروثة فيما يخص قبول تراث الفلسفة التجريبية الإنجليزية من جهة ، وقبول النظرية التطورية البيولوجية من جهة أخرى ، أما بخصوص الفلسفة التجريبية الإنجليزية فإن «الخبرة »كانت موضوعاً يشتمل محتواه على مثل هذه التعبيرات : الاحساسات Sensations ، الإنطباعات الحسية impressions الصور الذهنية images ، الأفكار ideas والآراء [الأفكار] Thoughts ، وتم وصف هذا المجال الفكرى ككل بعبارات مثل : الفردية individual والخصوصية private والذاتية subjective والذهنية mental والوعى بالشعور conscious ، ومن ثم المشكلة التاريخية لعلاقة الخبرة بالعالم ككل .

وبالنسبة للبرجماتيين فقد كان جيمس أقرب الى التجريبين الانجليز ، وكان من بين الفروق الرئيسية التى يختلف فيها عن [التجريبية] التقليدية إدراكه الأوسع لمحتويات الخبرة ، وهي تشمل العلاقات فضلاً عن الجزئيات Particulars التى تربطها بعضها بالبعض الآخر ، والاستمرارية فضلا عن عدم الاستمرارية Discontinuities ، وهذا يناسب أكثر الخبرة الفنية التى تعتبر
p.113 موضوعاً للفلسفة ، وبهذه الروح صاغ نظريته فى « التجريبية الأصيلة » Radical empiricism , واحتوت النظرية فى جانب منها على المصادرة المنهجية ومؤداها : أن « الأشياء الوحيدة القابلة للمناقشة بين الفلاسفة أشياء معروفة بعبارات مأخوذة من الخبرة (4)» .

---

(4) أنظر مقدمة كتاب وليم جيمس « معنى الصدق » The Meaning of Truth ، ص ص xii - xiii ، حيث تجد الصياغة الكاملة للنظرية التجريبية ا لأصيلة والنص المقتبس هنا من ص xii

وكان موقف جيمس من الكوزمولوجيا قريباً للغاية من هذه المصادرة المنهجية ، أعني أن الواقع « الكون » ذاته يتم فهمه من خلال تعبيرات أو مصطلحات تأتي عن طريق الخبرة ، وسمى هذا الجزء من نظرية التجريبية الأصيلة « فلسفة الخبرة الخالصة » (5) Philosophy of Pure experience .

ومن المهم أن نلاحظ عند الأخذ بهذا التصور بعين الاعتبار أن هناك إختلافاً آخر هام لجيمس عن تصور الخبرة الانجليزية التقليدية ، فلم تعد الخبرة مفهومة كمجال ذهنى خاص ، أو حتي لوعى أو شعور بمحتويات معينه ، ولكن « الخبرة» أخذت ببساطه كإسم للمحتويات ذاتها ، وتستطيع هذه المحتويات أن تدخل في علاقة فردية معطاه a given individual مما يكسبنا « المعرفة المباشرة » Knowledge by acquaintance ، وبعضها يمثل نفس المحتويات ، مثل موضوعات الإدراك المباشرة التى يمكن أن تصبح مؤشرات لمحتويات أخري تؤدى اليها ، ويستعد الفرد لقبولها ، وأن يقوم مقامها ، وعند هذا الحد، فإنها تكسبنا « المعرفة » وهى [بمثابة] محتويات أخرى ، والكون ككل يصبح ببساطة مجموع « الخبرة الخالصة Pure experience (6).

---

(5) وليم جيمس « مقالات فى التجريبية الاصلية » Essays in Radical Empiricism نشره « رالف بارتون بيرى » ص 193 . وقد ذكر جيمس فى ص 195 أن فلسفة الخبرة الخالصة لا تشمل الفروض التى تتخطى الواقع تجريبياً the hypothesis of transempiri cal reality وذكر فى ص 193 أن الخبرة ككل تمتلئ بذاته Self . Containing ولا تعتمد علي شئ [خارجها] Expe-rience as a whole is self - Containing and leans on nothing

(6) « لا توجد مادة عامة « مطلقة » تتكون منها الخبرة بمعناها الواسع ولكن توجد مواد كثيرة طالما أن هناك طبائع natures للأشياء التي تقع تحت خبرتنا .. إن الخبرة ما هي إلا إسم جمعى A collective name لكل هذه الطبائع المحسوسة .. »

« أنظر مقالات فى التجريبية الأصيلة ، ص ص 26 - 27 . [لاحظ أن جيمس من الفلاسفة القائلين بالتعدد ولا يأخذ بمبدأ الواحدية] المترجم .

ويعد هذا من الناحية التاريخية خطأً جديداً في الفكر ، وربما أظهر جيمس من خلاله جرأته التأملية إنها النزعة التجريبية الخالية من العوائق الذهنية والذاتية والتي احتوتها الكوزمولوجيا . وقد فتحت هذه النظرية من الناحية التاريخية الطريق الى فلسفة أمريكية واقعية جديدة ، بالإضافة إلى نظرية وظيفة الشعور .

أما من ناحية العبارة الموهمة للتناقض ، فإن تساوي الطبيعة (أو الواقع أو الكون) مع الخبرة ينبثق عنه مصطلح « الخبرة » بأي معني من المعانى،(7) p.114
فهو يبدو على الأقل في لب معني القضية البرجماتية . فإذا كان كل شئ في ذاته ومن ذاته « خبرة » إذن فإن مصطلح « الخبرة » يفقد قوته الذهنية أو الإدراكية ، (ومع ذلك فربما أمكن الاستعانة بهذا الاستخدام على أسس أخرى) فإذا قلنا أن «x» (إكس) عنصر من عناصر الخبرة فلن يوجد هناك مجال لأن نقول أي شئ آخر عنه مهما كان . ومن الواضح أن جيمس نفسه يعتقد في تجريبيته الأصيلة (في شكلها الكوزمولوجي) والبرجماتية كنظريات مستقلة . وقد ذكر أنه ليس من الضروري بالنسبة للبرجماتي أن يعتنق التجريبية الأصيلة (8) .

3 - الخبرة كتفاعل : -

يميز تصور الخبرة كنوع خاص من [التصورات] المحتوي الذاتي للفلسفة

---

(7) وجّه بيرس خطاباً لجيمس فقال له : « إن ما تسميه الخبرة الخالصة ليس خبرة على الإطلاق . » (المجلد ا لثامن الفقرة 301) وبرغم ذلك فإن بيرس لا ينكر محاولة جيمس ، ولكنه يريد فقط أن يقول أن الخبرة هي الإسم الصحيح Proper name .

(8) قال جيمس : « لا توجد علاقة منطقية بين البرجماتية ، كما فهمتها ، وبين نظرية أقمتها حديثاً تعرف بأسم « التجريبية الأصيلة » فالأخيرة مستقلة تماماً . فالشخص يمكن أن يرفضها تماماً ويظل برجماتياً » (المقدمة في البرجماتية ، ص ix) .

الغربية فى مرحلة ما بعد العصور الوسطى ، فهويناوىءبالضرورة إذا قبله الشخص - كما فعل البرجماتيون - نظرية التطور البيولوجية لأن هذه النظرية تصبح لا معنى لها إذا وجد الشخص عالماً يتضمن كائنات حية تنقسم عند تفاعلها ، وعلى هذا قد يقبل مصطلح « الخبرة » قبولاً ظاهريا إذا ما اشارت الخبرة الى أنواع معينة من العلاقة بين الكائنات الحية وبين عالم الطبيعة الرحب وتعتبر هذه الكائنات جزءاً منه . إن « الخبرة » تدل علي نوع خاص من التفاعل أكثر من دلالتها على نوع خاص مما تحتويه هذه الخبرة « فالخبرة » تصبح حدثاً داخل الكون (9) - وبناءاً على هذه النظرية فإن الخبرة لن تصبح محتواً يختلف في نوعه عن بقية الكون ، كما أن الكون لن يصبح « عالماً من الخبرة الخالصة » .

وتمثل النظرية بهذا الأسم موقف ديوى بوضوح كما صاغه فى الطبعة الثانية (1929) من كتاب « الخبرة والطبيعة » Experience and Nature اذ يقول فى ص 49 : -

p.115 « إن الخبرة هي شيء ما بالاضافة إلى أنها [موجودة] في الطبيعة . »
«وما لم نمر به فهو ليس بخبرة، أما الطبيعة فهى الحجارة ، والنبات ، »
«والحيوانات ، والأمراض والصحة ، ودرجة الحرارة والكهرباء الخ .. »
«فالأشياء التي تتفاعل معاً بطرق معينة هي مانسميه بالخبرة ؛ إنها ما نمر به»
«أي ما خبرناه فى الحياة .. »

---

(9) إذن فإن الأمر بالنسبة لميد هو أن المرور بالخبرة يعتبر عملية طبيعية وعلى نفس مستوي الواقع مثل كل العمليات الطبيعية الأخرى .
(فلسفة الفعل ص C F . PP 405 - 06 , 423. 517)

« الواقع - أي الطبيعة] إنها الإرتباط بطرق أخرى معينة مع موضوع» «طبيعى آخر - الكائن البشرى - كما تبين لنا أيضا كيف تتفاعل الأشياء . »

لاحظ فى هذه الصياغة أن الخبرة مساوية[1] للأشياء التي تتفاعل بطرق معينة» ، ولم يحدد ديوى هنا هذه « الطرق » ولكنه قال فقط أن الخبرة « تحدث فقط فى حالات تعتبر على درجة عاليه من التخصص ، مثل تلك التي توجد فى الكائنات العضوية الراقية والتي بدورها تتطلب بيئة متخصصة . ولا يوجد دليل على أن الخبرة تحدث فى كل مكان وكل زمان » (ص 30) وتوجد هناك مشكلات أخرى مثل كيف نحدد هذه الحالات . كما لا تعتقد مدارس فلسفية معينه (مثل فلاسفة الظواهر Phenomenologists وبعض فلاسفة الثنائية Dualists) فى أن هذه الحالات يمكن وضعها فى مصطلحات خاصة تمثل « النزعة الطبيعية » عند ديوي . وعلى الرغم من ذلك ، فان تلك المشكلة لا تهمنا فى هذا الموضوع .

ومن المهم أن نتذكر أنه بإزاء الخبرة وعلاقتها بالطبيعة ، فإن الكوزمولوجيا لدى جميع البرجماتيين (على الرغم من وجود بعض الفروق الأخرى) وهم - منذ البداية - ليسوا ديكارتيين non - Cartesian ويقال الأمر هنا بمعنيين : أن الخبرة ليست عالماً « ذهنياً » not a mental realm يختلف فى نوعه عن بقية الكون ، كما أن الخبرة ليست شيئاً خاصاً Private أو «شخصياً » Personal موروثا (على الأقل فهناك بعض الأشياء التي يمكن أن نختبرها بأكثر من مختبر واحد experiencer) . وهكذا فإن جميع البرجماتيين الأربعة يقبلون نظرية الخبرة « الإجتماعية » أو« العامة » ولكي نتأكد من هذا فانه يوجد خبرات خاصة » ولكن تلك الخبرات يمكن أن نميزها فقط بوضعها أمام الخبرات العامة .

p.116 إن النظرية البرجماتية فى الخبرة ، برغم إختلافها عن التصورات الديكارتية والتجريبية الإنجليزية والذهنية [العقلية] فهى تشبه من عدة وجوه التصور الإرسطوطاليسى للخبرة ، غير أن النظرية البرجماتية لها بعض الملامح المعينة وهى تمثل وجهات النظر الخاصة و الذاتية فى الخبرة ، كما أنها تتضمن فى طياتها الأهمية التي تلح عليها الفلسفة الأوربية إلحاحاً شديداً (10).

إذن فالخبرة بالنسبة لبيرس وميد وديوى هى جزء من الكون ، وتقع داخل الكون ، وطالما أن الكوزمولوجيا فى هذه الفلسفة يجب أن توضع على أساس الملاحظة ، فان الكون كخبرة مكتسبة هو الأساس الذى يجب أن تقام عليه المقولات الكوزمولوجية العامه والنظريات. وأن يتم إختبارها [على نفس الأساس] . وقد كتب ديوى : « إن الخبرة ليست فعلاً a verb يقوم بطرد الانسان من الطبيعة ولكنها وسيلة لتثبيته باستمرار فى قلب الطبيعة » (11) .

4- المقولات الثلاثة عند بيرس :

إن الفلسفة بالنسبة لبيرس هى علم يقوم على الملاحظة ، وتختلف عن

---

(10) ذكر ميد بالتفصيل المعني الذى يمكن أن يقال على أساسه أنه حدد وجهات نظر محددة للمرور بخبرة العالم على أنها خبرة خاصة وذاتيه وسوف نشير الى هذا فيما بعد وأعتقد أنه يجب أنه نلاحظ أن البرجماتيين استراحوا لقولهم بنظرية الخبرة على الرغم من أن بعض نقاط هذا الفصل تبدو صحيحة ، والدليل القوى على ذلك الفروق التى ظهرت فى الفصول الأولى بين عامى 1925 , 1929 والتى أوردها ديوى فى كتابه « الخبرة والطبيعة » .والمحاولة الفردية لجيمس في قوله بالخبرة الخالصة دليل آخر . وهناك فروق كثيرة فى قول بيرس بالخبرة.أما لويس فقد أنكر بشجاعة تعريف الخبرة وربطها بالسلوك وهو تعريف يعتقد فيه لويس أن برجماتيين آخرين يذهبون إليه « فالخبرة » و « النزعه التجريبية » لم يعودا بالتأكيد عبارات ومصطلحات لا إشكالية Unproblematic Terms .

(11) ديوى « الخبرة والطبيعة » طبعة 1929 ، ص iii .

العلوم الخاصة فى أنها « تمتلئ بذاتها بملاحظات يمكن أن تكون فى متناول خبرة كل انسان عادى » (المجلد الأول ، الفقرة 241). والملاحظة تقوم على نوعين : ملاحظة ظاهرية Phenomenological observation بمعناها العام (فالظاهرية تتناول « كل ما يبدو] يظهر بأى معنى [») وملاحظة العلامات observation of signs . ويعتقد بيرس أن الملاحظة الظاهرية تكشف على (لأقل) ثلاثة أنواع من الظواهر : الكيفيات qualities وردود (الفعل الفجة الساذجة Brute reactions بين شيئين لشئ ما مع شئ ما آخر، ورد الفعل الاعتيادى Habitual reactions . وقد استخدم بيرس مجموعة من المصطلحات المتعددة للتعبير عن أنواع الظواهر الثلاثة وهى « الكيف Quali-ty ، ورد الفعل Reactions ، والوسيط Mediation (المجلد الأول الفقرة 530) ؛] وكذلك [« الكيف » ، و « الواقعة » Fact ، و« القانون » law ، و] كذلك [«الإمكان » possibility و « الوجود » existence و « العادة » p.117 Habit ، وأكثر الأسماء عمومية هى « الشعور » Firstness و « الإرادة » Sec-ondness و « الاعتقاد / المعرفة » Thirdness. « الشعور » يوصف بأوصاف متعددة منها « الكيف » و « الإمكان » و « الصدفة » chance، والتلقائية Spontaneity ، و « الإرادة » التي تعرف برد الفعل ، والواقعة، والوجود ؛ و « الإعتقاد / المعرفة » وبالوسيط ، والقانون ، والعادة و الكلية Universality ، والعمومية generality ،و الاستمرارية Continuity ، وهذه هي مقولات (*) بيرس الثلاث ، ويقول عنها بيرس « ربما لا يكون من الصحة أن نسمى هذه المقولات تصورات ؛ فهى غير محسوسة لدرجة أنها تعتبر كنغمات

(*) لاحظ استخدام بيرس للمصطلح الكنطى وذلك لعمق تأثير فلسفة كنط فى بيرس وسوف نعني بمصطلح Firstness الشعور ونرمز له بالحرف (.F) ، ومصطلح SECONDNESS الارادة ونرمز لها بالحرف (.S) والمصطلح THIRDNESS الاعتقاد / المعرفة ونرمز لها بالحرفين (.Th) . المترجم

أو آثار خفيفة للتصورات » (المجلد الأول ، الفقرة 353) .

واعتقد بيرس أن دراسة العلامات تدعم التحليل الثلاثى للظاهرة ، فقد وجد ثلاثة أنواع رئيسية فقط للعلامات وهى(الصورة icon ، والدليل index والرمز symbol) . وثلاثة أنواع فقط من القضايا ، تعتمد على عدد الموضوعات التى تحتاجها المحمولات Predicates لتكوين قضية كاملة (ويسميها القضية الواحدية monadic ، والقضية الثنائية dyadic والقضية الثلاثية triadic ، ويوضحها « س أحمر » ، و « س يضرب ص » ، و « س يعطى ص لواو » . وقد عدّ بيرس هذه الأنواع الثلاثة من العلامات والقضايا درجات لثلاثة مقولات عامة ومنذ أن إعتقد أن هذا التحليل كشف عن ثلاثة أنواع فقط من العلامات وثلاثة أنواع من أشكال القضايا اعتبر أن هذا دليل قوى على وجود ثلاث مقولات فقط للواقع وفى الواقع .

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الملاحظ أن بيرس لم ينكر فى بعض الاحيان أنه قد توجد تصورات أخرى عامة مثل المقولات الثلاث التي أعتبرها أساسية (المجلد الأول ، الفقرة 526) . كما يلاحظ أيضا أنه بينما يجب أن تكون المقولات [التي استخدمها] بيرس فى فلسفته بمعني محدد إن يتم اختبارها »، فإن هذا لا يعني أنها موضوعات خاصة « بالإدارك الحسى » Perception ؛ لأن « تصور الخبرة أوسع من الإدارك الحسى » (المجلد الأول ، الفقرة 336)

وأخيراً فانه بالنسبه لصعوبة تطبيق قضية بيرس البرجماتية على تحليل معنى المقولات ذاتها ، فإنه يجب أن نتذكر أن بيرس لم يطبق المعنى بدقة علي المعيار الذى عبّر عنه فى صياغته المبكرة للقضية البرجماتية . p.118

إن علم المصطلح والتحليل عند بيرس إذا قورنا بالمقولات فإنهما لا يقومان بدور بارز فى كتابات أي برجماتى آخر . ومع ذلك فإنني أعتقد أن

البرجماتيين الذين ننظر اليهم هنا بعيد الإعتبار مهما كان علم المصطلح لديهم ، فإنهم نسبوا الصفات التي ذكرها بيرس فى مقولاته الثلاث للكون . وطالما أن بيرس كان يعنى أن الفيلسوف الإسمى nominalist(*) هو أي إنســان ينكر واقعية المعرفة Thirdness ، فإنه ينتج عن هذا أن أي فيلسوف من الفلاسفة البرجماتيين يعتبر فيلسوفاً إسمياً بالمعني الذى قصده بيرس .

وليس من الصعوبه بمكان أن نجد آثراً لمقولات بيرس فى كتابات ديوى ، وسوف نركز اهتمامنا على كتابه « الخبرة والطبيعة » (12) حيث تحدث فيه ديوى عن « اختلاط كل من الكلية والفردية Singularity والصدفة » في الطبيعة (ص 48) فكانت معارضته للنزعة الإسمية واضحة (ص ص 84 - 85): وكتب أن « الطريقة المستمرة للفعل المنظم ليست دقيقة » (ص 196) وأن « كل معنى هومعنى عام أو كلى » (ص 187) وتقوم نظرية الكيف فى فلسفة ديوى بدور هام فهو يقول فى كتابه « الخبرة والطبيعة » « أن جميع الموجودات .. لها كيفيات خاصة بها » (ص 108) و أنه يوجد شئ ما لا يمكن التنبؤ به ، تلقائي ، غير مصاغ ، وفوق الوصف ... فى أى موضوع نهائي " (ص 117) . وكتب ديوى ذاته مقال يتعاطف فيه [مع بيرس] بعنوان

(*) الإسمية Nominalism . من اللاتينية nomina مذهب يتبنى أصحابه وجهة نظر معاكسة للمذهب الواقعى حول طبيعة المفاهيم العامة ويرى أصحاب الأسمية المتطرفة أن المفاهيم العامة مجرد أسماء للأشياء الواقعية ، وليس لها ما يقابلها فى الواقع البشرى كما قال بيير أبيلار (1079 - 1142) وسميت بإسم التصورية Conceptualism وبلغت أوجها عند وليم أوف أوكام . (المعجم الفلسفى المختصر) - ص ص 33 - 34) [المترجم] .

12)- صدرت الطبعة ا لأولى من كتاب « الخبرة والطبيعة » عام 1925و الطبعة الثانية عام 1929 ، وكان الترقيم فى الطبعتين واحداً ماعدا أجزاء من الفصل الأول .

« نظرية بيرس فى الكيف » (*) أما بالنسبة « للإرادة » (S)، فإن تصور ديوى الضيق للخبرة جعلها « أفعال وإخضاعات لعمليات ما » (**) أو إخضاع لخبرة ما undergoings (ص 358) ، وذكر معبراً عن ذلك أنه « لا يوجد فعل بدون رد فعل » (***) (ص 73)، وأن " الفعل والتفاعل فقط يمكنهما أن يغيرا أو يعيدا صنع الأشياء " (ص158) وهناك تحليل مشابه يمكن أن نحلل به أعمال ميد .

p.119 ويبدو أن جيمس يمكن أن يكون الاستثناء المحتمل لوجهة النظر القائلة أن جميع المقولات الثلاث لدى بيرس موجودة لدى جميع البرجماتيين ، وبالتأكيد فقد ركز جيمس على « الشعور » (F) (مثل الإمكان و الكيف والوسيط indeterminateness) أكثر من تركيزه على الإرادة . (.S) (مثل رد الفعل) أو الإعتقاد / المعرفة » (.Th) (مثل القانون أو العمومية) ، وكتب جيمس أن «الخبرة الخالصة هي إسم آخر للوجدان Feeling أو الإحساس Sensation" (مقالات فى النزعة التجريبية الأصيلة ، ص 94) ويعنى « الجوهر » Substance أن مجموعة من الإحساسات سوف تتكرر » (بعض المشكلات فى الفلسفة ، ص 62) . وبالتأكيد فإن « الأشياء الملموسة » فى « رد الفعل الفج أو الساذج ليست واضحة وضوحاً كاملاً لدى جيمس كما هى لدى بيرس أو ميد ومع ذلك فإن تركيز جيمس المتواصل على التعددية Pluralism (وهي النظرية التى تقول" أن الاجزاء المختلفة للواقع يمكن أن تكون لها علاقات متخارجة »)(كون متعدد A pluralistic Universe ص 321)

(*) Peirce's Theory of Quality .

(**) Doings and Sufferings .

(***) قانون نيوتن لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه . [المترجم] .

ويمكن أن لا يستثنى منها إمكان حدوث ردود الأفعال بين هذه الاجزاء (والتى توجد بالتأكيد) ، وعند ذلك الحد [تكون أقوال جيمس] متسقة مع قوله بالإرادة . (.S) . ومن الواضح أن جيمس أدرك [المقوله الثالثة] وهي الاعتقاد / المعرفة (.Th) ، فقد أصر على الأستمرارية continuities داخل الخبرة ، كما أصر فى ذات الوقت على اللااستمرارية Discontinuities ، وسيسمى هذه النظرية « تعددية الإتصال » Synechistic pluralism ، وهو يعزوها لبيرس (ولبرجسون) كما يعزوها لنفسه (13) .

5 - الكوزمولوجيا عند بيرس : النزعه المثالية التطورية :

الكوزمولوجيا البرجماتية كوزمولوجيا تطورية مطردة : [بمعنى أن] الكون أمكن تصوره من خلال الحركة البرجماتية كعملية متطورة ، ولكن داخل هذا الاتساق العام يوجد إختلاف [أو فروق] بين النزعة المثالية التطورية عند بيرس وبين النزعة الطبيعية التطورية عند ديوى وميد . فقد أطلق بيرس على كوزمولوجيته « مثالية من طراز مثالية شيلنج a Schelling fashioned idealism p.120 التي اعتبرت الموضوع أو الشئ مجرد موضوع أو شئ متخصص

(13) أنظر جيمس ، « كون متعدد » ص ص395 FF ، وينفى التفسير الذى قدمه جيمس انتمائه إلى الاتجاه الإسمى nominalistic ، حيث ربط بين المذهب الواقعى المنطقى وبين التفكير التجريبى . وأنظر كذلك « بعض مشكلات الفلسفة » ص 106 . وهناك أيضا إشارة لمقولات بيرس بما فيها « الاعتقاد/ المعرفة » (.Th) أشار اليها جيمس وذكرت فى كتاب « رالف بيرى » R. B. Perry « فكر وشخصية وليم جيمس » The Thought and character of William James . (المجلد الأول ، ص 325) .

ومعزول عزلاً جزئياً عن ادراك العقل [14] (المجلد السادس ، الفقرة 102) ؛ وكتب ميد عكس ذلك ، « إنني أرغب فى تقديم العقل مثل النشؤ فى الطبيعة، والذى يبلغ ذروته فى المجتمع وهو المبدأ وصورة الإرتقاء » (فلسفة الحاضر ، ص 85) . ففى الحالة الأولى يعتبر نشؤ الكون ذهنياً من الناحية الجوهرية ، وفى الحالة الثانية يعتبر العقل كشئ ناشئ داخل الطبيعة المتطورة. والكتابات [كما تبدو] معقدة ، إلا أننا نستطيع أن نلقى بعض الضوء على سبب وجود هذه الفروق الكوزمولوجية .

قدّم بيرس تصوره عن الكون المتطور فى نص شهير تحتويه هذه الكلمات:-
«إنه من مثل هذه المواد نستطيع بناء نظرية فلسفية بصفة رئيسية ، لكى»
«نعيد تقديم صورة المعرفة التى خلّفها لنا القرن التاسع عشر. ودون أن نتعمق»
«تساؤلات هامة أخرى عن النسق الفلسفي . نستطيع أن نتنبأ بسهولة ما هى»
«نوع الميتافيزيقا التي نكونها بطريقة مناسبة من هذه التصورات وسوف تشبه»
«من ناحية بعض التصورات القديمة فضلاً عن إحتوائها على تصورات حديثة»
«من ناحية أخرى ، ومنها سيكون لدينا «فلسفة وكونية . وسيفترض منذ البداية»

---

(14) علّق جالى W . D. Gallie فى كتابه « بيرس والبرجماتية » على كوزمولوجية بيرس باعتبارها صورة العالم « World picture أي يمكن اعتبار العالم علامة صورية an iconic sign بالمعنى الذي ذكره بيرس فى عبارته . وقد اشار بيرس ذاته الي أنه لم يطوّر تصور الصورة icon مثلما طوّر تصور الرمز. ومن الصدق أن نقول أن بيرس استخدم نظرية الصورة The notion of icon بطرق هامة فى فلسفته الرياضية والجمالية ، إلا أن تصور الصورة يمكن أن يكون له صلة بالنسبة لتفسير بيرس ذاته . وقد اقترح « جالى » النظر الى نظرية الصورة من ناحية أهميتها فى فهم أفكار الكوزمولوجيا بما فيها الكوزمولوجيا عند بيرس ، وهي جديرة بإهتمامنا .

« وهو فرض بعيد بعداً مطلقا– وجود عماء من الوجدان غير المشخص ، وهى» «بلا رابط أو إنتظام وسيكون وجودها لا كما ينبغى أن تكون. هذا الوجدان» ينتقل الى هنا وهناك انتقالاً خالصاً كيفما شاء، وسينشأ عن النزوع والميل» «نحوالتعميمات ، وستزول حركاته الأخرى ، ولكن بعد أن يكون قد ترك أثراً» «متزايداً وهكذا يبدأ النزوع نحو العادة ، ومنها ومع مبادئ التطور الأخرى، » «ستنشأ كل أنظمة الكون . وفى هذا الوقت سيعود للحياة عنصر الصدفة» «الخالصة – على الرغم من ذلك – وسيظل موجوداً حتى يصبح العالم» «صحيحاً صحة مطلقة ، عاقلاً عقلاً مطلقاً ، ومنسقاً تنسيقا متماثلاً» «وسيتبلور فيه العقل أخيراً علي المدى البعيد فى المستقبل» (المجلد السادس ، الفقرة 33) .

وعلى الرغم من أن بيرس لم يشر فى هذا النص الى مقولاته ، فإنه ليس من الصعوبة بمكان أن نفسر النظرية التى عبّر عنها فى تلك العبارات " عماء p.121
الوجدان غير المشخص و « فى البعيد بعداً مطلقاً» «وبداية فهو « الشعور » (.F) (الكيف ، الوجدان ، الإمكان ، التلقائية). و « العادة » أو الاتجاه نحو التعميم فهو الإعتقاد/ المعرفة » (Th) (الاتصال ، العمومية ، العادة ، الفكر ، العقل). وهذا« الاعتقاد/ المعرفة » يظهر فى الوجود عن طريق التطور التدريجى (الارادة) (.S) و العالم هو العقل « متبلور » والذى سيكون صحيحاً علي المدى البعيد فى المستقبل بل و «صحيحا صحة مطلقة » ، عاقلاً عقلاً مطلقاً ، ومنسقا تنسيقاً متماثلاً .

وهكذا فإن(الاعتقاد/ المعرفة) و(العقل) يحوّل الشعور (الإمكان) إلى أشكال محددة من الإرادة (الوجود). وطالما أن « المادة » matter والإرادة المعطاه تعطينا صفة محددة للعقل بصفة أساسية ، فإنه يمكن اعتبارها « عقلاً متخصصاً ومعزولاً عزلاً جزئياً » [وبناء اً عليه) فإن العملية ككل

التي يتم فيها تبلور العقل ذاته في عالم محدد تصبح عملية كوزمولوجية لحقائق معقولية الذات Concrete reasonableness ، وهذه هي « النزعة المثالية الموضوعية » objective idealism عند بيرس .

ولا يوجد فيلسوف برجماتي آخر ذكر مثل هذا النوع من الميتافيزيقا المثالية . وهناك من النقاد من ناقش فكرة أن ميتافيزيقا بيرس [1] وهي خليط من الأفلاطونية Platonic ، وفلسفة شيلنج Schellingean ، والهجبية Hegelian) لا تسبق من الناحية الزمنية الفلسفة البرجماتية لدى بيرس فقط ولكنها لا تتسق معها . وبالتأكيد إذا ركز شخص ما على « لب» hard - Core القضية البرجماتية فإنه يستطيع أن يتبين الصعوبات التي تواجهه في تفسير الكوزمولوجيا المثالية بإستخدام مجموعة من العبارات مثل إذا تم القيام بأفعال كذا وكذا ، فإننا سنحصل على نتائج كيت وكيت القائمة علي الملاحظة، ولكننا رأينا من قبل أن بيرس لم يأخذ في إعتباره تفسير هذا « اللب » على أنه نتاج نظرى كامل له رموزه ذات المعنى . وقد فكر بيرس بالتأكيد في فلسفته البرجماتية التى ترتكز على كوزمولوجيته المثالية الشرطية hypothetized idealistic cosmology (« وهي شرطية » طالما أنه لم ينكر كل دعاوي فلاسفة الدوجماطية الغائية Finality) بدلاً من معارضتها .

p.122 ويؤكد بيرس باستمرار على الطريقة التي تتغير بها أى حالة موجودة بالفعل في الفكر الانساني . وهكذا فالشخص يفتح النافذة المغلقه لكي يغير الهواء ا لفاسد في الحجرة ، وهنا أمكن تصور أن « الإمكان » هو (النافذة المغلقه التى تم فتحها) وتؤدى فكرة الحصول على هواء نقى في مثل هذه الظروف إلى فعل هو فتح النافذة با لفعل ؛ وبهذا تتحقق (الإرادة) في عملية الفكر و

(الاعتقاد / المعرفة) كما تحقق الإمكان (الشعور)[15] ، وأصبحت الظاهرة الملحوظة ظاهرة مقروءة على نطاق واسع read large أصبحت نموذجاً طبق الأصل لعلم الكون عند بيرس . ولكن ما هو البرهان على هذا المدّ الكوني المتمثل في التصرف الإنساني المميز ؟ يجيب بيرس : " أن المبدأ أو قضية الإتصال التي ينبغي علينا أن نفترض أن الأشياء الموجودة متصلة [ومستمرة] بقدر ما نستطيع ... (المجلد السادس ، الفقرة 277) . والكون الذي يمكن تصوره يتصل بالكون الذي يمكن أن نلاحظه « بقدر ما نستطيع » * إذن فعملية الفكر الإنساني صورة من الفكر الكوني،ويستطيع الإنسان أن يثق في هذا الاستدلال طالما أنه على المدي البعيد يتطابق أو يتفق مع طبيعة الأشياء . ويمكن تدعيمه بحيث تصبح فكرة المعقولية Reasonableness أنموذجا للحياة ، لأن الحقائق العقلية الذاتية هي حقائق الواقع الكوني .

ويمكن تحديد علاقة برجماتية بيرس بنظرياته الكونية تحديداً قاطعاً إذا تذكرنا أن مفسّر الرمز سُمي في المرحلة المبكرة بالفكرة Thought، وقد وصفه في تحليله الأخير بعبارات [تدور حول] عمومية « العادة » Habit وقد تأثر بيرس تأثراً كبيرا بحقيقة واضحة مؤداها أن مفسّر الرمز يتجه بدوره لكي يصبح هو ذاته رمزاً له مفسّره الخاص، مثالاً علي الإستمرارية . وأخيراً فإن واقعية الرمز تتضمن عمومية العادة ، تتوقف على القانون أكثر ما تتوقف على مجموعة من ردود الفعل الفردية . وقد تأثر بيرس بالعلاقة الضيقة لتصورات الرمز ، والفكر ، والعادة ، والقانون ، والعمومية ، والإستمرارية ، حقاً ، لقد تأثر بهم لدرجة أنه استخدمها بالتبادل وجمع كليهما لكي تكوّن معاً p.123

---

(15) يوجد المثال الذي يذكره بيرس عن النافذه المفتوحة في المجلد الخامس في الفقرة 431 -

(*) As far as we can .

مقولة (الإعتقاد/ المعرفة) (.Th) ويمكن أن نسمي الاعتقاد/ المعرفة باسم العقل واعتباره كموّجه لتحقيق الإمكان ، وكانت النتيجة أن ظهرت النزعة المثالية الموضوعية عند بيرس .وعلى الرغم من مطابقة العقل للاعتقاد/ المعرفة [16] فإن هذه المطابقه تقوم كما رأينا - على اتجاه بيرس الذي يساوى بين الفكر والرمز والعادة والقانون كنتيجة [طبيعية] لاعتماده الكامل على مبدأ الاستمرارية . ولكن إذا أخذ مبدأ عدم الاستمرارية بجدية مثل مبدأ الاستمرارية فإنه سيكون من الممكن ألا نساوي بينهما ، مثال ذلك ، تساوى الفكر بالعادة أو القانون ، وهكذا فانه سيسمح بالإعتقاد / المعرفة باعتبار أنها صورة مطلقة للكون دون أن يعتنق ميتافزيقا النزعة المثالية الموضوعية ، و « سينشأ العقل » عندئذ في وجود ظروف طبيعية معينة ، بدلاً من أن يكون هو نفسه مصدر الوجود «Fountain of existence ومثل هذه النزعة الطبيعية التطورية تصورها جيمس من قبل ، وطوّرها ميد تطويراً كبيراً .

6- إنكار جيمس لوجود الشعور :

أراد وليم جيمس في كتابه « مبادئ علم النفس » Principles of Psy-chology أن يقدم علم نفس متقدم بإعتباره علماً تجريبياً ، وحاول أن يتجنب بقوة كتابات أساسية معينة تنسب اليه كفيلسوف وصادر ببساطة) أو افترض فى هذا الكتاب دون مناقشة وجود عالم العقل والافكار Thought

(16) إن تعبير « نفسى » Psychical تعبير واسع فضفاض بالنسبه لاستخدام بيرس له ، أكثر من « العقل » Mind حيث يشمل الشعور والاعتقاد / المعرفة ، بينما يعتبر العقل (وهو مناط التفكير) هو الاعتقاد / المعرفة ، والنفس كشعور تشتمل بوجه عام علي كل من النفس والعقل والفكر ، ولكنها (النفس) لا تحتاج لان تفعل هذا .

(أنظر بيرس ، المجلد الخامس ، الفقرتين 365 - 366)

والشعور Feelings) وعالم الأشياء الخارجة عن الذهن ، وأن تلك العقول تعرف مثل هذه الأشياء الخارجة عن الذهن ، وقد قبل جيمس هذه « الثنائيه المنهجية » Methodological Dualism من أجل علم النفس ثم من أجل إقامة نظرية عامة عن وجود وقائع نفسية أو ذهنية معينه بصفة جوهرية .

p.124 وقد لاحظنا من قبل ، عند مناقشة تصور الفيلسوف البرجماتي للخبرة ، أن جيمس كفيلسوف تعدى هذا الموقف الثنائي الذى افترضه بصورة مؤقته فى « مبادى علم النفس » ولم يعد يفكر فى المحتويات التي تم اختيارها كموجود فى الطبيعة النفسية أو الذهنية . وعلي سبيل المثال، فاللون البني الذي يمكن أن يعتبر « فيزيقياً » إذا نظرنا اليه فى علاقته بالمكتب ، إذا كان هذا هو لونه ، و « ذهنياً » إذا نظرنا إليه في علاقته بالسيرة الذاتية لشخص ينظر الي المكتب البنى . وبهذا يصبح اللون البنى لا ذهنياً ولا فيزيقيا .

وقد أخذ جيمس خطوة ثانية حاسمة عندما برهن على أن التفكير في شئ ما (الشعور بمعني يشعر بـ) ليس نوعاً خاصا أيضا من " الوجود " أو " الكيان " Entity أو" المادة الخام " stuff (*) ولكنها مسألة وظيفية لبند واحد في الخبرة المقدمة كبديل لوظيفة أخرى وذلك عن طريق توجيه التصرف (السلوك) وذلك في مقابل البديل . ولم يستفيد جيمس ذاته كثيرا من مصطلحات العلامات (المصطلحات السيمائية) Semiotic Terminology ، ولكن ليس من العدل أن نقول في هذا التحليل، أن الشعور بمعني الشعور بشئ ما) هو توظيف العلامات و أن أى شئ يفهم يمكن أن يوظف كعلامة . « فالعقل بهذا المعني

(*) اطلق برتراند رسل فى كتابيه « تحليل العقل » The Analysis of mind و « تحليل المادة » the Analysis of Matter على المادة Stuff لفظ المادة المحايدة Neutral وهى التى تدخل في تركيب نسيج العالم بشقيه المادى والمعنوى . [المترجم] .

هو عملية العلامة a Sign process . وهذا الجانب فى فكر جيمس أمكن تصوره من قبل فى فصل التصور (17) .] وما صاغه جيمس [فى « مبادئ علم النفس » صاغه بوضوح فى مقاله عام 1904 بعنوان « هل الشعور موجود » . Does Consciousness Exist ?

وكانت إجابة جيمس على هذا السؤال البلاغى قاطعه « لا » ، الشعور (كفكر) ليس نوعاً من الوعى الخالص : " أن الافكار فى الواقع مصنوعة من نفس مادة الأشياء " (*) (ص 37) ، فالتمييز بين الفكر والشئ ، بين العارف

P. 125 والمعروف ، هو تمييز وظيفى ينشأ من الخبرة . واذا سمينا الشئ الموجود فى الخبرة « مدرك حس » a percept إذن فإن التصور هو مدرك حسى بديل لمدركات حسية أخرى تقوم بتوجيه السلوك إليها ، التى « تعنيها » . وعندما يتم الحصول على هذا الموقف الوظيفى فإننا نقول فى هذا التحليل أن لدينا شئ «فى العقل » . " فالشعور يدل على نوع العلاقة الخارجية ، ولا يدل علي مادة بعينها أو وسيلة لمعرفة الوجود » (ص 35) .

وكتب بيرس لجيمس معلقا على مقال « هل الشعور موجود ؟ » فى نفس شهر ظهوره (أنظر المجلد الثامن ، الفقرات 279 - 85) . ومن الواضح أن بيرس لم يفهم ما كان يهدف اليه جيمس.وكتب اليه يقول : " إن بحثك هذا اصابني بالإرتباك منذ بدايته وسيظل [المقال] أمامى حتى أستطيع أن أكتشف ماذا تهدف من ورائه » (المجلد الثامن ، الفقره 279) . ورد عليه جيمس بخطاب [ذكر فيه] أنه يهدف الي إقامة نظرية مؤداها أن الشعور

(17) يذكر ميد أن الفصل ا لذي كتبه جيمس عن التصور يمثل موقفه الأخير من البرجماتيه ومصدر أفكاره الثرية التى اعترف كل من رويس وديوى أنها معزوة له .
إنظر فلسفات رويس وجيمس وديوى فى اطارها الأمريكى ، ص 223 .

(*) Thoughts in The concrete are made of the Same stuff things are

يعنى « المبدأ الأساسى لكل خبرة أو كما تبدو فى بعض الوظائف أو العلاقات بين أجزاء معينه من الخبرة » (اقتبسها الناشر فى الحاشية 31 من المجلد الثامن الفقرة 285) . وقد عَبر جيمس في تحليله للشعور ووظيفته والعلاقة بينهما عن نظرية مغايرة لنظرية بيرس والتى تفيد أن الذهن علامة مطلقة تعبر عن الواقع ولن يؤدي موقف جيمس الي كوزمولوجيا ذات نزعة مثالية موضوعية وكان من المفهوم من الوجهة الإنسانية لماذا لم يفهم بيرس إلما يهدف جيمس بدور العلاقة والوظيفة في تحليله للشعور .

إن هذا الاختلاف الهام لا يجب أن يقف حجر عثرة أمام حقيقة مؤداها أن جيمس وبيرس اتفقا فى اعتبار العقل (" كالتفكير فى » ، أو « الشعور بـ » كعملية للعلامة أو الرمز . وإن الاختلاف بينهما يكمن فى البعد الكونى الذى اعطاه كل منها للعمليات الخاصة بالعلامة .

7- ميد Mead : اللغة والعقل والنفس : p.126

أشرت فى الفصل الذى تناولت فيه نظرية العلامات (السيمياء) البرجماتية إلى أن أعظم اسهام ميدMead فى نظرية العلامات كان تحليله السلوكي للرمز اللغوى ؛ فاللغة الانسانية بالنسبة لميد دراسة محكمة [دقيقة] للإتصال الإشارى الحيوانى ، وفيه اكتسبت العلامات دلالة عامة (بأن لها مفسر سلوكي عام) لدي كل من تصدر عنه الإشارة [حاليا] أو مستقبلا على حد سواء . واحتلت الأصوات المنطوقه Uttered Sound فى تحليله مكاناً رئيسياً هاماً لأن شخصاً ما سمعها من شخص آخر ينطق العلامة بنفس الطريقة التي ينطقها بها الآخرون ، ومن ثم اعتبرت اللغة المتكلمة نموذجاً طبق الأصل لكل أشكال اللغة الأخرى ، وقد افترض ميد مسبقاً أن اللغة عملية إجتماعية فى مظهرها ، ولكنها كونت بدورها وبعد ظهورها مجتمعاً إنسانياً

معقداً ، وعقل انسانى Mind ونفس Soul . وهكذا بحث ميد انطلاقاً من اقتناعه بالعملية البيولوجية الطبيعية سبب ظهورها أشكال أعلي من المجتمع الإنساني ، ومن الشخص [ذاته] .

وعَرف ميد العقل على أساس اقتناعه التام بأهمية الرموز التي تتعلق بوظيفة اللغة بأعتبار أن العقل ليس عالماً نفسياً داخلياً ، وكذلك المخ فى الكائن الحى ، ولكنه نمطاً من السلوك يتفاعل عن طريقه الأفراد فيما بينهم ومع العالم المحيط وذلك من خلال وسيط من الرموز اللغوية (18) وبرغم ذلك فالعملية اللغوية إجتماعية من الناحية الداخلية internalized (19) بمعني أن الانسان يستطيع أن يتحدث إلى نفسه صامتاً أو بصوت عال ، سواء أكان وحده أم فى وجود آخرين . وإن الفكر بالنسبة لميد هو عملية داخلية جوهرية
p.127 تستخدم فيها الرموز اللغوية ؛ إنه تفكير منعكس عندما يتجه لحل مشكلات التي يجابهها فى السلوك ويمكن تعزيز الفروض الموجوده عندما تعمل فى العلن ، غير أنها قد لا تكون - فى هذه الحالة سواء - لكي نقول أنها « ذاتية » تماماً فى « العقل » in the mind ، ولكن تظل رموز اللغة عمليات تجري فى الطبيعة حتي وإن كانت داخلية ، بل وحتي إن كانت (ذاتية) بهذا المعني ؛ لان الكائن الحى هو جزء [لايتجزأ] من الطبيعة .

---

(18) يقول ميد فى كتابه « العقل و النفس و المجتمع ما يلى فى ص 133 : -
« لا تكمن العمليات الذهنية فى الكلمات بقدر ما يكمن ذكاء الكائن الحى في العناصر المكونه للنظام العصبى المركزى . فكلاهما جزء من عمليات تحدث بين الكائن الحى والبيئة ، وتؤدي الرموز دورها فى هذه العملية مما يجعل الاتصال غايه فى الأهمية واذا استبعدنا اللغه فالاتصال بالرموز يحدد مجال العقل ومن السخف أن ننظر ببساطة الى العقل من منظور الكائن الإنسانى الفرد ، على الرغم من وجود مركزه هناك ، انه ظاهرة إجتماعية بصفة جوهرية .

(19) يتحدث بيرس عرضا عن « العالم الداخلى » The inner World بإعتبار أنه ينشأ بوضوح عن العالم الخارجى ، outer (المجلد الخامس ، الفقرة 493 ، ويتحدث عن الفكر بإعتباره شكلا من أشكال الحوار dialogic in form (المجلد السادس ا لفقرة 338) وقد ناقشت هذه الافكار وما شابهها عند ميد فى مقال مبكر بعنوان « بيرس وميد والبرجماتية » .

إن موقف ميد أيضا سّوغ إستخدامات معينه للتعبير « الخاص » Private ؛ لأن الإنسان يستطيع إلي حد ما أن يلاحظ ذاته و يلاحظ صفاته الذاتية وسلوكه (بما فيها علامة السلوك) التي لا يستطيع أن يلاحظها مباشرة عن طريق الآخرين . فالخصوصية هنا موضوع يتعذر الحصول عليه ليتم ملاحظته عن طريق الآخرين ، ولكنه مثل هذه الخصوصية ليست موضوع الولوج الى شئ ما « ذهنى » بصفة جوهرية . كما أن هذه الخصوصية لا تتطابق مع ما هو « داخلى »inside ، وهو ما يعتبر حدود الكائن الحى ، لأنه من الممكن أن يكون هناك شخص يلاحظ شيئا ما ، مثل ملاحظة زهرة معطاة ، مثلما يلاحظها عالم نبات منعزل .

وهكذا استطاع ميد في تناوله لموضوع السلوك أن يجد دلاله (معنى) لمثل هذه المصطلحات مثل « الذاتية » و « الخصوصية » وقد استطاع ذلك حتي دون حل مشكلة الثنائية الديكارتية الذهنية والفيزيقية التي تدخل ضمن تحليله .

ما هي النفس التي جاءت فى تحليل ميد والتى تستطيع أن تتخاطب مع ذاتها ؟ (20).

---

(20) لإلقاء مزيداً من الضوء على النفس أنظر كتاب ميد « العقل والنفس والمجتمع » وعلى وجه الخصوص الصفحات 135 ,226 وأيضا مقاله « أصل النفس والرقابة الإجتماعية » The genesis of the self and social Control . وقد أشار جيمس الى أن الانسان يختلف عن سائر الحيوانات ا لأخرى بما اسماه الشعور بالذات self con sciousness أو المعرفة المنعكسة عن ذاته ككائن مفكر Reflective knowledge of himself as a thinker ، وذلك فى كتابه «مبادئ علم النفس » المجلد ا لثانى ص 359 , ولكنه لم يفسر قوله هذا في مصطلحات أوتعبيرات لغويه محددة . ويمكن أن نقول نفس الشئ بالنسبة لعبارة بيرس التي يقول فيها :
لقد اصبحنا على وعي بأنفسنا عندما أصبحنا على وعى بالانفس not - Self
we become aware of ourself in becoming aware of the not - self .
المجلد الأول – الفقرة 324)

إعتبر ميد أن الصفة الجوهرية للنفس هى وعيها بذاتها Self Conscious-ness بمعني أن لديها القدرة أن تكون شاعرة (على وعى) بذات الشخص كموضوع . وقد وجد مثل هذا الوعى بالذات فى اللغة وهي سبب الخاصية الاجتماعية للرموز اللغوية ، فالشخص يستدعي فى نفسه الإتجاهات التي
p.128 تستدعيها الرموز اللغوية لشخص آخر لدي الآخرين ، ومن ثم فالرموز التى تدل على ما فى عقل الشخص ذاته ، يستجيب لها شخص آخر كما يستجيب له الآخرون ، ومن ثم يصبح الموضوع بالنسبة لشخص ما أصبح شاعراً بنفسه - يصبح نفساً وهكذا فإن النفس هى ذلك الكائن العاقل الذى أصبح على وعى بذاته ، وبهذا المعنى أعتقد ميد أن الحيوانات بخلاف الانسان ليست نفوساً ، طالما أنها تفتقر إلى التقنيات اللغوية التي تجعل وعيها بذاتها ممكناً فى رأيه .

وقد ذكرنا فى هذا الملخص النقاط الرئيسية لنظريات ميد فى العقل البشرى الخاصة بعملية الرمز اللغوى . وفى النفس الانسانية ككائن عاقل قادر على وضع ذاته فى إطار دلالاته الرمزية إذن ما هو الملجأ والمعنى الكوزمولوجى لإنسان شديد الإقتناع بذاته ؟

8 - النسبية الموضوعية فى عالم الكون عند ميد

تتضمن الخبرة بالنسبة لميد وطبقا لوجهتي نظر البرجماتية التجريبية والبيولوجية، تفاعلاً ديناميكياً بين الكائن الحى النشط وبين الموجودات المحيطة به فى العالم ، وهو تفاعل حساس . وفى هذه العملية التفاعلية فإن كل من الكائن الحى كخبير والعالم كخبير آخر يتبادلان عملية التفاعل . وقد اعتبر ميد أن مثل هذه العلاقة الديناميكية هى كما تتبدى للعقل من زاوية معينة ،

وهكذا قال ميد بمعنى شامل عن التعبير الاجتماعي أن مظهر الموضوع كما يبدو للعقل هو مظهر إجتماعي : فطبيعة شئ ما كما تبدو للعقل محددة (على الأقل في جانب منها) بطبيعة الأعضاء الآخرين الذين يشتركون معه في المظهر (21) . ولكن ما هو هذا الشئ الذي يتبدى للعقل وسيكون له تأثير بدوره p.129

(21) أنظر : ميد " فلسفة الحاضر " ص 77 حيث استخدم فيها مصطلح « النسق » بدلاً من المنظور perspective ، وعلاقة هذه التصورات في إحدى المؤلفات التي استخدمها الطلاب بعد ذلك عند تناولوا فكر ميد الكوزمولوجي . وقد استقبل عمل ميد باعتباره عالم نفس إجتماعي وعلي هذا الأساس وجهت اليه العناية والتصفيق ، غير أن أحد لم يتناول فكرة الكوزمولوجي بعد ، وهو على نفس الدرجة من الأهمية . وعلى طلاب المستقبل أن يحاولوا بعناية استكشاف العلاقة بين فكر ميد وميتافيزيقا هوايتهد White head ونظرية النسبية في الطبيعة . وأود أن أسجل هنا نقطتين ذكرهما لي هوايتهد في اكتوبر 1933 الأولى : إنه اعتقد أن فكرة جسّد كل أفكار البرجماتية الرئيسية ، الثانية : اعتقاده بأن الحركة ا لبرجماتية يمكن أن تقوي بدرجة عظيمة إذا طورت تصور [مفهوم] الكوزمولوجيا .

ومن رأيه أن الكوزمولوجيا التي تناولها هو نفسه يبدو أنها كانت من النوع الذي يحتاج اليه الناس . وذكر هوايتهد في ملاحظته أنه قرأ لتوه كتاب ميد « فلسفة الحاضر » مما جعله يضع ميد في مرتبة عالية ، غير أن موت ميد غير المتوقع على أثر أزمة قلبية heart at-tack عام 1931 منعه من تطوير الكوزمولوجيا التي يعد كتابه « فلسفة الحاضر» جزء منها فقط ، كما منعه من مقارنة كتاباته مع كتاب هوايتهد « العملية والواقع » Process and Reality الذي ظهر بعد فترة قصيرة من موت ميد ، كما تناولت مناقشات ميد لأفكار هوايتهد أعماله المبكرة فقط ، وبرغم ذلك فقد كان لهذا العمل تأثيره على تطور ميد خاصة في بحثه الهام الذي قدمه بعنوان « الواقع الموضوعي للمنظورات The Objective Reality of Perspectives " عام 1926 ونشره عام 1927 في : Proceedings of the Sixth International Congress of philosoply وأعيد نشره في كتاب « فلسفة الحاضر » (الصحف 161 - 175) وكذلك في كتاب A.J. Reck بعنوان « كتابات مختارة لجورج هربرت ميد » .

selected Writings of George Herbert Mead .

(الصحف 306 - 19)

عندمـا تدخل منظورات أخرى فى النظر الى العـقل ، إن هذا هو المعني الثـاني للتعبير « إجتماعى » وهـكذا يمكننا أن نميز بين معنيين لهذا الإستخدام الواسع لتعبير إجتماعى : يشير المعني الأول الى التأثير المتبادل لكلا العنصرين داخل النسق ، بينما يشير الآخر الى تأثير شئ ما فى النظام على شئ آخر فى نظم أخرى . وهذا ما يمكن أن نسـمـيـة تفـاعـل النظم أو الأنسـاق intraperspectives or systems الإجـتـمـاعـيـة وتداخل النظم أو الأنسـاق الإجتماعيةinterperspectival or intersystemic على الرغم من أن ميد ذاته لم يستخدم هذه التعبيرات .

و عندما يتحّد المعنيان الاجتمـاعـيـان مكونان ما اسماه ميد « المبدأ الإجتماعى » (22) The Principle of sociality فانه يسمى الخواص الجديدة أو الغريبة والتى تنشئ شيئ ما عندما يدخل عليها نسق جديد بالخواص « المنبثقة » أو « الناشئة كنتيجة طبيعية أو منطقية » emergent properties .

و يمكن إيضاح المبدأ الإجتماعى على المستوي الانسانى بحالة صبى نشأ فى مجتمع صغير يدخل الجامعة مما ينتج عن اتصاله بالآخرين فى المجتمع الصغير ملامح [وصفات] معينه فى شخصيته ، " فهو صبى من مدينة صغيرة "، كما ستؤثر ملامح شخصيته هذه بدورها ردود أفعاله داخل مجتمع الجامعه ، إلا أن ملامح جديدة ستنبثق فى شخصيته بسبب تفاعله مع الآخرين

---

(22) أنظر « فلسفة الحاضر » ، ص ص 51 - 52 ، و ص ص 76 - 77 ويوجد بها عبارتان عن المنظورات perspectives كالاتى : أ - إن النظام هو العالم فى علاقته بالفرد وعلاقة الفرد بالعالم » فلسفة الفعل ص 115 .

ب - إن النظام هو العلاقة المستمرة لبناء (أو تكوين) structure ا لطبيعية التى تتضمن التغير فى تكوينها (المصدر السابق ص 118).

فى الجامعة ، وستستمر هذه العملية فى كل موقف إجتماعى مقبل يعيشه ، وبالطبع فإن ما ذكر ينطبق على أى شخص آخر يتفاعل معه الصبى من مدينة صغيرة فى الجامعة .

فالفرد فى جانب منه هو ما هو عليه بسبب المنظورات التى كان عليها وهو عضو فيها ، فطبيعته تختلف عن شخص خارج كل هذه المنظورات ، ومع ذلك
p.130 فلن نستطيع أن نذكر طبيعته بطريقة شاملة بتعبيرات [مصطلحات] تبين موقفه من هذه المنظورات ، كما لن نستطيع - بالطبع - أن نذكر فى تعبيرات [تشمل] مجموعة من المنظورات المحددة (طالما أن ملامح جديدة لشخصيته تنبثق عنها إذا دخل في مواقف نظمية جديدة).

والآن نطرح سؤالاً كوزمولوجياً مؤداه : هل يمكن مدّ هذا النوع من التحليل [ليشمل] صفات الكون ؟ من الواضح أن ميد كان مقتنعاً بإمكان مدّه . " فلا توجد ناحية فى الكون ليس لها منظوراً " Perspective . (فلسفة الفعل، ص 495) (23) . وقد مَيز بين ثلاثة مستويات رئيسية تنظم المنظورات ، وهى المستوى غير العضوى The inorganic ، والمستوي العضوى the organic والمستوي الذهنى the mental (24) ، وناقش فى مواضع عدة كيف أن موضوعات كل مستوي هى موضوعات إجتماعية بمعني أن كل منها مستوي

(23) فى مناقشة جرت بينى وبين أينشتين Einstein حول هذا الموضوع ، وجدنا ان رأيه كان بالنفى ، فالنسبية الموضوعية objective relativism معروفة للعالم عن طريق « العلم» Science وليس عن طريق الميتافيزيقا .

(24) أنظر : هربرت ميد " فلسفة الفعل " ، ص ص 606 - 07 .

في ذاته] بسبب علاقتها بالأعضاء الأخرى لكل منها ومعها جميعاً المنظورات التي تدخل فيها . وعند كل مستوى يتم تنظيم المنظور من خلال الحقيقة [التي مؤداها] أن الأعضاء في منظور دائماً تحدث في المنظورات الأخرى أيضاً . ولكن المستويات الثلاثة هي نفسها منتظمة في علاقتها ببعضها البعض عن طريق نفس المبدأ الإجتماعي Principle of sociality ، وهكذا فالحياة هي إنبثاق * يحدث تحت ظروف معينة من مستوي غير عضوي ، وكذلك المستوي الإنساني (أو الذهني) ينشأ بدوره عن مستوي عضوي تحت ظروف معينة . وينظم المبدأ الاجتماعي هذا الكل المعقد من المنظورات ، ويشكل الكون .

وليست هذه هي المناسبة لكي نحاول أن نرسم فيها الخطوط الكبرى بالتفصيل ، أو أن ندافع عن هذه الكوزمولوجيا التطورية المنبثقة . ولكن يمكن أن نلاحظ العديد من الملامح المميزة .

أولاً : ففي هذه النظرية نجد الكون هو (كما كان عند جيمس) " واحداً " One في بعض النواحي و " كثير " Many في نواح أخرى ، ويتمتع الكون بالوحدة Unity بمعنى أنه لا يوجد مكوّن واحد منظم معزولاً [عن الآخرين] وعلى سبيل المثال ، فإذا كانت بعض أجزاء الكون تبدو مفقودة أحياناً ، فإننا نجدها في
p.131 المنظورات الأخرى ، ومن ثم فالكون " واحد" كوحدة منتظمة من المنظورات as an organized system of perspectives ، ولكنه ليس واحداً بمعنى أن [هناك] منظور واحد [فقط] هو الذي يشمل الكون a single all - inclusive perspec-tive . فكل شيء على علاقة نظامية ببعض الأشياء الأخرى ، ولكن ليس

(*) تري نظرية الانبثاق Emergent Theory أن العقل الانساني يكتسب خصائص جديدة عن انبثاقه ونشأته عن الجسم خلال تطوره البيولوجي ، وهي تختلف عن خصائص ا لبدن بعيدة عن متناول دراسات علم وظائف ا لأعضاء . د . محمود زيدان ، في النفس والجسد ، ص 189 . [المترجم]

بجميع الأشياء الأخرى (أو يمكن أن نقولها بطريقة أخرى ، لا تشمل جميع المنظورات جميع الأعضاء على المشاع) . ومن ثم فالتعددية Plurality أساسًا كالوحدة Unity ففكر ميد ، مثل فكر جيمس ، له مكان لعدم الإستمرارية dis-continuities والإستمرارية Continuities .

ثانياً : إن الموقف هو موقف نزعة طبيعية تطو رية an evolutionary nat-uralism أكثر منه (كما عند بيرس) نزعة مثالية تطورية an evolutionary idealism . ويعتبر العقل بالنسبة لميد ، منبثقاً عن شئ ، ومن ثم فهو على مستوى واحد من تنظيم المنظورات ، ولا يعني هذا أن ميد ليس لديه مكان لمقولة بيرس فى الاعتقاد/ المعرفة (Th.) ، ويعد المبدأ الإجتماعى حقاً أساساً للكون ككل ، ولكنه فى حد ذاته شكل من أشكال الاعتقاد/ المعرفة : ماذا ستكون م M فى علاقتها المنظورية مع ل L والتى تعتمد في جزء منها على ما تكونه م M فى علاقتها المنظورية مع ن N . ولكن حيث أن بيرس يتجه لمساواة العقل بالإعتقاد/ المعرفة ، فإن نظرية ميد فى الواقع تعالج العقل كصورة منبثقة عن الإعتقاد / المعرفة وليس كصورة متطابقة معه . ويتبع هذا أنه لن يوجد شئ فى نظرية ميد متطابق مع تصور بيرس عن الكون مثل عملية معقولية الذات .. As aprocess of "Concrete reasonableness والتي ينشأ عنها الإعتقاد / المعرفة (مثل العقل) . والشعور (F) الخالص (مثل الإمكان) عالم محدد وإرادة عاقلة A world of determinate and rationalized secondeness (مثل الوجود أو التحقيق) فجميع مقولات بيرس تجد لها مكاناً فى نظرية الكون لميد. ولكن فى الإطار العام لكوزمولوجيا ميد فكل مقولة من هذه المقولات يجب أن تكون متضمنة فى الأخريات . ومن ثم فلن تكون هناك إحتمالات Possibilities دون تحقيقات ، ولا توجد وقائع فعلية (تحقيقات) Actualities

دون إعتقاد / معرفة متضمن فى المبادئ الإجتماعية ـ وهكذا فإن الإنبثاقات
p.132 emergents هى إحتمالات للتحقيقات ، والتحقيقات هى ما تكوّنه فقط من خلال اشتراكها فى عدد من العلاقات المنظورية مع التحقيقات الأخرى) . فعند ميد (وكذلك عند ديوى) تظل مقولات بيرس صفات للواقع ، ولكن تحولت النزعة المثالية التطورية عند بيرس إلى نزعة طبيعية تطورية [عند ميد] .

وطالما أنه فى مثل موضوع الكوزومولوجيا فإن صفات أي شئ هي صفاته بمقتضى علاقته المنظورية بالأشياء (الموضوعات) الأخرى ، فيمكن أن يقال عن الصفات أنها " نسبية بطريقة موضوعية " objectively relative ، ويمكن أن نسمى علم الكون الذى يعمم هذا المبدأ علم كون النسبية الموضوعية . وفى القسم التالى سوف يتم تطوير ومناقشة هذه النظرية باستفاضة أكبر وسيثور السؤال الخاص الذى يدور حول علم الكون البرجماتى ككل باعتباره علم نسبى موضوعى تطورى An evolutionary objective relativism

9 - تعقيب على الكوزمولوجيا البرجماتية (" الميتافيزيقا")

وضع بيرس ميتافيزيقاه بإعتبارها نظرية عامة عن الواقع علي أساس المعلومات التي أمكن الحصول عليها من علم الظواهر (المنطق) وتم مراجعتها بإستخدام نتائج العلوم الخاصة . فالميتافيزيقا التي يمكن تصورها هي علم يقوم على الملاحظة ويختلف فقط فى درجة العمومية عن العلوم الخاصة . تصور يختلف عن تصور النظريات الميتافيزيقا " التأملية " أو " العقلية " والتى تتميز عنها بقوة من حيث المنهج وصحة نتائجها عن العلوم التي تقوم على الملاحظة . ونادراً ما يستخدم البرجماتيون - ما عدا بيرس - مصطلح

" الميتافيزيقا " وإن استخدموه فباستخفاف ، ومن ثم فإننا استخدمنا مصطلح علم الكون Cosmology فى هذا الفصل [بدلا من الميتافيزيقا].

p.133 وينفرد علم الكون البرجماتى بملامح خاصة مثل التصور اللاديكارتى عن الخبرة ، ومقولات الشعور (.F) و الإرادة (.S) ، الإعتقاد/ المعرفة (.Th) ، ونظرية العلامات (السيميائية) عن العقل ، والنسبية الموضوعية التطورية ، ويبدو لى أن هناك إتفاق جوهرى بين البرجماتيين الأربعة على الملامح الثلاثة الأولى .

وتعتبر الخبرة مجالاً خاصاً تماماً ، لكن ليس في كل موضع كما يختلف ما هو ذهنى اختلافاً واضحاً ذهني بصفة أساسية مختلفة بقوة عن بقية الكون ومن خلال تطورها [الخبرة] أصبحت البرجماتية توضع فى مقابل هذا النوع [الخاص] من الثنائية وعلى العكس ، فقد اعتبر مجال الخبرة كجزء من الكون ومتصلة به . [أما] الإتجاه الرئيسى فهو التأكيد علي إعتبار الخبرة متضمنة فى تفاعل الكائن الحى مع بقية العالم – وعلى وجه الخصوص تعتبر عودة الي تصور ارسطور طاليس ("ولغة كل يوم ") وفي نفس الوقت هناك إدارك لبعض نواحى خاصة أو ذاتية للخبرة ، وفى هذا المقام فعندما حاولت البرجماتية تناول الخبرة حاولت أن تكون عادلة أمام الخواص المسيطرة للديكارتية التقليدية الحديثة The Cartesian - in - spired - modern tradition .

وعلى الرغم من ذلك لم يستفد أحد من البرجماتيين الآخرين من مقولات بيرس : الشعور والإرادة والإعتقاد/ المعرفة ، فجميعهم أدرك ملامح المقولات الخاصة بالواقع (" الإمكان ") و " الواقعية " (الفعلية) actuality و " العمومية ") بشكل أو بآخر .

وقد تناول كل البرجماتيين الكبار العقل بمصطلحات خاصة بعملية

العلامات. وبرغم ذلك فقد وُجدت فروقاً كبيرة في التأكيد على أهمية العقل ومداه الذى تصوره ، مثلما نجد في الفروق بين النزعة المثالية التطورية لدى بيرس والنزعة الطبيعية التطورية لدى ميد .

p.134 أما الصفه الرابعة البارزة وهي - النسبية الموضوعية التطورية - فإنه قد ثار سؤال منطقى حول ما إذا كانت الوجهة النسبية الموضوعية (ولو أنها ليست وجهة تطورية) يمكن أن تعتبر بحق قد طبقت على علم الكون البرجماتى ككل.

ويجب أن نعترف فى الحال أنه لا يوجد فيلسوف برجماتى آخر طوّر بوضوح وعمومية شكل النظرية كما ينسب لميد. ولكن هناك أمثلة كثيرة وتحليلات محددة لدى البرجماتيين الآخرين تبدو لى أنها دخلت فى أصل النظرية . وهكذا كتب بيرس :

" ... إن كل شئ بينّ لنا هو بيان ظواهرى عن أنفسنا . وهذا لا يمنع إمكان وجود ظاهرة لشئ ما، بدوننا، تماماً مثل قوس قزح Rainbow الذى يعد اعلانا فورياً عن كل من الشمس والمطر " .

(المجلد الخامس ، الفقرة 283) [(25)] .

و أكثر من ذلك فقد كتب بيرس هذه العبارة الأكثر اتصالاً بالموضوع : -

" والنظرية التى تتناول وجود مثل تلك الاشياء الأخرى يجعلنا فى مثل" "هذه المكانة البارزة فى حياتنا مما يقنعنا أن الأشياء الأخري توجد أيضاً بفضل" "ردود فعلها مع بعضها البعض " .

---

(25) لاحظ أيضا مناقشة بيرس الهامة عن " الألوان النسبية بالنسبة لعضو أو حاسة الإبصار وبالتالى فهى علاقة « خارجية » External. (المجلد السادس ا لفقرتان 327 - 328) .

و توجد في المجلد الخامس الفقرة 457 مناقشات كثيرة مشابهة . وفى كتاب جورج ميد " فلسفة الحاضر " ص ص 73 - 74 ، وهى مناقشة عامة " للصفات ا لثانوية " Secondary qualities.

(المجلد الأول ، الفقرة 324) .

وأسهب جيمس في عباراته التي قال فيها أن " كل شئ له بنية في الحقيقة ولا مهرب من ذلك " (كون متعدد ص 319)، وقال : -

" إن عالمنا المتعدد Multiverse هو الذى يجعل الكون مستمراً ، فكل جزء" "بالرغم من أنه يمكن ألا يكون ، وأن له علاقة واقعية أو مباشرة ، إلا أنه مع" "ذلك يتحرك في بعض علاقاته الممكنة أو المباشرة مع كل جزء آخر من خلال" "الحقيقة القائلة أن كل جزء يرتبط مع الجزء الذى يليه مباشرة بطريقة متلاحمة" "لا سبيل إلي الخلاص منها " (المصدر السابق ، ص 325) .

بينما ذكر ديوى ، الذى أخذ موقفاً سّماه " أرثر مورفى " Arthur E . Murphy " النسبية الموضوعية " objective relativism ، ذكر فى موقفه هذا أن " أي شئ يتغير طبقا لمجال التفاعل الذى يدخل فيه " (الخبرة والطبيعة ص ، 285) . p.135

ولم يطّبق ميد نفس العبارة بالضبط على موقفه هذا الخاص " بالنسبية الموضوعية " ، ولكن هناك مواضع كثيرة استعمل فى كل منها عبارات "الموضوعى " objective و " العلاقة " Relation فى نفس الجملة :

" تماماً مثل شئ موضوع على مسافة وهذا الشئ له قيمة منظورة تعتمد علي علاقة العين بخطوط الضوء التي تميل إلى الالتقاء عند نقطة واحدة .. لذلك فإن ما يسمى الصفة " الحسية للشئ يمكن أن تتم رؤيته على مسافة تنبثق كنتيجة لعلاقتها بالضوء الحاس أمام الشئ ، وهذه الصفة هي صفة موضوعية كما أنها صفة منظورة ، مثال ذلك ، إختصاص شئ بشئ آخر برغم وجوده على مسافة ما "

(فلسفة الفعل ، ص 283) [26] .

إن علم الكون النسبي الموضوعي هو بمعنى ما تعميم ما هو متضمن فى التفسير البرجماتى للخبرة ، الموجود فى العلاقة بين الكائنات الحية وبين العالم الذى يكون الخبرة وبين كل من العالم والكائن الحى مما يمكّن من تحقيق صفات لا يمكن تحقيقها بطريقة أخرى . وتم تعميم هذه الحقيقة الأخيرة عن علاقات الخبرة ولكنه الغى الحاجة التى يحصل عليها دائماً الكائن الحى الحساس تحت ظروف خاصة يمكنه معها الحصول عليها ، والنتيجة هى : علم كون نسبى موضوعى. ويبدو لى أن علم الكون البرجماتى - بالإضافة الي كونه بوجه عام عملية أوكوزمولوجيا مؤقتة فإن لديه نواة النسبية الموضوعية التى تحقق تطورها الكامل لدى ميد عند معالجته للخبرة كنظام أو معالجة إجرائية Transactional.

P. 136 **وتتلائم النسبية الموضوعية مع ملامح أخرى كثيرة للفكر البرجماتى ، مثل معالجة القيمة فى علاقتها بالفعل المكتمل ، وتناول نظرية العلامات التى تدل فيها العلامات فقط من خلال الوسيط على فعل المفسِّر .**

ولهذه الأسباب فإن النسبية الموضوعية تبدو تحديداً مناسباً لكوزمولوجيا برجماتية أكثر تميزاً .

---

(26) قارن هذه العبارة التي وردت فى ص 330 من كتاب « العقل والنفس والمجتمع ومؤداها أن " الأشياء تكون ملونة ، وذات رائحة سارة أو مؤلمة ، بشعة أم جميلة ، وذلك في علاقتها بالعضو الحساس " . وكتب ميد فى موضع أخر " إن حاسة الذوق المحظوظة والأعضاء المنفعلة [أو التى تعانى] موجودة بنفس المعنى مثل المدركات الأخرى أو الأشياء فى أصل نشؤ الذات والرقابة الإجتماعية " ص 257 .

" The Genesis of the self and social control . "

الفصل السادس
البرجماتية فى الوقت الحالى

p.141 1- فى وحدة الحركة البرجماتية :

بيّنت المناقشات السابقة أنه على الرغم من أن فلسفة البرجماتيين الأمريكيين ليست فلسفة مغلقة [على ذاتها] وأحادية النسق ، إلا أنه يوجد قدر كبير من الإتفاق [المشترك] بين بيرس ، وجيمس ، وميد، وديوى ، وقد حدث هذا فى جميع مجالات الفلسفة التقليدية ، فإذا لم تكن البرجماتية " نسقاً " بالمعنى التاريخى ، فانها مصاغة بصورة أكثر نسقية من أن يدركها [الناس] على وجه العموم. إنها فلسفة مفتوحة كحركة جماعية فريدة تقريبا فى تاريخ الفكر الفلسفى . ولا يكوّن أعضائها مجموعة من المريدين [الحواريين] المخلصين حول سّيد مفكر واحد ، ولكنهم مجموعة من المفكرين المبدعين المتفاعلين الذين قاموا بتطوير صرح فلسفى عام من أوجه متعددة ، وكانت النتيجة الكلية هى إحدى الانجازات العقلية العظيمة خلال المائة سنة الأخيرة .

وقد تم استعراض الموضوعات العامة الرئيسية لهذه الحركة الفلسفية والتى ركزت على الانسان ككائن نشط يبحث بذكاء عن القيم - لكي يستطيع أن
p.142 يتحكم فى مستقبله . واتخذت نظرية العلامات (السيميائية) السلوكية أساساً لها . كما قامت هذه النظرية مقام " الأورجانون Organon للحركة . وعلى هذا الأساس ، وبتأثير منهج العلم القوى ، إتخذت نظرية المعرفة التقليدية (الإبستمولوجيا) شكلاً جديداً فى نظريات البحث ، وتم تفسير المنطق والرياضيات داخل نظرية البحث التى أتخذت النظرية السيميائية أساساً لها،. وعولجت نظرية التقويم كشكل خاص لنفس نوع البحث العام الموجود فى العلم ،

وأصبحت محور المشكلة في هذا البحث ، وتناولت هذه الحالة الخاصة الشئ الذي يستحق التقدير في موقف أصبحت فيه عملية التقدير مسألة إشكالية ، هذا النوع من نظرية القيم (الأكسيولوجي) يمكن أن يسمى النظرية الأكسيولوجية ، أي نظرية السلوك المفضل (على الرغم من أن هذه العبارة لم يستخدمها الفلاسفة البرجماتيون أنفسهم) . وأكبر الفروق بين الفلاسفة البرجماتيين تجدها في نظرياتهم التي عالجت علم الكون (أو الميتافيزيقا) ولكن حتى هنا يوجد اتفاق علي أن البحث الكوزمولوجي يجب أن يتم توجيهه واختباره عن طريق الملاحظة observation ، وأن العالم الذي تم اختباره بكل ثراؤه يجب أن يعتبر كجزء وقسم من الواقع الكلي الذي أمكن إدراكه بكل أبعاده وأكثر من ذلك ، فطالما أن كل البرجماتيين الكبار يساوون بين العمليات الذهنية وبين عمليات العلامة . فإن هناك اتفاق عام على ما يمكن أن نسميه نظرية سيميائية (أو علاماتية) للعقل .

إذن ، هذه الموضوعات العامة تميز الفلسفة البرجماتية في جوانبها الفنية وتعطيها دورها المميز ، نظرية علامات (سيميائية) سلوكية a behavioral Semiotic ومنطق يتم تفسيره علي أساس سيميائي ، ونظرية معرفية موجهة نحو دراسة البحث ونظرية في القيم معنية بدراسة السلوك المفضل (وهو الشئ الجدير بالتقدير prizing وتعيين أو تحديد قيمة شئ ما Appraising) ونظرية في الخبرة تعد مكملة للكون ، ونظرية سيميائية في العقل . وهذه هي الموضوعات العامة الكبرى ، وهي حصاد جديد بالفعل .

p.143 وليس [معنى] هذا أن ننكر وجود الفروق بين بيرس ، وجيمس ، وميد، و ديوي – الفروق في شخصية كل منهم ، وفي نوعية المشكلات التي تناولوها، وحتى في نوعية الحلول المقترحة لها. فكل منهم فيلسوف علي طريقته الخاصة ،

وكل منهم يمكنك قراءته و الاستفادة من قراءته دون أخذ الآخرين في الإعتبار. حقاً ، وحتى الآن فإنها حركة برجماتية واحدة ، " واحدة فى كثير " One in many . وسأناقش فقط هذه الواحدية oneness لانها هامة كالكثرة many-ness ، ومن بعض الوجوه ، فإن تجميع الكثرة يكون " الواحدية " . وعلى سبيل المثال ، ما قاله بيرس عن العلامات وما قاله ميد عنها مختلف جد الإختلاف حقاً ، ولكنهما لاينافضان بعضهما البعض ، وكلاهما أسهم اسهاماً كبيراً فى نظرية العلامات بطريقة مؤثرة . أو يمكن أن نقول على سبيل مثال آخر ، إن تركيز بيرس الشديد على المجتمع The Community وتركيز جيمس الشديد على الفرد ساعدت على إقامة علاقة تبادلية غنية بين النزعتين الفردية والإجتماعية والتى تركت تأثيرها بقوة على ميد وديوى [1] . وإذا بحثنا في البرجماتية عن إطار يشمل مجالات الفلسفة التقليدية ، فإننا سنعتبر عمل جميع الرجال الإربعة عملاً متكاملاً بوجه من ما الوجوه .

وفى الفصل التمهيدى حاولت أن أعدد أربعة عوامل فى الموقف الثقافى الذى وضعت البرجماتية أصوله والتى قبلها البرجماتيون على أنها عوامل لا إشكالية . أعتقد أنه واضح الآن من التحليل السابق أن هذه العوامل الأربعة عملت معاً بهذه الطريقة : جميع البرجماتيين تجريبيين ، وجميعهم يحترم العلم والمنهج العلمى ، وجميعهم شعر بتأثير علم الحياة (البيولوجيا) التطورى عليه ، وعمل جميعهم كانسانيين داخل إطار المُثل الديمقراطية الأمريكية .

p.144 وكان عقد الثلاثينات [من هذا القرن] فترة ذات أهمية خاصة في تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية . وفى نهاية هذه الفترة كانت كل الأعمال

(١): أنظر ديفيد ل . ميلر David L Miller " النزعة الفردية : التقدم الشخصى والمجتمع المفتوح ".Individualism : Personal Achievement and the Open Society

الكبيرة لمؤسسى الحركة البرجماتية متاحة : المجلدات السته الأولى لبحوث بيرس (Collected Papers) ؛ المجلدات الأربعة تضم أعمال ميد ؛ وكتب ديوى " الفن كخبرة " و " نظرية التقويم " و " المنطق " و " الايمان الشائع " A common Faith ، والحرية والثقافة [أو الحضارة] ، اكتملت جميعها خلال السنوات الخمس التي ظهر فيها هذا الانتاج الملحوظ .

ولكن شهد عام 1939 بداية الحرب العالمية الثانية ، وتميزت هذه الحرب بظهور عهد جديد فى الثقافة الأمريكية . وكان من المستحيل أن تتناول بنفس العمق في هذه الفترة العصيبة الحصاد الغنى لأعمال بيرس وميد وديوى التى كانت متاحة خلال فترة الثلاثينيات .

وأكثر من ذلك فقد جوبه الفلاسفة الأمريكيين خلال تلك الفترة بالحركات الفلسفية الأوربية القوية : الوضعية المنطقية ..Logical empiricism الفلسفة التحليلية الانجليزية المتأخرة Loae British ansaytic Philosophy الظواهرية Phenomenology ، والوجودية Existentialism ، فضلاً عن تمركز معظم جهود الفكر الفلسفى في الولايات المتحدة خلال الثلاثين سنه الأخيرة حول هذا التحدى . وبدا لبعض المفكرين أثناء تلك الفترة أن البرجماتية أصبحت ذات أهمية تاريخية فقط .

وعلى الرغم من ذلك فقد برهن الموضوع على أنه ليس بمثل هذه البساطة . فبالنسبة لبعض المفكرين الأمريكيين ، وغالباً من هم على أجنحة الفكر وليسوا تحت دائرة الضوء على المسرح الفلسفى ، عملوا بجد خلال السنوات الأخيرة ، وقد استوعبوا الأحداث من حولهم وأحيانا ما كانوا يقومون بتطوير اللب التاريخى للفكر البرجماتى من بعض نواحيه .

وثبت أيضاً أن الحركات الأوربية الأربع المذكورة فى الفلسفة لها علاقة

ببعض أوجه الفلسفة البرجماتية بطرق لا تقبل الشك على المدى البعيد. واضطروا أن يتعاملوا إلى حد ما مع عادات ثقافية مختلفة ومع مشكلات مشابهة . و أحياناً مع نفس النتائج (وإن عبروا عنها بطرق مختلفة) . وهذه p.145 البداية يجب أن تعيها ، كما أننا يجب أن نقوم بعقد بعض المقارنات منذ البداية، وكان من نتيجة هذا العمل أن عادت الي الظهور بعض أفكار بيرس وجيمس وميد وديوى الى بؤرة الاهتمام ، وأصبحت أفكاراً " معاصرة " Contemporary مثل أي أفكار أخري في فلسفة اليوم .

2 - البرجماتية فى الولايات المتحدة في الوقت الحاضر :

يدور العمل الرئيسى فى البرجماتية الآن في الولايات المتحدة وبصفة مبدئية (ولكن ليس بطريقة شاملة) حول التفسير Interpretation والتقرير (التقويم) Assessment وتناولت أعمال بيرس الجزء الأكبر من هذا النشاط بلاشك . وقد أضاف الناشر أرثر بوركس Arthur W. Burks مجلدين آخرين لبحوث بيرس (Collected Papers) صدرا عام 1958 ، فأصبح إجمالى عددها ثمانية [2](*) . وأصبحت مخطوطات بيرس علي الميكروفيلم متحة الان فى

(2) أنظر : بيرس ، المجلد السابع " العلم والفلسفة " Science and philosohy ، والمجلد الثامن « مراجعات ورسائل وثبت بالأعمال » Reviews, Correspondence and Bibli-ography .

(*) نشرت المجلدات الست لهذه ا لابحاث بالأسماء التالية (وهي من وضع الناشرين وليست من وضع بيرس) : -

1 - المجلد الأول : مبادئ الفلسفة (1931) vol. I Principles of philosoply

2 - المجلد ا لثانى : عناصر المنطق (1932) vol. II : elements of logic

3 - ا لمجلد الثالث : المنطق الصحيح (1933) vol.III : Exact logic=

مكتبات جامعة هارڤارد . وأسفرت جهود محبي بيرس عن إنشاء جمعية تشارلز ساندرز بيرس Forum هـام تـدور فيه المناقشات حول فلسفته وغيرها. وظهر حديثاً عدد من الكتب عن بيرس ، و قد أشرت إلى بعضها فى الحواشي السابقة من هذه الدراسة ، وأنهى ماكس فيشMax H. Fisch فى هذا الوقت قائمة طويلة -طال انتظارها - عن أعمال بيرس .

واستمر إدراك أهمية فكر ميد في الإزدياد ،وأجرى توم كليفتون كين Tom Clifton Ken دراسة مفصلة عن أعمال ميد الفلسفية والإجتماعية والنفسية (3) . ولم يحظ كتابيه " فلسفة الفعل » و « فلسفة الحاضر » بالإهتمام الفلسفى الذى يستحقانه وهما يمثلان الأفكار الكوزمولوجية [الكونية - الطبيعية] عند ميد . ويعد هذا جزءاً هاماً من فكر ميد المتأخر حيث وضع p.146 فلسفته عن الفعل فى مكانها الكوزمولوجى . و سوف يتناول ديفيد ل. ميلر هذه الموضوعات فى الدراسة التى يجريها الآن عن ميد .

= 4- المجلد الرابع :أبسط الرياضيات vol . IV : The simplest Mathematics (1934)

5 - المجلد الخامس : البرجماتية والبرجماطيقية vol. V Pragnatism and Pragnaticism (1934)

6 - المجلد السادس : الميتافيزيقا العلمية vol VI :Scientific Metaphysics(1935)

ثم نشر بوركس عام 1958 المجلدان السابع و الثامن بعنوان : -

Pierce C.S.Collected Papers

(vols . 7 - 8)

(Edited by : Burks, A.W., U.S.A., 1958).

أنظر د / عزمى إسلام ، المنطق الصحيح . تراث الانسانية العدد 2 المجلد السابع (بدون تاريخ) ص 149 . [1] المترجم] .

(3) أنظر توم كليفتون كين " النظرية الإجتماعية للمعني والخبرة عند جورج هربرت ميد "

George Herbert Mead's Social theory of Meaning and Experience

أما الإهتمام الأكبر المتزايد الذى منح لوليم جيمس مؤخراً فقد كان قليل العناية بجيمس كفيلسوف برجماتى ووجهت [الدراسات عنه] نحو الاتجاهات الفينومينولوجية فى كتابيه : " مبادئ علم النفس " و " مقالات فى التجريبية الأصيلة " وكذلك تضميناته الوجودية فى كتاب " تنويعات الخبرة الدينية " (4) . وعلى الرغم من ذلك فإن الاهتمام بجيمس لم يقف عند حد هذه الكتابات ، بل إن هناك مقتطفات أدبية عديدة حديثة لفكره ككل (5) ويعد تركيزه على الحريه والنزعة الفردية والتعددية الموضوع الثابت لتلميذ جيمس وصديقه " هوراس كالين Horace Kallen خلال عمله الوظيفى الطويل والمتميز معه .

وهناك دراسة بدأت تصدر [الآن] بعنوان " مشروع ديوى: بحث جماعى عن كتابات ديوى " وتركز هذا المشروع فى جامعة إلينوى الجنوبية Southern Illinois University ، وشمل مجلس إدارة الناشرين من بين أعضائه : جورج اكستل George E. Axtelle . وجو آن بويد ستون Jo Ann Boydston ،و موريس إيامز S. Morris Eames ، ولويس وهان Lewis E. Hahn ، ووليم ليز William A. Leys (6) ، كما أصدرت هذه المجموعة عام 1967 نشرة بعنوان " نشرة ديوى " A Dewey News letter [بينما] قدّم "

---

(4) أنظر : جون وايلد John wild " ا لتجريبية ا لأصيلة عند وليم جيمس " The Radical Enpiricism of William James.

(5) أنظر : " كتابات وليم جيمس The writing of william James أصدره جون ماك درموت John J. Mc Dermott " ومقدمه لوليم جيمس Introduction to william James ، أصدره اندرو ريك Andrew Reck

(6) كان س . موريس إيامز S . Morris Eames ضمن هذه المجموعة وكتب عدداً من المقالات عن ديوى . وكان المجلدين الأول والثانى قد صدرا عامىّ 1968 / 69 ويحتويا على الأعمال المبكرة لجون ديوى ، وقد أصدرتهما مطبعة جامعة إلينوى الجنوبية Southern Illinois University Press.

سيدنى هوك" Sidney Hook الطريقة التي فكّر بها ديوى بنشاط (ملحوظ) (7) ودافع عنها بثبات . و احتوت " مجلة الفلسفة " Journal of Philosophy خاصة على العديد من المقالات عن الخبرة مما مكّن من إستمرار تأثيرها ربما أكثر من نظرياته الإجتماعية فى ذلك الوقت . ونأمل أن يصدر جورج دايخويزن George Dykhuizen ثبت بالمقالات الممتازة التى أصدرها ديوى خلال حياته العملية الطويلة .

p.147 ولن نحاول أن نصف التأثير بعيد المدى للبرجماتيين الكبار على الفلاسفة الأمريكيين المعاصرين ، أو على الفلاسفة الأوروبيين الذين جاءوا للإقامة فى الولايات المتحدة . فهذا التأثير له دراسة قائمة بذاتها . ويمكنك أن تجد المادة التى لها علاقة بهذا المبحث في عدد مختارات " الفلسفة البرجماتية " -Prag matic Philosophy التى أصدرتها " أميلى رورتى " Amelie Rorty ، وفى مجلة الفلاسفة الأمريكيون الجدد " The new American Philosophers التى أصدرها " اندرو ريك " وفى " نحو إعادة الاتحاد فى الفلسفة ، -Toward Re union in Philosophy التى أصدرها " مورتون هوايت " Morton G.White ، و فى مقال " مورى مورفى " « أتباع كنط : برجماتيو كمبردج » Kant's Children : The Cambrigre Pragmatists.

ويلقى الأن فكر لويس C . I . Lewis عناية كبيرة ، ويمكن الاشارة الى أحدث المجلدات التى تحتوى على مقالات لويس الفلسفية بعنوان " فلسفة س . آى . لويس « The Philosophy of C . I . Lewis التى أصدرها بول آرثر شلب

---

(7) توجد المصادر فى ثبت مراجع كتاب " سيدنى هوك والعالم المعاصر " Sidney Hook and the contemporary world . الذى اصدره بول كورتز Paul Kurtz وصدرت كذلك مجموعة حديثة عن أعمال هوك بعنوان " البحث عن الوجود " Quest for Being

، وقد بقيت بعض الكتابات التي لم يصدرها قبل وفاته عام 1964 ، ثم ظهرت تحت عنوان : " القيم والأمور الإلزامية " Values and Imperatives التى أصدرها جون لانج John F. Lange .

3 - البرجماتية والفلسفة الأوروبية المعاصرة :

أما فيما يتعلق بالعلاقة العامة بين البرجماتيـة بعـض الحركات الأخرى فى الفلسفة المعاصرة (مثل التجريبية أو الوضعية المنطقية ، والفلسفة التحليلية الإنجليزية المتأخرة ، والفينومينولوجيا ، والوجودية)، فإنه من الملاحظ أن هذه الحركات الخمس تطورت مستقلة بعضها عن البعض الآخر على أسس مختلفة من التقاليد الثقافية ، فيما عدا بعض الدمج الذى حدث بين الفينومينولوجيا والوجودية فإنها لازالت حالة خاصة ، ذلك أن العاملين فى إحداهما نادراً ما يعرفون ماذا تم فى الحركات الآخرى . ومع ذلك فإنه بقليل من إعمال الفكر ندرك أن بين هذه الحركات عدداً من الملامح على وجه العموم ، وقد ساعد التحليل السابق للبرجماتية فى معرفة إلى أي مدي كانت هذه الفروق المسموح بها صحيحة بل ومتكاملة إلى حد بعيد .

p.148 وتشترك هذه الحركات الخمس فى ملامح عامة منها ايجاد عدد من المفكرين الجادين و ليس مجرد القيام بعمل هوامش على أعمال أستاذ واحد . وكانت لهم غايات لا نهائية وليس مجرد إقامة " أنساقاً " بالمعنى التاريخى . وصبغوا جميعا بصبغة تجريبية متحررة فى مقابل الحركات التحليلية التقليدية للخبرة و الميتافيزيقا التأملية التقليدية ، وعلى وجه الخصوص ذات الطابع الديكارتى Cartesian Type وكانوا جميعاً ذو توجه إنسانى man - oriented فقد بدأوا جميعا على الأقل من الإنسان كمحور أساسي - أفعاله ، وخبرته ،

ولغته وتكويناته اللغوية ، وتوجهاته التي تتسم بالإيمان بشئ ما Attitudinal orientations . وكانت مظاهر التوجه نحو الإنسان هى الصفة المصاحبة فى مختلف هذه الحركات : لأن المشكلات التى عُنوا بها كانت جد مختلفة . وكان يبدو أن اعتبارات العداء المتكرر بين أعضاء الحركات المختلفة ، بالنسبة لما له من صله بمشكلة ما قد لا يكون للأخرين نفس التقدير فلم يكن ليبدو أن لها أهمية تذكر . ومع ذلك فإنه طالما أن المحور الأساسى ينصب على خبرة ونشاط الانسان ، فإنه يجب أن تكون هناك تأكيدات Emphases ونتائج للحركات المتباينة مكملة لبعضها البعض ولا ينفى بعضها البعض .

ويفترض التحليل السابق للحركة البرجماتية منظوراً واحداً نستطيع أن نرى من خلاله هذا التكامل . فكل حركة من الحركات الأربع الأخرى المذكورة فى الواقع تركز على إحدى المشكلات الرئيسية والتى أخذتها الحركة البرجماتية ككل .

وعلى سبيل المثال فقد ركزت كل من الوضعية المنطقية لجماعة فيينا Vienna Circle على وجه العموم ومعها فلاسفة البرجماتية (بيرس على وجه الخصوص) على المنطق الصورى Formal Logic وعلى المحك التجريبى (الوضعى) للتصور العلمى ذات المعنى ، وعلى الفروض . واتفقت الفلسفة التحليلية الإنجليزية فى شكلها اللغوى الذى وضعه فتجنشتين Wittgenstein بطريقة عامة وفجة مع الفلسفة البرجماتية فى ربط المعنى بالفعل . أما بالنسبة للفينومينولوجيا فإن لها مكاناً بارزاً فى فلسفة بيرس وجيمس ، وفى كثير من p.149
كتابات ميد (كما فى فلسفة الحاضر) حيث إحتوت هذه الفلسفات على خواص فينومينولوجية وعُني الوجوديون (فى صورة جد مختلفه) بالإتجاه أوبطريقة الحياة المناسبة للانسان الحديث . وأصبحت هذه المشكلة أساسية لدى

جميع البرجماتيين ، وعلى وجه الخصوص عند جيمس و ديوى . وهكذا فإن هذه الحركات الأربع كان لها اهتمامات واضحة اشترك فيها جميع البرجماتيين ، وحتى الآن فإذا كانت الحركة البرجماتية تعتبر تكويناً كاملاً ، فإن الحركات الأخرى في الفلسفة المعاصرة يجب أن تبرهن أيضا على تكاملها . وتعتبر الحركات الخمس جميعها كتخصصات (فلسفية) محاولات يدعمها الانسان الحديث Present - day man لكي يفهم ذاته وأنشطته [فضلاً عن أنها محاولات] لوضع الإنسان نفسه في بؤرة هذه الحقبة الزمنية الخاصة بالتحول الأساسي في التاريخ البشرى .

إن المحاولة الجادة في النظر إلى الفلسفة المعاصرة وبهذه الطريقة ستكون عملاً كبيراً ، وسيتطلب الأمر دراسات للحركات الفلسفية الأخرى مثل تلك المحاولة التي تبذل في الفلسفة البرجماتية . ثم تُجرى دراسة مقارنة لمثل هذه النتائج لإكتشاف ما في هذه الحركات المختلفة من اتفاق علي وجه العموم ، ويقع مكمن الإختلاف في كشف المدى الذى وصلت إليه في الواقع من الناحية التكاملية . ومن الواضح أن مثل هذه « الفلسفة المعاصرة المقارنة " بعيدة عن حدود هذه الدراسة .

وعلى الرغم من ذلك فهناك فروض كثيرة متشابهة بين الفلاسفة في الحركات المختلفة . [وعلى كل حال] فإن الحواجز المحددة قد تم إزالتها بالفعل ، ونتوقع أن يستمر هذا الوضع [لفترة أخرى] ويمكن أن ندرك القوى والمصادر المتعددة للفلسفة المعاصرة في علاقتها بالعمل الذى شمل كوكبنا على إتساعه The planet - wide task حتى يفهم الإنسان الحديث ذاته ويستعد لمستقبله .

p.150 4 - البرجماتية كتعبير عن الثقافة الأمريكية :

يتركز اهتمامنا الرئيسى بالبرجماتية باعتبارها مجموعة من الأفكار ، وليس باعتبارها منحنى للتاريخ الثقافى (8) ولكننا لم نشر بعد إلى بداية ظهور المبدأ الملائم للبرجماتية ذاتها ، فالفلسفة تنشأ عندما يشعر أشخاص معينين بوجود مشكلات ما في ظروف إجتماعية معينة . وبهذا المعنى فإن الفلسفة (وأى نوع اخر من العلامات) يمكن أن يقال عنها أنها " تعبر" عن قالبها [اساسها] الثقافى حتى ولو لم تشر بشكل خاص إلى ذلك القالب . وكما أشار ديوى فإن الفلسفة سواء (أكان ذلك ضمنياً أم صراحة) قد تنظر نظرة تفضيل الي قالبها الثقافى أو قد تكون رد فعل فى مقابل الموقف الذى تم تطويره . إن الفلسفة البرجماتية تعبير عن الثقافة الأمريكية من وجهتين : فهى [أولا] تقوم بتدعيم بعض النواحي المحددة لهذه الثقافة [وثانياً] تقوم بنقد جوانب معينه أخرى منها وهكذا يصدق على جميع البرجماتيين المؤسسين.

---

(8) يمكن ا لرجوع ا لى كتاب « البرجماتية والثقافة الأمريكية »-Pragmatism and American Culture الذى اصدره « جيل كنيدى » Gail Kenndy ويحتوي على عدد من المقالات كتبها البرجماتيون ونقادهم وثبت بالمراجع ويحتوى كتاب هـ . إس ثاير . H . S Thayer « المعنى والفعل » Meaning and action على مناقشة لهذا الموضوع . وهناك كتب أخرى لها علاقة بنفس الموضوع كتبها هربرت شنيدر Herbert W. Schneider منها « تاريخ الفلسفة الأمريكية A History of American Philosophy [له ترجمه عربية بقلم د / محمد فتحى الشنيطى] وكتاب مورتون هوايت Mortion , White « الفكر الاجتماعي فى أمريكا » Social Thought in America وكتاب رايت ميلز Wright Mills « علم الاجتماع والبرجماتية » Sociology and pragmatism

واعتقد بيرس أن الإنجاز السياسي للولايات المتحدة تمثل في اتحادها الإختياري وفي إعتقاده أن هذا يمكن أن يكون أنموذجاً لتطور آخر لشكل المجتمع الانساني (9) . ولكن بيرس كان لاذعاً عندما أدان « إنجيل النهم » Gospel of greed الذى يعّرض أمريكا للخطر ، وفى المقابل عرض « انجيل الحب » Gospel of Love . و رحب جيمس بالنزعة الفردية والتعددية معهاً، ولكنه عارض بوضوح عبادة « إلاهة النجاح The bitch goddess success والسياسة الأمريكية الإمبريالية فى ذلك الوقت . وربما كان ميد أكثرهم تفاؤلاً بنتاج العمليات الناتجة عن العمل فى الولايات المتحدة ، ولكنه كان على وعى كامل بإمكان إعادة البناء الاجتماعى المستمر والمتمثل فى تزايد
p.151 مطلب المثال الديموقراطى : [لذلك] ركز اهتمامه خلال حياته على مثل هذه الكتابات التي تدور حول الاستقرار الاجتماعى The social settlement والرافض ذو الضمير The conscientious objector ، والتعليم الصناعى industrial education ، وتحويل « الإحسان الإجبارى إلى هيئة إجتماعية impulsive charity to social reconstruction. وبينما كان ديوى يمثل الإتجاه البروتاجوراسى المتميز فى الديموقراطية الأمريكية ، كان نقده لملامح كثيرة فى المجتمع الأمريكى الحالى قاسيا إلى أبعد الحدود .

وعلى الرغم من النقد التفصيلى اعتبرت الفلسفة البرجماتية تعبيراً ايجابياً أكيداً لبعض الممارسات التى وقعت فى التاريخ الأمريكى ، بوجه عام فى الديموقراطية عندما يتم النظر إليها وتفسيرها تفسيراً أخلاقياً .

---

(9) أنظر : مقال « رولون ويلز » Rulon Wells « بيرس كمواطن أمريكى » Peirce as an American ، فى كتاب : « منظورات عن بيرس Perspectives on Peirce الذى أصدره « بيرنشتين» R . J . Bernstein

إن الأمريكيين الأوائل الذين اعتبرناهم روّاداً دخلوا أرضا غنية غير نامية كانوا يتمتعون بالثقة في قدراتهم وفي نشاطهم البارع لمجابهة المشكلات التي يواجهونها ، ولبناء مجتمع يتناسب مع تطلعاتهم وأنشطتهم . وإنه لحق أنهم دعموا ثقتهم في أنفسهم وتطلعاتهم ببعض النظريات السياسية والدينية المحددة التي جلبوها معهم من أوروبا . ولكن كان اعتمادهم الرئيسي على أنفسهم كأفراد ، و تدرجوا في حل مشكلاتهم الخاصة . وكمن تفردهم على التركيز على الموقف Situation ، و هذا التفرد لم يستمدوه من ثقافتهم [تراثهم] التي ورثوها .

وعلى الرغم من ذلك فإن ميراثهم السياسي والديني منحهم الثقة، إلا أنه لم يوضح لنا أويبرو سبب ممارستهم الفعلية [التي مارسوها بالفعل] .

وبينما كان جيمس يبارك ينابيع النزعة الفردية بصفة أساسية للممارسات الأمريكية ، كان بيرس وميد وديوى يركزون على الحاجة إلى تشريع اجتماعي للإتجاه البارع والأخلاقي لتلك النزعة الفردية . وبهذه الطريقة أعطت الحركة البرجماتية التعبير الفلسفي لهذه الممارسات [كما أوضحت] والمثل التي لم تصاغ في الثقافة المستوردة من أوروبا. وبهذا المعنى تعتبر البرجماتية p.152
الأمريكية التعبير الفلسفي الإيجابي عن الديموقراطية الأمريكية .

وتناول ميد هذا الموضوع في بحثه الثاقب عن « فلسفات رويس وجيمس وديوى في مكانتها الأمريكية » ، و الكلمات الآتية من الفقرة الأخيرة لهذا البحث ترسم حدود هذا الموقف بطريقة واضحة للعيان : –

« لقد أشرت الى ما يبدو لى أنه من الصفات الهامة للحياة الأمريكية ، الحرية هي الصفة التي تحتوى بداخلها علي بعض القيود الصارمة للغاية ، منها العمل بعيداً عن السياسة والأعمال التجارية المباشرة [التي تتم] آلياً عن

طريق توقير النظام الاجتماعى السابق فى وجوده [على النظام الحالى] والذى يجب أن يحتل مكانه بداخلهم وتلك القيم التى يجب أن يحفظوها. ونشير هنا إلى تلك النزعة الفردية [التى ظهرت] ربما بطريقة غريبة ولكن دون خوف . وقد تجسدت فى أفضل أشكالها لدى وليم جيمس ، حيث صبغها بثقافة وطنية حقيقية . وتوجد الان طريقة واحدة فقط يمكن أن تأتى بها مثل هذه النزعة الفردية لكى ننقدها نقداً بناءاً ، وذلك عن طريق وجود الفرد الذى يحدد غاياته وأهدافه فى عبارات ذات معان إجتماعية يمكن استخدامها . إنك لا تستطيع أن تأتى اليه بعلم الأخلاق من أعلى [ولكنك] تستطيع أن تصل اليه عن طريق أخلاق هي ببساطة ما يطرأ على فعله من تطوير واضح . إننى أعتبر مثل تلك البراعة الواضحة هى المسئوله عن تطويره الثابت وعن التكامل الاجتماعى الذى يحدث فى المجتمع الأمريكى ، وبقليل من القيادة [الواعية] وتقريبا دون أفكار البتة . وليس من الضرورى [هنا] أن نشير الى أن فلسفة جون ديوى التى تصر على صياغة الهدف فى عبارات ذات معانٍ ،هى المنهج المتطور لتلك البراعة الواضحة فى العقل للمجتمع الأمريكى».

هذه هى الكلمات الواضحة ، ورغم ذلك فإننى على ثقه من أن هذا الكتاب ككل بيّن الفلسفة البرجماتية الأمريكية أكثر ما بيّن الضرورة التاريخية لها .

* ملاحق *

1- جون ديوى معلما(*)

P.157 عرّف ديوي فى كتابه الكلاسيكى « الديموقراطية والتربية » (الذى صدر لأول مره عام 1916) الفلسفة بأنها « النظرية العامة فى التربية »(ص 383). فقد تصور ديوي التربية بطريقة فضفاضة ، أعنى باعتبارها « إعادة بناء أو تنظيم أو تجديد الخبرة التى تضاف الى معنى الخبرة ، والتى تزيد من القدرة على توجيه سبل الخبرة اللاحقة »(ص ص 89 , 90) . وبناءاً على هذا المعنى الواسع يمكن تصور ديوى الفيلسوف فى النهاية على أنه معلم . كتب ديوى يقول : " إن عمل فلسفة المستقبل هو توضيح أفكار الناس لمواجهة صراعاتهم الأخلاقية والاجتماعية فيما يواجهون من أيام . فإن هدفها سيصبح إلى حد ما تمكين الانسان من التعامل مع هذه الصراعات(التجديد فى الفلسفة ، ص 26). فمن المؤكد أن ديوى تصور عمله فى حياته الخاصة [فوضعه] فى هذه العبارات ، ومعظم كتاباته الكبيرة تبدو معقوله إذا اعتبرناها محاولة أكيدة لتربية الانسان المعاصر . p.158

واعتاد جيمس توفتس James H. Tufts أن يقول عن " الديموقراطية والتربية " أنه أحسن كتب ديوى . ولقد كانت بالطبع مثل تلك الأعمال الضخمة المتأخرة التى كتبها ديوى مثل « الخبرة والطبيعة » و « الفن كخبرة» و « المنطق نظرية البحث » من أكثر إهتمامات الفيلسوف المحترف . إلا أن لُب هذه النظرية التى جاءت فى كل هذه الكتب توجد فى صورة أسهل فى كتابه « الديموقراطية والتربية » . ويبدو لى أن هذا الكتاب يعرض بطريقة

(*) هذه الصفحات مقتطفة من محاضرة عامة بعنوان « جون ديوى معلماً » ألقيتها فى جامعة شيكاغو فى الثامن من أغسطس عام 1951 .

أفضل من أى عمل آخر وحدة فكر ديوى والدافع الأساسي لحياته .

ويعطينا عنوان كتاب « الديموقراطية والتربية » مصطلحين لثالوث ديوى التصورى ، وقد أوضحت فى المقدمة أن العلم هو الطرف الثالث [للثالوث] .

وتوجد هنا فقرة دالة على هذا الثالوث جاءت فى مقدمة كتابه جاء فيها : -

" تتضمن الصحف التالية محاولة للكشف وطرح الافكار الموجودة فى"
"المجتمع الديموقراطى ، وتطبيق هذه الأفكار على النسق التربوى [ككل] "
"وتشتمل المناقشة على إشارة إلي الأهداف والمناهج البناءه للتربية العامة كما"
" نراها من وجهة نظرنا هذه ، فضلاً عن تقويم نقدى لتطوير نظريات المعرفة"
"والأخلاق التى صيغت فى حالات [أوضاع] إجتماعية مبكرة ، إلا أنها"
"لازالت سارية فى مجتمعات ديموقراطية إسمياً ، فهي تعيق الادراك المناسب"
"للمثال الديموقراطى . وكما سيبدو من الكتاب نفسه ، فإن الفلسفة المذكورة "
"فى هذا الكتاب تتصل بنمو الديموقراطية مع تطور المنهج التجريبى للعلوم"
"والأفكار التطورية فى العلوم البيولوجية ، وإعادة التنظيم الصناعى ،كما أنها"
"تُعنى بالإشارة إلى التغيرات التى وقعت فى موضوع ومنهج التربية الذى"
"يشير إلي هذه التطورات "

ومن هذه الكلمات تتضح لنا مصداقيات ديوى [الآتية] : أنه يقبل فكرة " المثال الديموقراطى " The democratic ideal ؛ ويقبل إتصال الإنسان بالطبيعة
p.159 وهو إتصال واضح فى البيولوجيا التطورية [علم الأحياء التطورى] ؛ ويربط بين قبوله المنهج التجريبى للعلم وبين نمو الديموقراطية ؛كما أنه يقبل مجتمعاً صناعياً ولكنه يعتقد أنه فى حاجة إلى إعادة تنظيم ؛ فضلاً عن نظرته الى التربية ؛ بإعتبارها القوة الرئيسية لإعادة بناء المجتمع الصناعى فى اتجاه المثال الديموقراطى . دعونا الآن نترسم خطى هذا النسق فى أصغر وحداته - system- in

miniature وذلك عن طريق توسيع تصوراته الرئيسية .

إن التركيز على الديموقراطية بإعتبارها مثال ideal له دلالته ؛ انه يعني أن الديموقراطية في فكر ديوى هي أولاً تصور أخلاقي . ففي بحث نشره عام 1888 بعنوان " أخلاق الديموقراطية The Ethics of Democracy نقرأ هذه الكلمات : إن الديموقراطية إجتماعية [أو مفهوم إجتماعي] بمعني أنها تصور أخلاقي ، وقد بنى علي دلالتها الأخلاقية دلاله أدارية Governmental : إن الديموقراطية هي ذلك الشكل من المجتمع ا لذى يُعطى فيه لكل إنسان فرصة .. لكى يصبح شخصاً " . إن ديوى لا ينأى أبداً عن هذا التصور الأخلاقي للديموقراطية بإعتبارها المجتمع الذى يعد فيه الشخص هو المركز - A person centered Society .

وظهر نفس التركيز في كتابه " الديموقراطية والتربية حيث يقول فيه : –

" إذا كانت الديموقراطية لها معنى أخلاقي ومثالي ، فإنه ينتج عن هذا" "المعنى أن يكون لها عائد إجتماعي على الجميع ، وأن تقدم الفرص للجميع " "لتنمية القدرات المتميزة . (ص 142) ، و يقع إدراك أهمية الفروق الفردية " "في الكتاب في الصحف 45 , 87 , 137 , 153). كما أن تقديره لأفلاطون" Plato" وإشارته اليه بإحترام ، واضح في العبارة التالية : – أرسى أفلاطون" المبدأ الاساسى لفلسفة التربية عندما أكدَ على أنه من عمل التربية أن تكشف" "ما يناسب كل شخص ، لكى نقوم بتدريبه عليه كى يتمكن من السيطرة على" "الجانب الممتاز فيه لأن مثل هذه العملية التنموية تتضمن أيضا الوفاء" "بالحاجات الإجتماعية بطريقة متناسقة تماماً ولا يمكن أن يقع خطأ ما في" "مبدأه الكيفي Qualitative ، ولكنه يقع في تصوره المحدود لمجال" الاستجابات الداخلية التى يحتاج اليها المرء من الناحية الإجتماعية ،كما أدت

"النظرة المحددة الى وجود رد فعل ، إلا أنه يبدو غامضا فى إدراكه لتنوع "
"القدرات غير المحدودة الموجودة لدى مختلف الافراد " . (ص 361) . و
نلاحظ هنا أنه ركز على الفرد كأساس ومصدر القيمة داخل النطاق الضيق
لتقاليد الثقافة الرئيسية للغرب .

وتظهر قيمة الابتكارات من خلال تركيز ديوى على العلم ، بينما يعتبر
ديوى العلم أحد الأسباب الأساسية لإضطراب المجتمع المعاصر، كما أعتبره
أيضا الأداه الذهنية الرئيسية التى تمكّن من التغلب على هذه الإضطراب ،
ولكى نكون على يقين فإن هذا [يعنى] أيضا استمرار الأخذ بالتقاليد . وقد
أشار فرنسيس بيكون Francis Bacon إلى هذا الاتجاه [من قبل] ، كما كان
لدى ديفيد هيوم David Hume الرغبه فى أن يمتد المنهج التجريبى إلى
الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية إلا أن ديوى – لكونه يعيش فى حقبة
أصبحت فيها الدراسات السيكولوجية (النفسية والإجتماعية مذاهب كبرى –
أكدّ أكثر من أى مفكر معاصر آخر على دور العلم فى تزويدنا بالمعرفة التى
نحتاج اليها عن الانسان ، وفى تزويدنا بمنهج [يساعدنا] على تناول مشكلات
المعرفة الكبرى . [وبوصولنا] الى هذه النقطة نجد أنفسنا فى خضم الجدل القائم
حالياً لأن مصطلح " العلم " Science ليس فقط اصطلاحاً غير محدد وغامض
ومضطرب ولكنه ، [أيضا] أصبح محتوياً على اتجاهات كثيرة من الإستحسان
أو الإستهجان . وكتب ديوى فى عام 1938 فى كتابه " الخبرة والتربية " ما
يلى : –

" إنني على وعى بأن التأكيد الذى أكدته على المنهج العلمى قد يكون"
"تأكيداً مضللاً ، لانه قد تكون له نتائج محددة عند الأخذ بالوسائل الفنية"
"الخاصة للبحث المعملى فقط كما يسلكه المتخصصون . ولكن معنى التأكيد"

"على المنهج العلمى لا يعنى إلا قليلاً بالنسبة للوسائل الفنية المتخصصة " . (ص 111).

p.161 وفى كتابه « نظرية التقويم » الذي صدر أيضا عام 1938 كان لدى ديوى ما يقوله عن « الاتجاه العلمى » The scientific attitude حيث قال : -

" وفى جانبه السلبى [يقصد المنهج العلمى] ، فإنه يعنى التحرر من ربقة"
"الروتين و التعصب والاعتقاد Dogma ، والتقاليد غير الممحصة والإهتمام"
"الذاتى المجرد SHEER SELF- INTEREST ومن الناحية الإيجابية فهو"
"الرغبة في البحث وفى الفحص والتمييز لكى نصل إلى نتائج على الأدلة "
"[التجريبية] والتى نقوم بجمعها بمشقة لكى تكون جميع الأدلة متاحة"
"لنا (ص 31).

وعلى ضوء مثل هذه العبارات نرى أن تركيز ديوى المبكر على العلم كمنهج أو اتجاه ، والعلم كمعرفة منظمة تتكون من تلك الأفكارالتى ساعدت على إقامة مبدأ التحقيق كمنهج (الديموقراطية والتربية ص ص - 22 24) إذن فموقف ديوي هو « الثورة الكبرى » The Great Revolution فى ا لعلم بإعتبار أن العلم يمكنه من حل مشكلات الناس .

ولا يعنى هذا أن « العلم» يحل المشكلات الإنسانية ولكن يمكن استخدام المناهج العلميـة والمعرفة عن طريق الناس عند حل مشكلاتهم . وكان ديوى محدداً تماماً فى هذه النقطة التى تتفق حقاً مع اعتناقه الروحى للمثال الديموقراطى . ويوضح الفصل الذى ورد فى كتاب « المنطق» بعنوان « البحث الاجتماعى » Social Inquiry هذا النزاع : -

" إن الفرق بين البحث الفيزيقى والبحث الإجتماعى لا يكمن فى وجود أو"
"انتفاء الغاية المصاغة فى عبارات عن النتائج الممكنة.إنها تتألف من"

"الموضوعات القيّمة التى تعمل على تحقيق هذه الأغراض ... وفى حالة"
"البحث الأجتماعى فإن الأنشطة المترابطة تتضمنها العمليات التى تؤديها "
"بطريق مباشر . هذه الأنشطة تدخل فى مضامين أى حل مقترح . إلا أن"
"الصعوبات العملية التي تعترض طريق تأمين طرق التوافق فى الترابط الفعلى"
" وهى [صعوبات] كبيرة [إلا أنها] ضرورية للنشاط المطلوب " (ص 502) .

لقد اعتبرت أن هذا الحديث إنما يأتي وفقا للمثال الديموقراطى ، لذلك فإن البحث الإجتماعي الذي يجري على أشخاص [يواجهون] شئ ما [ويُعد هذا
p.162 الشئ] مشكلة بالنسبة اليهم - يَجب أن يشتركوا هم أنفسهم فى البحث ، ويجب أن يصلوا الى اتفاق بشأن الأهداف والوسائل ، ويجب أن يختبروا بأنفسهم الحل المقترح فى عبارات لها تأثيرات تمس حياتهم وإذا كان ذلك كذلك، إذن فإنه عند قبول المنهج العلمى الذى يتحد مع المثال الأخلاقى للديموقراطية ، فإن العلم عندئذ لا يكون وسيلة فقط لمعالجة [مشكلات] الناس ببراعة (كما فى المجتمع الديكتاتورى Totalitarian society) ولكنه[سيكون أيضا] وسيله يمكن للناس بها أن يحلوا بطريقة أكثر رضاً مشكلاتهم الخاصة سواء الفردية أم الجماعية .

بهذا الفهم لتصورات ديوى للديموقراطية والعلم نعود ، الآن [لنفترض] بإختصار تصوره الأساسي الثالث : التربية . أدرك ديوى أن المدارس تختلف بإختلاف المجتمعات ؛ لهذا فإن المسألة هى أن نجد نوع النظام التربوى المناسب للمجتمع الديموقراطى ، وتنبع اتجاهات ردوده من افتراضاته السابقة الأساسية . فإذا كان المجتمع الديموقراطى واحداً يشترك فيه جميع الأشخاص - طبقاً لمدى قدراتهم - فى [إصدار] قرارات تساعد على تنمية المجتمع ، وإذا كان منهج البحث العلمى هو الصيغة (الشكل) المؤثرة والتى تناسب أكثر الذكاء الذى

أوجده الإنسان لحل مشكلاته ، إذن فإن عمل المدرسة الديموقراطية هو إيجاد أشخاص [يتمتعون] بعقل تجريبي وبالخاصية الأخلاقية التي يمكن لها أن تتعاون مع الأشخاص الآخرين في عمل جماعي [مشترك] يتناسب مع المثال الديموقراطي . ولإيجاد مثل هؤلاء الأشخاص فإن المدرسة تصبح هي الوسيلة الرئيسية لتحويل حالة الإثارة للديموقراطية في اتجاه مثال الديموقراطية باستمرار . فالتربية التي يتصورها هي « تحرير قدره الفرد عن طريق تطويرها على نحو مطرد تجاه الأهداف الإجتماعية » (ص 115) و عمل [التربية] هو « الحفاظ على الاتجاه الخلاّق والبنّاء حياً » (ص 231) لإطلاق الذكاء الانساني والعاطفة الانسانية » (ص 269) .

p.163 دعونا الآن نأخذ في اعتبارنا بعض ردود الأفعال النقدية التي أثارتها فلسفة ديوي في التربية . لقد كانت ولازالت مؤثرة [ولكنها] ليست بالطبع موضعاً للشك . لقد شكلّت مدارس الحضانة والمرحلة الأساسية ، وكانت تمثل قوة أساسية في تنمية تعليم [تربية] البالغين ،كما أثرت على المدارس المهنية والتعليم الفني، ولكن كان لها بالمثل خصومها منذ البداية وحتى اليوم .

وتركز معظم النقد على بعض الممارسات التربوية في مدارس كثيرة رفعت فوقها لواء « التربية التقدمية » Progressive education وكانت كثير من هذه الإنتقادات صحيحة ، ولكن لم يكن [هناك من ناقد] أكثر قسوة في نقده لكثير من المدارس التي استخدمت إسمه من ديوي ذاته . حيث حذر من طرق تطبيق الديموقراطية والتربية والخبرة والتعليم بل وتنصل من مثل هذه الممارسات ، ونستطيع أن نستغني هنا عن التحليلات التفصيلية التي ثار حولها الجدل .

وكثير ما يقال أن ديوي كان كثير التساؤل عن (مكانة] الطالب ودوره

فى إرساء دعائم الأصالة ويجيب ديوى عن هذا التساؤل بما يلى : -

" لقد أقمنا نظرية العقل الحر ونظرية المنهج العقلي لتطبيقهما على" "الجميع بنفس القدره ونحن نأخذ فى إعتبارنا اختلاف الأفراد فى مقدار العقل" "الذى لديهم ... ولكن نظرية العقل بوجه عام نظرية خيالية .. إن ما نحتاج" "إليه هو أن يكون لكل فرد منا الفرص لكى يوظف قواه فى أنشطة ذات معنى" ". ويعني العقل ، والمنهج الفردى والأصالة (وهذه العبارات قابلة للتبديل)" "الكيفية الغرضية The quality of purposive أو الفعل الموحد واذا عملنا" "طبقا لهذا الاقتناع فإننا سنضمن أصالة أكثر من حتى لو على المستوى" "الإتفاقى أكثر مما يوجد الان . ونحن نفرض منهجاً عاماً واحداً مزعوماً لكل"
p.164 "فرد تربى تربية متوسطة من حيث الجودة بوجه عام ولكن باستثناء خاص الى" "حد بعيد. وهكذا فإننا نحمد الصفة المميزة على الكثيرين ونتحفظ على حالات" "نادرة (مثل حالة دارون كما يقال) والتي تصيب بالعدوي العبقريات" النادرة بالفساد (الديموقراطية والتربية" ص ص 200 - 03) .

وهناك شكوي أخرى متكررة وهي أن ديوي ركزا تركيزاً شديداً على النشاط Activity فى ممارساته التربوية المقترحة ، أما كونه ركز على النشاط فإن هذا صادق بالتأكيد ، ولكنه هو نفسه قام بنقد بعض المدارس التقدمية على أساس أن " التأكيد كان متزايداً بدرجة كافية على النشاط بدلاً من التركيز على النشاط البارع أو الخلاق Intelligent activity مما يؤدى إلى مطابقة الحرية على موضوع الإشباع [الأداء] المباشر للدوافع والر غبات " التي يعترض عليها ديوى . (الخبرة والتربية ص 81) . إن النشاط البارع أو الخلاق الذى يدعو إليه ديوى " يختلف عن النشاط الذى لا هدف له باعتبار أنه يتضمن فى الحقيقة اختيار الوسائل - التحليل - Analysis بعيداً عن تنوع الظروف الموجودة - وترتيبها - التركيب - synthesis لكى نصل إلى هدف أو غرض

مقصود المصدر السابق ص 105 - 06) . إن النشـاط البـارع يتطلب نوع من الخيال ، والخيال كما يصرعليه ديوى هو "جزء عادى ومكمل للنشاط الانسانى ". (والديموقراطية والتربية ، ص 277) .

وهناك شكل [آخر من أشكال] النقد له علاقة بنفس الموضوع وهو أن تركيز ديوى على العلم أدى إلى إهمال أهمية إدخال العلوم الإنسانية فى التربية ، مهما كانت الحالة في الواقع ، فإنه لا يبدو فكر ديوى يدعو إلى مثل هذا الأهمال . وتتضمن فلسفة ديوى بحق معنى أصيلاً - مثلما الحال فى فلسفة بيرس وفلسفة هوايتهد - تبلغ ذروتها في مجال علم الجمال . ويعتبر كتاب « الفن كخبرة » [لديوى] هو أحد هذه الكتب التي لها إ سهامات دالة بالتأكيد على علم الجمال والتى صدرت خلال هذا القرن . ويعبّر الموضوع p.165 الرئيسى لهذا الكتاب عن المكانة العالية التى منحها لعلم الجمال كنموذج كامل للخبرة « ومثال الخبرة فى تكاملها » (الفن كخبرة ص 274) . ولا يعد التركيز على علم الجمال تركيزاً متأخراً ، ويتضح هذا الأمر إذا أمعنا التفكير وعدنا إلى عبارته المقتبسة آنفا عن المعيار التربوى بإعتبار أنه المعيار "الذى يضيف [شيئاً] إلى معنى الخبرة ، والذى يزيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة اللاحقة " . فإذا ركزنا علي الجزء الأخير فقط من هذا المعيار فإنه سيكون إجحافاً لديوى ، لأن التركيز على زيادة ثراء الخبرة ، لكى تصل إلى شكل جمالى أو شكل متكامل ، يعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة لنظرية ديوى الفلسفية والتربوية ككل . " نحن نعيش دائما فى الزمن الذى نعيشه وليس فى أى زمن آخر ، وعن طريق استجلاء المعني التام فى كل لحظة حاضرة فقط لكل خبرة واقعة ، نكون على إثرها مستعدون لأن نفعل نفس الشئ في المستقبل " (الخبرة والتربية ، ص 51) . وأشار [ديوى] إلى نفس النقطة في كتابه " الديموقراطية والتربية ص 65 فيقول " يجب الإستفادة من طاقة الخبرة الحالية

على أن تكون غنية وذات دلالة بقدر الإمكان ، وعندئذ فإن الحاضر سيدمج في المستقبل دون أن نشعر ، فنحن نعتني بالمستقبل " . وسنقتبس النص التالي من كتاب « الديموقراطية والتربية » وسنورده على طوله لبيان الدور الكبير للفن في مجال التربية : —

" إن هذا التعزيز للصفات هو الذي يجعل من أي خبرة عادية . وخبرة "
" مغرية ومناسبة وقادرة على الاستيعاب الكامل وممتعة ولبنة أولى للأدب"
"والموسيقى والرسم والتصوير الخ .. في التربية . إنها ليست العناصر "
"الشاملة للتقدير بالمعنى الأكثر عمومية لتلك الكلمة ؛ ولكنها العناصر»
"الرئيسية لتقدير مكثف تم تعزيزه ، وبالمثل فإنها ليست ممتعة بصفة جوهرية»
"وبطريقة مباشرة فقط ، ولكنها تخدم غرضاً أبعد منها هي ذاتها إنه ذلك"
الحكم" "[ولكن] بدرجة متزايدة لكل أنواع التقدير للذوق الثابت . حيث تتكوّن"
p.166 "المعايير من أجل تقدير الخبرات اللاحقة . إنها تثير عدم الرضا في الحالات"
"التى تقع داخل نطاق [قدرتها]على القياس ؛ إنها توجد الحاجة للأشياء"
"المحيطة والتى ترتفع إلى مستواها . إنها تكشف عن عمق واتساع المعنى في"
"مجال الخبرات التي قد تكون متوسطة / وعادية . إنها تمدنا بأعضاء للرؤية. "
"وأكثر من ذلك فإنها تمثل في تمامها التركيز على العناصر التي تستحق المتعة"
"والتي تجعل أية خبرة ممتعة بطريقة مباشرة ، فهي ليست رفاهية التربية "
"ولكنها تعبيرات مؤكدة تجعل من أية تربية شيئاً ذو قيمة " .

(ص ص 278 - 79)

وعندما نأخذ فلسفة ديوي ككل ، فإننا نراها فلسفة ذات توجه قيّمي ، مكرسة لإبراز وتوجيه الخبرة الإنسانية . إن تأكيده على المنهج العلمي ، وقبوله للحضارة الصناعية التى أفرزها هذا المنهج ليس استسلاماً للعلم ،

والتكنولوجيا. لقد كان ديوي أولاً وأخيراً وعلاوة على كل ذلك [فليسوفاً] إنسانياً Humanist ، وكانت حياته كلها عبارة عن محاولة مدعمة لكى يجعل العلم والصناعة انسانين Humaning ، قابلين لتحويلها نحو غايات إنسانية . وكان اساس تفكيرة الثابت هو الاخلاص للنزعة الخلاقة فى الشخص، [وكذلك] للمجتمع الديموقراطى والمدارس الديموقراطية وهو نوع من الإمتداد نحر الاتجاه الأخلاقى الذى يتفاعل من خلاله الأشخاص .

لقد صقلت الأحداث التاريخية منذ صدور كتاب " الديموقراطية والتربية " كتابات ديوى [الأخرى] غير أنها لم تغير من قناعاته ا لأساسية . وقال ديوى فى كتابه الذى أصدر الجزء الأول منه عام 1946 بعنوان " مشكلات الناس " Problems of Men وكذلك فى كتابه « الديموقراطية والتربية » ، معترفاً بأن « الامال التى فكر فيها الناس بنظرتهم الكريمة « أوائل القرن الحالى تقريباً » قد أمكن ملاحظتها بصفة رئيسية من خلال مجريات الأحداث الفعلية التى حدثت فى الواقع ، وبقوة فى الإتجاه المضاد » (ص 23) ومما جعل الطريق الذى اقترحه الإنسان الحديث صعباً إذا اراد السير فيه بوضوح ، تزايد p.167
استخدام الانسان للعلم والتكنولوجيا التى تستعبد الناس ولا تحررهم ، وأن الأيمان بقدرة [الإنسان]على التحكم فى الذكاء الخلاّق قد ضُعف بدرجة كبيرة وخطيرة . إلا أن اعتقاد ديوى الشخصى بشأن الدلالة التى تخللت الديموقراطية والعلم ، والتربية لم يتبدل .

فهو يقول : -

« وليست هناك حاجة لأن نذكر الصعوبات الضخمة التى تقف فى طريق»
«الانتشار من المجال المحدود الى المجال الأوسع للعلاقات الانسانية وهو»
«التحكم فى الذكاء المنظم ، والعمل من خلال تحرير القوى والقدرات الفردية»

«الذي يوجه عبء التاريخ الماضى إلى جانب هؤلاء المتشائمين بشأن إمكانية »
«تحقيق هذه الرغبة الإنسانية والعمل الإنساني الضروري . إننى لا أتنبأ بأن»
«الإنتشار سيكون مؤثراً الى الأبد فى الواقع الفعلى ولكننى أعلن أن مشكلة»
«علاقة السلطة والحرية ، والثبات والتغير ، إذا أمكن حلها ستحل بهذه»
«الطريقة ، إن فشل المناهج الأخرى واليأس من الموقف الحالي سيكونا حجر»
«عثرة أمام البعض لكي يبذلوا ما فى وسعهم للقيام بعملية الانتشار الفعلى»
«إنهم يعرفون قبل المحاولة أن النجاح مستحيلا وأنه يؤدى الى اتهام »
«الإنسانية بالتأرجح التافه والمدمر بين القوة السلطوية وبين الحرية الفردية»
«غير المنظمة والتى نعزو اليها اسهامها فى معظم الآلام وهزائم الماضى إن الموقف اليائس جداً كما فى هذه [المحاولة] يعد حجر» «عثرة فى طريق مساندة المجهود الشجاع ».(ص ص 109- 10) .

لقد كتب ديوى هذا عندما كان في السابعة والسبعين من عمره ، [ونلاحظ] أن ايمانه بقدرة الذكاء ، والعاطفه والنزعة الخلاقة فى الإنسان لم تتغير .

٢ - علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية *

p.168 تخيل جون ديوى عام 1920 في كتابه « التجديد في الفلسفة » Re-construction in philosophy أن « العمل الذهنى فى القرن العشرين ، فيما يتعلق بالعلم الحديث هو كما يلى : –

« لقدّ أكدّ القرن السابع عشر بإختصار على تطبيقه فى مجال الفلك"
"والكوزمولوجيا العامة ، والقرن الثامن عشر فى مجال الفيزياء والكيمياء ،"
"والقرن التاسع عشر أخذ علي عاتقه التطبيق فى مجال الجيولوجيا والعلوم"
"البيولوجية » .

(*) هذه المادة العلمية جزء من بحث طويل كتب عام 1964.

ولكنه فى الوقت الراهن استمر على النحو التالى : -

« يجب أن تتكون الأفكار الجديدة والمناهج المحلية فى مجال الحياة»
«الأخلاقية والإجتماعية فهل سيؤخذ على عاتق العمل الذهنى خلال القرن»
«العشرين القيام بهذه الخطوة الاخيرة ؟ عندما تؤخذ هذه الخطوة فإنه ستكتمل»
« حلقة التطوير العلمى ، ويتم التجديد فى الفسلفة » . (1) .

p.169 وكرر وجهة نظره هذه في مقدمة طبعة كتابة « التجديد في الفلسفة» عام 1948 حيث أكّد علي دور الفلاسفة في القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر فى توفير " المناخ الفكرى " Climate of opinion الملائم لتأييد البحث العلمى في العلوم الفيزيائية . وعبّر عن إقتناعه بأن الفلاسفة لديهم الآن " الفرصة و التحدى لأن يعملوا عملاً مشابهاً فى مجال البحث الأخلاقى مستقبلاً " (2) .

ويتضح من هذه العبارات المقتبسة أن ديوى كان يفكر فى إنتشار الافكار العلمية التقليدية والمناهج الخاصة بدراسة الإنسان ، ولا مشاحة فى أن العلوم الإنسانية تحتاج لأن تبدأ من مناهج علمية فريدة . ومن الواضح أيضا أن ديوى لم يكن يتوقع ظهور علم وصفى للإنسان فقط ، ولكنه توقع أن تتقدم العلوم الانسانية أيضا فى مجال " البحث الأخلاقى " Moral inquiry ، ومن ثم يصبح لها صلة بالجانب المعيارى normative ، وأخيراً إذا لم تكن العبارات المقتبسة واضحة ، فإنه من المؤكد أن ديوى كان يقصد أن يرتكز علم الإنسان الذي يتصوره على الواقع الفعلى وعلى الفعل والسلوك .

لقد ساعدت البرجماتية فى إيجاد مناخ مناسب لمثل هذه التطورات فى

---

(1) جون ديوى ، " التجديد فى الفلسفة " ، طبعة 1920 ، ص ص 75 - 76 .

(2) المصدر السابق ، طبعة 1948 ، ص xxxv . وأنظر أيضا ص xxiii

مجال الفكر Opinion وقال ديوى فى ملاحظة له " إن مناخ الفكر أكثر أهمية من موضوع الأفكار ذاته ، إنه موضوع يمس العادات الثقافية التى تحدد الفكر فضلاً عن [تحديدها] للإتجاهات العاطفية والإرادية " (3) ، وتعبر البرجماتية عن الإتجاهات العاطفية والأرادية والذهنية التي هيمنت على تطور العلوم السلوكية في الولايات المتحدة .

وتأثر بعض المفكرين الأوائل ، وعلى وجه الخصوص فى القارة الأوربية تأثراً كبيراً جداً بالدور [الذى قامت به] الرموز Symbols ، والقيم Values فى الحياة الإنسانية والتى جعلت هناك هوة سحيقة للغاية بين العلوم «الطبيعية » Natural و " الثقافية " Cultural وبين المناهج المستخدمة فى p.170
هذين المجالين من الدراسة . وكانت تقف خلف وجهات نظرهم [أرائهم] ثنائية فلسفية هي فى الغالب ثنائية بين العقل والجسم ، والروح والطبيعة ، والفهم و المعرفة . إن مثل هذه الثنائية لم تظهر فى الفلسفة البرجماتية ، وربما كان هذا أحد الأسباب التي لم يجعلها تبدو أنها تتناول مشكلات أساسية لدي علماء النفس والإجتماع الأمريكيين .

علي الرغم من ذلك فلم يكن البرجماتيين ردِّيون* Reductionists أبداً ، ولا يوجد شئ فى تناولهم يتطلب إنكار إن الفعل الإنسانى يحتوى على تعقيد ما ، بل إنهم حاولوا أن يتناولوا الدور الرئيسى المسموح به [والذى] تقوم

---

(3) المصدر السابق ، طبعة 1948 الموسعة ، ص xix

(*) النزعة الردِّية (الإرجاعية) Reductionism نزعة تري إمكانية رد الظواهر العليا إلى الظواهر الدنيا " الأساسية " وهى تقوم على الإعتراف بإمكان وجود مراتب معينة لميادين الواقع (بدءاً من مستوى الوقائع الأولية ، مثلاً ، وانتهاء بمستوى الكائنات الحية و المجتمع البشرى) .

المعجم الفلسفى المختصر ، دار التقدم ، موسكو ، 1986، مادة الردِّية ، ص 238 [المترجم] .

فيه الرموز والقيم بدور في الحياة الانسانية وذلك [باستخدام] مصطلحات سلوكية . والكتابات هنا بالتأكيد معقدة ، غير أن العلماء السلوكيين يدرسون الان بلا تردد الحياة الرمزية والتقويمية للإنسان بإستخدام مصطلحات سلوكية في جانب منها بإعتبارها أنها تعود لمناخ الفكر الذى طوره البرجماتيون ، وفى جانب آخر بإعتبار أنها راجعة للتحليلات التى أسسها البرجماتيون أنفسهم .

والأن أحب أن أقدم بعض المعلومات لكى نبين أن بيرس وجيمس وميد وديوى نشروا تأثيرهم الهام فى الواقع على العاملين الأمريكيين فى مجال العلوم السلوكية . وقد أرسل استبيان بسيط بين الزملاء العاملين في مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية ، يغطى السنوات 1954 - 55 وحتى 1962 - 63 ، فضلاً عن علماء الإجتماع والنفس ، و شملت عضوية المنتسبين الي المركز بعض الفلاسفة ، والرياضيين والاحصائيين ، والبيولوجيين ، والمحامين ، والتربويين ، ونقاد الأدب وقليل من العاملين فى التخصصات الآخرى .

تم إرسال عدد 335 إستمارة استبيان إلا أنها لم يشتمل على الفلاسفة و p.171 الزملاء الذين يعملون خارج الولايات المتحدة ، ومعظمهم - وليس جميعهم ممن يسمّون أنفسهم علماء نفس سلوكيين ، وشملت المعلومات الأساسية المطلوبه مجال عملهم الرئيسى ، وسواء أكان المفحوص قد تأثر بطريقة ما ، بيرس ، وجيمس ، وميد أو ديوى ، واذا كان قد تأثر فبأيهم تأثر بواحد أو أكثر ، وإذا كان مدرسو المفحوصين قد أظهروا تأثراً هاماً بأحدهم أو بأكثر من الرجال الأربعة، وكانت الدراسة غير رسمية ، حتى أن عدداً قليلاً منهم فى الواقع كتب أنهم لايرغبون فى أن يشتركوا فى هذا الإستبيان على الرغم من ذلك فإن النتائج الرئيسية كانت شيقه وذات صلة بأهداف البحث .

وقد سلّم 52 % من المفحوصين بالتأثير الهام عليهم لواحد أو أكثر من

البرجماتيين الأربعة ، وكانت نسبة التأثيرات الهامة كالآتى : ديوى (53) ، ميد (50) ، جيمس (36) ، بيرس (21) . وتم تصنيف المفحوصين طبقاً للمجموعات الآتيـة : علم النفس (48) ، الأنثروبولوجيا [علم الانسان] (29) ، العلوم السياسية (27) ، الإقتصاد (27) ، علم الإجتماع (26) ، التاريخ (15)، اللغويات (6) . أما بقية عدد المفحوصين الآخرين وهم 32 مفحوصاً فقد وضعوا عبارة واحدة مجموعة المتنوعات Miscellaneous

وباستقراء مجالات الدراسة فقد تم وضع حجم التأثير الهام للواحد أو أكثر من البرجماتيين الأربعة كالآتى : علم الاجتماع (85%) ، اللغويات (67%) علم ا لنفس (60%) ، الأنثروبولوجيا [علم الانسان] (55%) ، المتنوعات (43%)، العلوم السياسية (41%) ، التاريخ (33%) ، الإقتصاد (30%) ، وقد اعتبرت علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والنفس لب العلوم السلوكية فى الغالب وعليهم (وعلى مجموعة صغيرة من اللغويين كان التأثير البرجماتى عظيماً .

p.172 وأجاب حوالى 52 %من المفحوصين بأن واحداً أو أكثر من مدرسيهم قال أن و احداً أو أكثر من البرجماتيين الأربعة كان له تأثيرا هاماً عليهم أثناء فترة الدراسة . ومما هو جدير بالملاحظة أنه توجد علاقة حميمة بين تأثير المفحوص تأثيراً هاما بواحد أو بأكثر من البرجماتيين فضلاً عن تأثر مدرسه أيضا . وهكذا فإننا نجد فى 73% من الحالات إذا أحيط المفحوص علماً بأن هناك تأثيراً هاماً لأحد البرجماتيين عليه ، فإنه يقرر أن مدرسيه قد أعلنوا أنهم تأثروا بنفس التأثير ، وإذا أنكر المفحوص وجود التأثير الهام عليه فإنه يقرر أن مدرسيه ينكرون [مثل] هذا التأثير .

ولم يذكر 27 % من المفحوصين ومدرسيهم وجود أية تأثيرات هامة للمفكرين البرجماتيين عليهم .

و أشارت هذه النتائج إلى أن بيرس وجيمس وميد وديوى كان لهم تأثيرات ملحوظة على العلماء السلوكيين أنفسهم ، حيث كانت عينات كثيرة من العلماء السلوكيين من طلبة العلم اليافعين ، ولم يكن التساؤل عن التأثير مجرد تساؤل فى فترة تاريخية محددة بأنه استمر حتى اليوم .

ومن الضرورة البالغة أن نضيف أن هذا التنافس لا يناقض عبارة روبرت ميرتون فى [كتابه] « العلوم السلوكية الحديثة » The Behavioral Sciences Today من أن جذور العلم الإجتماعى والسيكولوجى المعاصرة "بدأت أولا في أوربا وليس فى الولايات المتحدة "(4) ، وذكر ميرتون فى هذا المقام [على سبيل المثال روّاد علميّ الاجتماع والنفس] ڤيبر Weber(*) ودوركيم Durkheim(**) وفشنر Fechner(***) وباڤلوف Pavlov(****) .

---

(4) أنظر: " العلوم السلوكية الحديثة " The Behavioral Sciences Today أصدره برنارببريلسون Bernard Berelsan . ص 250

(*) ماكس ڤيبر (1864 - 1920 عالم اجتماع (سوسيولوجى) المانى ، مذهبه قريب من الكانطية الجديدة والوضعية ، من مؤسسى علم الاجتماع المعاصر . من أشهر مؤلفاته " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " و " الإقتصاد والمجتمع " [المترجم] .

(**) إميل دوركيم (1858 - 1917) عالم إجتماع فرنسى وضعى ، يعتبر زعيم المدرسة السوسيولوجية الفرنسية من أشهر مؤلفاته " فى تقسيم العمل الإجتماعى " و " ا لأشكال البدائية للحياة الدينية " [المترجم] .

(***) جوستاف تيودور فشنر (1801 - 1887) مؤسس علم النفس الفزيائى ، تأثر بفلسفة شيلنج الرومانتيكية عن الطبيعة دافع عن المثالية " الكلية " مقابل المادية . [لمترجم] .

(****) ايڤان باڤلوف (1849 - 1939) عالم النفس الروسى الشهير واليه يرجع الفضل فى إكتشاف طريقة التعلم بالأشتراط الإستجابى وذلك عن طريق تجاربه على الحيوانات خاصة الكلاب .

وجالتون (*) Galton وفرويد(**)Freud وآخرين ، وتحدث عن كتّاب أخرين فى نفس الكتاب وبنفس الأسلوب Vein ، وقد اشار البرجماتيون الأمريكيون إشارة بسيطة حقاً إلى الملاحظات التاريخية العرضية التى تقع فى هذا الكتاب .

p.173 بالطبع لم ينشأ علم النفس والعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة ، ولا يوجد ما يشير فى هذا البحث الى أن الدراسات الأمريكية في هذه المجالات كانت مجرد فروع بسيطة فى الفلسفة البرجماتية الأمريكية . كما لا توجد حتى مجرد إشارة الى أن التركيز السلوكى والفعلى فى الدراسات الأمريكية عن الإنسان نشأت فقط من مصادر أمريكية (5) .

أما التنافس الحالى فيكمن ببساطة فى أن الفلسفة البرجماتية الأمريكية

(*) فرنسيس جالتون Francis Galton (1822 - 1911) .عالم أحياء الجليزى ، يعتبر مؤسس علم اليوجينيا الخاص بالنسل . (المترجم] .

(**) سيجموند فرويد Sigmund Freud (1856 - 1939) : طبيب وعالم نفس نمساوى ، يعزى اليه تأسيس نظرية التحليل النفسى الذى أمكن بواسطتها تفسير كثير من الأمراض النفسية ، ومن أشهر مؤلفاته « تفسير الأحلام » و « التحليل النفسى » و « الطواطم والتابو » وغيرها . [المترجم]

(5) وقد نظر كل من تالكوت بارسونز Talcott Parsons وفلوريان تزنانيكى Florian Znaniecki إلى علم الاجتماع على أنه علم دراسة ا لأفعال الإجتماعية ، وقد مهد لهم المفكرون الأوربيون الطريق الذى قاما بتطويره ولم يرجعا فى كتاباتهما الى مصادر البرجماتيين أنظر : كتاب تزنانيكى « الأفعال الاجتماعية » Social Actions(1936) وكتابه بارسونز " تكوين الفعل الاجتماعى " (1937) ، The structure of social Action بينما مات ميد عام(1931) ، إلا أن تأثيره ظل واضحاً على علم الإجتماع الأمريكى .

لها تأثير قوي على التوجه السلوكى فى علم النفس والعلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، تاره بتهيئة مناخ الفكر الملائم لمثل هذا التوجه، وتارة [أخرى] بتزويدنا بالتحليلات الخاصة الفعلية وعمليات العلامة ، والقيم، وعملية التقويم والتى ساهمت بنفسها فى كل من البرنامج ومحتوى العلوم السلوكية المعاصرة .

3 - مدرسة شيكاغو (*)

p.174 سيتم مناقشة مدرسة شيكاغو البرجماتية على جزئين الجزء الأول : نظرة عامة على السمات المميزة لهذه المجموعة من الفلاسفة البرجماتيين ، والجزء الثانى يتناول بعض تفاصيل السنوات الأخيرة لهذه المجموعة [والتى عشتها بنفسى] عندما كنت طالباً فى جامعة شيكاغو اعتباراً من خريف عام 1922 وحتى صيف عام 1925 .

الجزء الأول

أطلق وليم جيمس عبارة " مدرسة شيكاغو " The chicago school على
p.175 المفكرين البرجماتيين فى جامعة شيكاغو، وأشار جيمس فى خطبة رئاسية له Presidential Address القاها فى 17 أكتوبر عام 1903 عن جون ديوى [قال فيها] " إن مدرستك (أعنى مدرستك الفلسفية) فى جامعة شيكاغو "[1] وكانت مدرسة شيكاغو ، هى عنوان مقال لجيمس عام 1904 دار حول كتاب « دراسات فى النظرية المنطقيـة » Studies in Logical Theory الذى شارك

(*) هذه المادة هي جزء من بحث ألقي كخطبة رئاسية أمام الجمعية الفلسفية فى فلوريدا فى 4 نوفمبر عام 1966 ثم ظهرت حديثاً مزيدة فى كتاب دارنل روكرDarnell Rucker عام 1969 بعنوان « برجماتيو شيكاغو » The Chicago Pragmatists وكتب ڤان ميتر آمز Van Meter Ames المقال الافتتاحى لهذا الكتاب . وهو مقال مفعم بذكريات تلك الفترة عندما كنا طلابا في جامعة شيكاغو ، و ظهرت في مجلة « تاريخ الفلسفة » The Journal of the History of Philosophy فى يوليو عام 1970 .

(1) النص مقتبس من كتاب « بيرى R . B . Perry» فكر و شخصية وليم جيمس » . المجلد الثانى ص 524 .

ديوي فى كتابته وظهر عام 1903 واستخدم تشالز بيرس أيضا عبارة « مدرسة شيكاغو» فى مقال له عام 1904 فى نفس الكتاب «الأمة» The Nation (2) .

وقد نشر كتاب « دراسات فى النظرية المنطقية » كجزء من المنشورات التى تصدر كل عشر سنوات The Decemial Publications لجامعة شيكاغو ، وكانت الأبحاث الفلسفية المستقله الأخرى فى السلسلة هى « الوجود والمعنى والواقع فى كتاب المقال للوك » * Existence, Meaning and Reality in Locke's Essay وبحث نظرية المعرفة الحديثة Present Epistemology كتبه » اديسون مور Addison W . Moore وبحث « تعريف ما هو نفسى » The Definition of the Psychical لجورج هربرت ميد وبحث آخر بعنوان « في أصل مقولات علم الجمال » On The Genesis of the Aesthetic Categories لجيمس توفتس ، وبحث هام بعنوان الشروط المنطقية للمعالجة العلمية للقوى النفسية » Logical Conditions of a Scientific Treatment of Morality لجون ديوى . كانت هذه الكتابات التى أشارت إلى وجود « مدرسة شيكاغو والتى على أساسها أطلق عليها جيمس هذا الإ سم .

كوّن هؤلاء الرجال ديوى وميد ومور وتوفتس مع إدوار سكريبز آمز مدرسة شيكاغو وهم من الفلاسفة البرجماتيين . ولقد كان كل من الفلسفة وعلم النفس فى السنوات المبكرة الأولى غير منفصلين [لذلك] فقد كان عالم النفس جيمس رولاند انجل James Rowland Angell عضواً هاماً فى تلك الجماعات المتعاونة معاً وقام بنشر مقال له بعنوان « علاقة علم النفس الإنشائي والوظيفى بالفلسفة » ضمن النشرات التى كانت تصدر كل عشر سنوات .

---

(2) أعيد نشر المقال فى« مجموعة أبحاث تشارلزساندرز بيرس » المجلد 8 الفقرات 188 - 190

(*) الإشارة إلى كتاب لوك « مقالات فى الفهم [العقل الفعّال] الإنسانى . Essays in Human Understanding صدر عام (1690) [المترجم] .

وهناك عدد آخر من الأشخاص تعاونوا معاً في كتاب « الدراسات » ظهرت في كتاب النظرية المنطقية منها « الذكاء الخلاق » Creative Intelligence ولكن على أية حال يمكن أن نقول أن ديوي وميد ومور وتوفتس وآخرين كانوا خير من يمثلون « مدرسة شيكاغو » وكان ديوي هو رائدها دون منازع .

p.176 كان توفتس موجوداً في جماعة شيكاغو عند افتتاحها عام 1892، وكان من قبل في جامعة ميتشيجان Michigan ، وكان زميلاً لديوي في قسم الفلسفة ، واقترح توفتس على رئيس الجامعة [في ذلك الوقت] وليم ريني هاربر William Rainy Harper أن يعين ديوي رئيساً للقسم ، وتم ذلك في عام 1894 ، وعيّن ديوي زميليه في ميتشيجان ميد وأنجل الذي كان تلميذاً لديوي وميد في ميتشيجان ، وحصل كل من مور وآمز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو ، وظل ديوي في جامعة شيكاغو حتي عام 1904 عندما انتقل منه الى جامعة كولومبيا Columbia (3) .

ولكن ما هي السمات الفكرية المشتركة لهؤلاء الرجال حتى أنهم قاموا بتكوين مدرسة متميزة ؟ لقد تم القاء الضوء على هذه السمات في هذا الكتاب خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا مثل هذه العلاقات المبكرة لديوي وجيمس وبيرس * .

وتحمس جيمس في مقاله الذي نشره في كتاب « دراسات في النظرية

---

(3) أخذت المادة العلمية لهذه الفقرة من المقال الثمين الذى كتبه جورج ديخويزن George dy Khuizen بعنوان « جون ديوى : سنوات شيكاغو John Dewey : The chicago years . كما أنني مدين أيضا لهذا المقال بعدد من الأفكار : هناك مقال آخر صاحب ظهور المقال الأول بعنوان : « جون ديوى في شيكاغو : بعض الملاحظات الذاتية John Dewey in chicago : Some Biographical Notes ، وهو مقال له صلة بالظروف التي أدت إلى إستقالة ديوى من جامعة شيكاغو .

(*) حذفت الصفحات الخاصة ببيرس ، حيث تمت مناقشة العلاقة بين بيرس وديوى في متن الكتاب (1969) .

المنطقية » وقال فيه : « إن هذه المدرسة تستحق حقاً وصفها بأنها نسق جديد في الفلسفة » ؛ فإذا كانت صادقة فضلاً عن أصالتها ، فإن ظهورها يجب أن يعد حدثاً هاماً . إن الناقد الحالى لها يظن بقوه أنها صادقة بالفعل [وهو يقصد هنا مدرسة شيكاغو بالطبع] .

واتفق جميع مؤلفى هذا الكتاب في مقدمته على وجود « روابط بين النظرية المنطقية وعلم النفس الوظيفى » وأعلنوا أنهم ملتزمون التزاماً واضحاً مسبقاً .. [بأراء وليم جيمس » وكتب ديوى لجيمس رداً على مقاله قال فيه :

- « وعلى قدر إهتمامى فليس هناك إلا أن أشير إلى المصطلحات المنطقية والتى استخدمتها أنت من قبل » .

p.177 وعلى الرغم من أن جيمس قام بالتأكيد بدور فعال فى الحركة تجاه علم النفس الوظيفى ، فإن معظم ما قام به في علم النفس يكاد أن يوصف بأنه [علم نفس وظيفى على سبيل المثال فإن علماء النفس الظواهرى Phenomen-ological psychologists اليوم يجدون الكثير عند ميلهم نحو « مبادئ علم النفس » لجيمس ويعتبرونه عملاً ظواهرياً بصفة أساسية يفوق فكر جيمس الوظيفى والبرجماتى (4) وقد ظهر مقال جيمس الوظيفى المتميز « هل الشعور موجود ؟ » ?Does conscious exist عام 1904 بعد كتاب « دراسات فى النظرية المنطقية » ومقال ميد الثاقب « تعريف ما هو نفسى » .

ويجب ألا ننسى من ناحية أخري أن ديوى كان هيجلياً صريحاً ، وكان تأثير هيجل وتابعيه [واضحا] على المساحة الكلية للظاهرة الثقافية ، وكان التوجه نحو العملية الاجتماعية علي الرغم من أن السمة المؤقتة للتطور

(4) أنظر علي سبيل المثال مقال آرون جورفتش Aron Gurvitch « مجال الوعي » The Field of Consciousness المترجم عن مقال بنفس العنوان بالفرنسية وهو ما ترجم عنه : The'orie du champs de la conscience.

الإجتماعى كانت قد قوضت تماماً عندما قالت بنظرية المطلق The absolute . واستمر ديوى فى هذه العملية التى طورها مما يمكن وصفه بالمثالية الثقافية الهيجلية الي النزعة الطبيعية الثقافية . وكان اهتمام ديوى الرئيسى أهتماماً أخلاقياً وساعده ظهور علم النفس الوظيفى (ثم السلوكي بعد ذلك) بصفة رئيسية على إيجاد مصطلح جديد يعبر به عن الإتجاه الذي اتجه اليه بالفعل عندما قام بتحليله الأخلاقى . وذكر ميد أن كتاب جيمس مبادئ علم النفس » لم يكن هو نقطة البدء عند ديوى وقال : « انتقل ديوى من موقعه المثالى عن طريق التحليل النفسى إلى الفعل الأخلاقى » . وطبقاً لرأى ميد فى كتاب ديوى « موجز النظرية النقدية للأخلاقية » Outlines of a critical Theory of Ethics الذى صدر عام 1891 وأشار فيه إشارة بسيطة لجيمس « لقد وجدنا أن الإرادة والفكرة و النتائج جميعاً قد وضعت فى الفعل ، والفعل نفسه قد
p.178 وضع فقط داخل النشاط الأكبر للفرد والمجتمع » . وهكذا اتصل فكر ديوى بفكر جيمس بأيسر اتجاه وهما مازالا فى بداية الطريق .

لقد كان إهتمام ديوى الأساسى بالأخلاق وكان إهتمامه المبكر هو [محاولة] تطبيق المنهج العلمى على المسائل الأخلاقية ، مما أدى به الى تحليل الفعل الأخلاقى وإلى دراسة نوع البحث المناسب لمواجهة المشكلات الموجودة فى مثل هذا الفعل . ولائمت حركة جيمس نحو علم النفس الوظيفى ونظرية بيرس في البحث هذا الاتجاه المستقل فى فكر ديوى ، وخدم [هذا الفكر] واعتبر عناصر [أساسية] لتقدمه بعد أن استطاع تخطى التأثير الهيجلى المبكر الذى بدأ ديوى دراساته الأخلاقية وهو واقع تحته وأعطى تطور ديوى بدوره لمدرسة شيكاغو البرجماتية تأكيداً اجتماعياً وأخلاقياً متميزاً يختلف عن التوجة الفردى لبرجماتية جيمس وتوجه التحليل المنطقى فى برجماتية بيرس .

الجزء الثاني

نعـود الآن إلى بعض خصـائص مدرسـة شيكاغـو البرجمـاتيـة كمـا كـانت موجودة في السنوات من 1922 وحتى 1925 .

استـقال ديوى احـتجـاجاً على موقف قسم التربيـة ، وبدأ فـترة أخرى من عـمله في جامـعة كولومبيـا ، ومع ذلك ، كان تأثيره العقلي مازال عظيـمـاً في محيط جامعة شيكاغو، وكان قد أصدر في ذلك الوقت - فضلاً عن كتاباته التي ذكرت من قبل -« مقالات في المنطق التجريبي » (1916) و « الديموقراطية والتربية » ، (1916) و « الذكاء الخلاّق » (1917) حيث كان هو المؤلف والناشر p.179
معاً ، و « التجديد في الفلسفة » (1920) .

وقد كان موجوداً هناك أثناء فترة الدراسة كل من أديسـون مور وجيـمس توفتس وادوارد سكريبنر آمز وجورج ميـد ، وكانوا جميعـاً متعـاطفون مع اتجاه فكر ديوى . وكان ديوى نفسه يصول ويجول في جميع مجالات الفلسفة ؛ وركز مور على النظرية المنطقيـة (بمعنى ديوى الإصطلاحى)، وركز توفتس على علم الأخلاق والنظرية السياسية وعلم الجمال في عمله ، بينما ركز آمز على الفلسفة وعلم النفس الديني، وأكمل ميد في ذلك الوقت بصفة أساسية عمله الفلسفي في مجال علم النفس الإجتماعي مع إشارة خاصة الى موضوعات العقل والنفس .

كوّن هؤلاء الرجال مدرسة بالمعنى الضيق جداً لهذه الكلمة ، وكانوا جميعاً يمثلون اتجاهات مدروسة لموقف فلسفي [معين] اتخذوه إطاراً للعمل بوجه عام . وشجعهم على ذلك مجهودهم الفردى مما ترك تأثيره على المحاولات الشاملة والنسقيـة لديوى ذاته ، فهم ليسوا مجموعة من الحواريين Disciples تمـامـاً ولكنهم كانوا مجموعة من المفكرين البّنائين ارتبطوا متعـاونين لبناء صرح

فلسفي . وأنا لا أعتقد فيموجودة مدرسة مقارنة في الفلسفة في الولايات المتحدة بهذا المعني ، وقليلة هي ، إذا كانت مجودة حقاً ، في تاريخ الفلسفة .

ولم يعتمد برجماتيو شيكاغو فيما بين 1922 - 1925 أعمال ديوى كنواة لموضوعات محاضراتهم وتعليقاتهم . حقاً لقد كان قليل من الدروس المقررة على الطلبة من كتابات ديوى ومناقشات قليلة عن ديوى في قاعات محاضراتهم (فيما عدا دروس الأخلاق الإلزامية حيث استخدمت فيها «أخلاق » ديوى وتوفتس كنصوص ، وفي ندوة مور التي سنشير اليها) .

p.180 وقد كان طلاب قسم الفلسفة في تلك السنوات على وعى تام بها [مدرسة شيكاغو] كمدرسة بالمعنى الفضفاض حتي لهذه الكلمة وقد يشعر القارئ المتأمل لكتابات مور وتوفتس وآمز وميد أنهم كانوا عُمالاً يشيدّون صرحاً واحداً ، ولكن لم يكن ذلك سهلاً في قاعات المحاضرات لقد كانوا جميعاً مدرسين ممتازين وكانوا يعدلّون في الموضوعات المختلفة المعقدة وينوعون في الفكر الوليد . وعلى الرغم من عدم وجود دعاية كافية لهم إلا أنهم كأساتذة مرموقين كانت لهم قناعاتهم الخاصة التى إعتمدوا عليها في اعلانهم [عن أنفسهم] . وكان هناك تعريف محدود بهم في حالة ما إذا كنا نتحدث « حركة برجماتية » عامة . ولم يكن إسم ديوى فقط هو الذى إستخدم بقلة نوعاً ما في محاضرات عديدة ، ولكن لم تكن هناك غير إشارات نادرة إلي جيمس ، وورد ذكر بيرس مرة أو مرتين بالكاد . كما أنني لم أحصل على أية مقررات مكتوبة ومحددة لكل من جيمس أو بيرس . وأذكر أنه كان هناك مقرر واحده فقط محدد لديوى ، وعلى الرغم من ذلك فقد كلفنا بكتابة العديد من الأبحاث عن ديوى في الندوات، ولم يكن هناك من أثر في أي مكان [آخر] عن المذهب البرجماتي .

وعلاوة على ذلك ، فإن أعضاء هيئة التدريس فى ذلك الوقت كانوا يضمون ادوين بورت Edwin A. Burtt وسميث T . V . Smith ، وتعرّف الطلبة على الأفكار الفلسفية المختلفة من خلال الزوار الذين كانوا يحضرون خلال فصل الصيف ، وغالباً ما كانت أفكاراً عن أراء. نقدية تماماً عن البرجماتية وخلال سنوات دراستى كطالب عملت بهذه الطريقة [النقدية] مع رايت W.K.Wright وموريس كوهين Morris Cohen وواتس كاننكهام G . Watts Cunningham وسى ، آى . لويس C . I . Lewis .

و على الرغم من ذلك فقد ظهر توجه ديوى الوظيفى النشط نفسه بعدة وسائل ، ومع وجود استثناءات قليلة ، فقد كانت مقررات القسم مقررات تاريخية فى توجهها ، وغالباً ما كان فكر الفيلسوف المعنّى ذا علاقة بمشكلاته [التي يثيرها فى فلسفته] يتم الإشارة إليها فى موضعها التاريخى أكثر مما تكون محاضرات مستقلة فى العادة يتم تدريسها فى محاضرات دروس الفلسفة .

p.181 وفي الفترة المعاصرة والقريبة من المعاصرة كان التركيز الأكبر فى تلك السنوات أكبر على الفلاسفة المثاليين أمثال فرنسيس برادلى Francis Bradley وبرنارد بوزانكيت Bernard Bosanquet ، ولم يلق الفلاسفة الواقعيين إلا عناية قليلة - فعلى سبيل المثال أهمل برتراندرسل تماماً فيما عدا بعض الحلقات الدراسية [الندوات] العارضة - وبقدر ما كان هذا التركيز على الفلاسفة المثاليين كان هناك غياب للمقررات الدراسية المقارنة ذات الصلة بموضوعات التخرج مثل الميتافيزيقا وفلسفة العلم والمنطق الرمزى .

والأن أعود إلى بعض الملاحظات عن مور وتوفتس وآمز وميد وقد اعتمدت بصفة رئيسية على ملاحظاتى المستمدة من قاعات المحاضرات ، وعلى

حواراتى معهم ، وعلى الكلمات التي كانت تلقي فى المناسبات التذكارية التى عقدت لتكريمهم .

أ- أديسون وبستر مور

Addison Webster Moore

التحق مور بجامعة شيكاغو لكى يكون « حوارياً » لديوى ، فمن الواضح أن جاء من كورنيل Cornell عام 1894 ليدرس على ديوى ، وكان موجوداً فى أول حلقة دراسية (سمينار) لديوى . كما كان العضو الوحيد فى جامعة شيكاغو الذى نشر بحثاً فى كتاب « دراسات فى النظرية المنطقية » وكتب جيمس خطاباً لديوى أبدى فيه تحمساً لبحث مور عن « الوجود ، والمعني، و الواقع » ورد عليه ديوى بكثير من الكرم الزائد قائلاً له أن مور أعطى أكثر مما أخذ . ومع ذلك فإن مور بالتأكيد لم يؤثر أبداً على ديوى كما فعل ميد بصورة أساسية ، وكان دوناً عن الجماعة أقرب إلى أن يكون شارحاً ومدافعاً عن موقف ديوى . وقد كتب هذا فى كتابه « البرجماتية ونقادها » iPragmatist and Its critics ، كما فعل هذا في بعض (وليس كل) محاضراته .

وكان مور [يتمتع] بعقل متقد ، ذكى ، جدلى Polemical وحتى فى
p.182 بعض الأحيان عقلاً ساخراً Satirical . وكان أكثر ضعفاً من حيث البنية عن زملائه الأقوياء ، وأكثرهم اجتهاداً . وعاني معناة خطيرة من القلق -Insom nia ، ودفعه ضعف صحته إلى التقاعد المبكر عدة سنوات مما كان يرغب. وقد أخبرني ذات مرة أن [اعتلال] صحته جعله ينجز على الأقل نصف ما كان يأمل فى إنجازه . وكان مور فى أحسن حالاته فى ندوتين متتاليتين دارتا حول « أسس المنطق الحديث » Foundations of Modern Logic

و « المنطق الحـديث » Modern Logic ، وقـد غطت الندوة الأولى مـعظم الفلاسفة من ديكارت Descartes وحتى هيجل Hegel وركزت الثانية على مل Mill وبرادلى Bradley وبوزانكيت Bosanquet ورويس Royce ، وديـوى Dewey ، مع بعض الإشارات إلى الفلاسفة الواقعيين [أمثال] مونتاج Montague وهولت Holt ورسل Russell وسبولدنج Spaulding . أما مركز مور ذاته في المدرسة فقد كان مركزاً جوهرياً مثلما [تألق] ديوى في كتابه « «مقالات فى المنطق التجريبى » Essays in Experimental Logic ، الكتاب الذى حدده فى [الندوة الخاصة] بالمنطق الحديث عندما تناوله مع ديوى . واعتبر [مور] بحث ديوى الذى نشره عام 1896 بعنوان « التصور المنحنى فى علم النفس » The Reflex Arc Concept in Psychology (5) إنه « المقال الرئيسى فى الحركة البرجماتية » . وفى مكان آخر سمّاه « البحث الرائد فى الحركة البرجماتية » وقد فهمت من هذا أنه يعني أن البحث كان يعتبر بحثاً رائداً من الناحية التاريخية وبحثاً رئيساً بمعنى أنه كان يحتوى على أفكار جوهرية Basic ideas .

ولم يأخذ مور فى إعتباره مطلقاً التأثير العظيم لجيمس علي فكر ديوى ، وإنما أعتبر أن هذا الفكر [فكر ديوى] تطوراً مستقلاً عنه ، وإن كان قد نشأ فجأة بتأثير الصعوبات التي واجهت برادلى فى علم الأخلاق (« صعوبات برادلى أوجدت الحركة البرجماتية ») إنها عبارة وجدتها فى ملاحظاتى . لقد رأى مور أن برجماتية ديوى إنما هي ثورة أساسية على المثالية المطلقة

---

(5) المجلة النفسية Psychological Review العدد 3، 1896 ؛ لصفحات 357 - 70 وأعيد نشرها فى كتاب ديوى « الفلسفة والحضارة » Philosophy and civilization عام 1931 تحت عنوان « وحدة السلوك » The Unit of Behavior .

Absolute idealism, وبدلاً من أن يوجه فكر ديوى وأن يكون إنعكاساً للوضع السائد ككل ، فإن الواقع The Real لدى ديوى – وفى رأي مور – بحث p.183 لنفسه عن سبب الفوضى التي نشأت وسادت في المجال العضوى Organic circuit الذى يحيط بالكائن الحى وبيئته ، واعتبر أن من واجب الفكر أن يعيد ترتيب هذه الفوضى البادية أمامه . وبهذه الطريقة يقال أن ديوى أرسى الدعائم التي ترد على هذه الصعوبات الأخلاقية الصورية التي أوجدها موقف برادلي.

ولا أريد أن أترك انطباعاً على أن مور كان مجرد مدافعاً عن الإيمان De-fender of the Faith ، فبينما يعود فكر ديوى إلى التحليلات النقدية التى قدمها مور للمفكرين الآخرين ، فإن هذا الانطباع لن يظهر أبداً على السطح، لقد أعطانا دائماً انطباعاً يتسم بالقلق والشك لكل فيلسوف قام بدراسة أفكاره. أما أنه كان مدرساً فلقد كان مدرساً رائعاً .

ب - جيمس هايدن توفتس

James Hayden Tufts

اذا كنا نعتبر مور هو إمام المنطق (فيلسوف المنهج .، وفيلسوف نظرية المعرفة) لجماعة شيكاغو بعد ديوى ، فإن توفتس هو فيلسوف الأخلاق ، بل وأكثر من ذلك بكثير ، فهو فيلسوف القيم The axiologist حيث كان معنياً أيضا بعلم الجمال والنظرية الإجتماعية السياسية Sociopolitical theory ويسبب نشاطه الفعّال خلال فصليّ الدراسة فى حلقات السمينار ، فقد قام بتدريس الأخلاق وتدريب خريجي قسم الفلسفة مثلما كان مور يقوم بتدريس الطلبة على المنطق فى ذات الفصلين الدراسيين .

وكان توفتس منذ أن كان شاباً مهتماً بدراسة المجتمعات البدائية فقد درس

عاماً على يد سامنر Sumner في جامعة يل Yale ، كما درس هناك أيضا الاهوت Theology على يد هاربر Harper ، وعندما أصبح هاربر رئيساً لجامعة شيكاغو عيّن توفتس فى منصب أستاذ الفلسفة ، وهكذا أصبح توفتس فى جامعة شيكاغو قبل بديوى بسنوات ، وظهرت إهتمامات توفتس الأخلاقية قبل إتصاله بديوى ، غير أنه وجد أن ديوى مكملاً له فى إهتماماته الأخلاقية ، وقد قال لى ذات مرة أنه بعد كل نصف ساعة من حواره مع ديوى كان يشعر وكأنه استوعب كتاباً كاملاً . واقترح توفتس على ديوى خطة كتابه الشهير
p.184 «الأخلاق » Ethics ، وكتب مع ديوي الجزء التحليلى الثانى ، واهتم توفتس بكتابة الأجزاء التاريخية فى الكتاب أكثر من أى جزء آخر .

وأستمر تأكيد توفتس فى كتبه الأخرى علي المشكلات الأخلاقية المعاصرة [مثل] « أخلاق التعاون » The Ethics of Cooperation و « التكلفة الحقيقية للمعيشة » The Real Business of Living و « الأخلاق الإجتماعية فى أمريكا » America's social Morality وأكدّ من خلال بحثه الذى كتبه بعنوان « في أصل المقولات الجمالية » On the genesis of The Aesthetic Categories علي المنزلة الرفيعة التي يتمتع بها وقدرته الفائقه النظرية والعملية ، وأكد كذلك تأثير «الذكاء الخلاّق » Creative Intelligence فى كتابه الذى أصدره بعنوان « الحياة الأخلاقية وبناء القيم والمعايير » The Moral Life and The Construction of Values and standards (على الفرق بين تصورات « الخير » Good و «ما ينبغى أن يكون » ought بقوة أكبر مما فعل أى برجماتى آخر حتى سى . آى . لويس) :

وتلقيت مع توفتس مقررات (courses) علم الجمال ، و الفلسفة الإجتماعية و السياسية ، والأخلاق التطورية ، وحلقة دراسية حول علم الأخلاق ، وكانت

جميعها موجهة توجيهاً تاريخياً ، غير أن [المقررات] الثلاثة الأوائل كانت مليئة بمادة دسمة مأخوذة من طواف توفتس الكبير في الأدب ، و الأنثروبولوجيا والحياة المعاصرة ، و أذكر على وجه الخصوص معالجته المطولة للمذهب الرومانسى Romanticism والتطور الأخلاقى عند اليهود . وتناولت الحلقة الدراسية الطويلة فى الأخلاق [أعمال] هوبز Hobbes ، وشافتسبرى Shaftesbury ، وهو تشنسون Hutchinson ، وبطلر Butler ، وكلارك Clarke وهيوم Hume ،وادم سميث Adam Smith ، وبنثام Bentham وبالى Paley وسيدجويك Sidgwick ، وت . هـ . جرين T . H . Green وبعض الدراسات عن بوزانكيت Bosanquet وهو بها وس Hobhouse وديوى . وقد ركز توفتس متجنباً نظرة ديوي التطورية فيما يتعلق بالمثالية المطلقة - ، ركز على أهمية رد الفعل النقدي لديوى تجاه ت . هـ . جرين [6] ، تماماً كما ركز مور على رد الفعل النقدى لديوى تجاه برادلى .

وربما كان توفتس - بسبب تأثيره علم الأنثروبولوجيا على تكوين اهتمامه الأخلاقى - أكثر حذراً من ديوى فيما يتعلق بالمدى الذى يستطيع الإنسان
أن يصل اليه أو بما يجب عليه من ركونه إلى أهمية العلم في الحياة p.185
الأخلاقية ، وبرغم ذلك فقد اتفق مع ديوى على أهمية تقديم الذكاء النقدى للإنسان على سلوكه الانسانى .

وقد ركز توفتس على أهمية الخبرة الجمالية قبل أن يوجه ديوى اهتمامه بفترة نحو الفن ، وربما كان لهذا علاقة بتأكيده الثابت على تكامل الفرد

---

(6) أنظر : مقال ديوي « نظرية جرين عن الدافع الأخلاقى » Green's Theory of the Moral Motive الصفحات 593 - 612 .

والمجتمع . وكتب فى أحد كتبه أنه [يجب على الإنسان] أن يعبر عن المثال إما باعتباره كائن « فردى اجتماعى » Social Indivi dual أو باعتباره « المجتمع الذى يدرك النزعة الفردية » * لقد اعتقد أن ذلك كان مثال الديموقراطية الأمريكية ، فكان يهتم إهتماماً ملموساً بالرأى القائل أن هذا المجتمع يجسد هذا المثال [الديموقراطي] وهو آخذ فى تقدمه .

ووجدت فى كراسة الملاحظات هاتين العبارتين الأولى : « إن أمريكا تتحرك بثبات نحو الرقابة الإجتماعية » والثانية « إن القيمة المطلقة إنما تكمن فى الشخص الكامل ».

وكتب توفتس في كتابه « التكلفة الحقيقية للمعيشة » يقول « إن أجمل وأوسع معني للديموقراطية هو أن جميع الناس يجب أن يشتركوا بأوسع مدى ممكن في أحسن حياة » . ورأي توفتس أن هذا كمثال يمكن تطبيقه على البشرية [لذلك] ركز على أن الانسان يجب أن يتخطى حدود النزعة القومية Nationalism إلى النزعه العالمية Internationalism ثم ينتقل منها الى تكوين هيئة سياسية أكبر تكون هى القاسم المشترك Mutual Destiny ، « إن الولاء للبشرية يجب أن يكون هو الهدف الأسمى فى نهاية الأمر ** .

جـ - إدوارد سكريبنر آمز

Edward Scribner Ames

حصل آمز على درجة الدكتوراة الأولى عام 1895 من قسم الفلسفة

---

* the society which recognizes individuality.
** Loyalty to mankind must finally be supreme.

بجامعة شيكاغو وإنضم الى أعضاء هيئة التدريس عام 1900 بعد أن قام بتدريس الفلسفة والتربية فى كلية بطلر Butler College لمدة ثلاث سنوات .كان آخر من مات من أعضاء مدرسة شيكاغو (عام 1958 عن عمر يناهز 88 سنة) . وكان أول إتصال لى بالقسم عن طريقه عندما سجلت بالقسم عام 1922 ، وعرفته أكثر ممن عرفت من أعضاء القسم ، فقد رأيته كثيراً أثناء سنواته الاخيرة من حياته المديدة . p.186

جاء آمز من مدرسة يل للاهوت إلى شيكاغو فى السنة الأخيرة من دراسته قبل التخرج ، و تأثر تأثيراً عميقا بكل من جيمس وشوبنهور Scho-penhauer ويكونت إلى حد ما . وعمل بوجه عام فى شيكاغو مع توفتس ، وجاء تأثره بالعلم من خلال دراسته لعلم النفس والأنثروبولوجيا، وتزايد إحساسه بأهمية العلم الإجتماعى من خلال العمل الدائر فى شيكاغو وعلى وجه الخصوص أعمال توماس . W . I . Thomas.

وكان آمز قسيساً بكنيسة الجامعة لجماعة حوارىّ المسيح لمدة أربعين عاماً مع بداية عام 1900 ، فضلاً عن كونه عضواً بقسم الفلسفة والذى درّس به لمدة 35 عاماً . وعلى الرغم من أنه أعطى بعض المحاضرات فى علم النفس والأخلاق و المنطق وتاريخ الفلسفة ، فإن مجال عمله الأساسى كان علم النفس وفلسفة الدين ، ويعتبر كتابيه « علم نفس الخبرة الدينية The Psychology of Religious Experience و « الدين » Religion أكمل ما أنتج وقد نبعا من فكره و خبرته في مجال الدين .

وألقى علىّ آمز مقرراً واحداً هو علم نفس الدين ، وعندما أنظر فى ملاحظاتى فإنه يبدو لى أن آمز كان يعمل وفق أنموذج [معين] فى كيفية تناول المشكلات في ذلك الوقت أخذه من برجماتيو شيكاغو واستخدم فيه

مصطلحات علم النفس الوظيفى .

وكان التركيز على الدين بإعتباره شكلاً من أشكال النشاط الإجتماعى ، وعلى الأفكار الدينية بإعتبارها الأدوات التى تتعامل مع الصعوبات التى يواجهها الناس في ذلك النشاط . وكانت دراسة النشاط الدينى تتم باعتبارها أساس النشاط الذى نصل عن طريقه إلى القيم العليا التي تتعلق بالحياة الإجتماعية لأن الصعوبات تواجه مثل هذا الكفاح من أجل القيم ، أما الشعائر الدينية فهى مجرد وسائل للتغلب على هذه الصعوبات والوصول بها
p.187 إلى الأهداف المرجوة . فالشعيرة بهذه الطريقة هي نشاط عمل أساسى ، تسبق الأسباب التي تقررها وتبررها . وتعد الأسطورة والصلاة جزءاً أساسياً من الشعيرة ، كما تم تفسير فكرة الله على أساس أن الكون تدعمه مثل هذه القيم ، منظوراً اليه من وجهة نظر الحياة الإجتماعية التى جعلته مثالياً Idealized ومشخصاً [مجسداً] Personified .

وحاول آمز عن طريق نشاطه فى كنيسة جماعة حوارىّ المسيح فى الجامعة أن يجند الدين لخدمة ا لقيم الإجتماعية العليا للإنسان المعاصر ، وكان تأثيره عظيماً على مجتمع جامعة شيكاغو وبالتالى على جماعة حوارىّ المسيح كحركة دينية فعلية . أما الروح التى كانت تسرى فى حياته فإنها تبدو ماثلة حية في سيرته الذاتية Autobiography التى أصدرها ڤان ميتر آمز Van Me-ter Ames ونشرت تحت عنوان « فيما وراء اللاهوت » Beyond Theology

ولست أدرى إن كان ديوى قد وضع أمامه شرح آمز عندما كتب كتابه عن الإيمان المشترك [العام / الشائع] A Comman Faith ، ولكن الموقف الذى أخذه هو نفس الموقف الجوهرى الذى فصّله فى كتابه منذ سنوات كثيرة مبكرة والذى تمثله خلال الأربعين سنة كقس Pastor لكنيسته .

د- جورج هربرت ميد

George Herbert Mead

قال ديوى عن ميد فى بحث أعده بمناسبة حفل تأبينه عام 1931 : " إن عقله كان أصيلا عميقا [وقد عرفت ذلك] من خلال اتصالاتى به وحكمى عليه ، فهو أكثر العقول الفلسفية أصالة فى أمريكا فى الجيل الأخير ... وأكره أن أفكر كيف كان يمكن أن تكون أفكارى إذا لم أتمثل أفكاره التى اشتققتها منه " .

p.188 وقد درس ميد لفترة مع جيمس ، ولكنه لم يكن تلميذاً لديوى . وأنهى دراسته وتخرج في برلين Berlin ثم عُين فى جامعة ميتشيجان . إذن فقد قابل ديوى ميد وبدأ معه صداقة إعتبرها ديوى « شيئا كإحدى أغلى الأشياء التى أمتلكتها فى حياتى " * ، وأحضر ديوى ميد الى شيكاغو ، حيث ظل بها الثانى حتى وفاته عام 1931.

درّس ميد فى جامعة شيكاغو مقررات فى علم النفس بالإضافة إلى الفلسفة ، وكان مقرره فى " علم النفس الإجتماعى » هو محور تدريسه . وكان للمجهود الذي بذله سنة بعد أخرى تأثيره القوى على علماء النفس والاجتماع فضلاً عن طلاب الفلسفة . وجمع من مذكراته التى أختزلها لمحاضراته (ومن ملاحظات طلبة آخرين) كتابه " العقل و النفس والمجتمع » وهو كتاب كلاسيكى تماماً . وكما يشير عنوان الكتاب فقد كانت طبيعتى العقل والنفس هى المشكلة الرئيسية لميد ، وأحال نشوءهما إلى العملية الإجتماعية . وهناك مقرر آخر أساسى هو « مشكلة الوعى » The Problem

---

(*) One of the most precious possessions of my life.

of Consciousness شاهد صدق على عمق إهتمامه بفلسفة العقل .

وكان ميد أكثر من مجرد عالم نفس إجتماعى . فقد أصبح مهتماً اهتماماً متزايداً بمكانة العقل الإنسانى فى الكون ، وقد حرّك اهتمامه [بهذا الموضوع اتصالى بدرجة عظيمة بالأعمال المبكرة لهوايتهد ، وكانت بداية إتصاله به عندما كنت طالباً ، وكانت بداية تلقائية ظهرت من خلال دراستى لعلمه : " النسبية من وجهة نظر برجماتى " Relativity from the standpoint of a Pragmatist . ولم يمتد العمر بميد حتى يتمكن من إتمام دراسته المفصله عن الكوزمولوجيا تفصيلاً كاملاً وقد بدأ يتجه لدراستها ، غير أن محور عمله الذى كرّس نفسه له ظهر في كتاب وضعه لكي يكون لب محاضراته فى كاروس Carus Lectures هو " فلسفة الحاضر "The philodophy of the Present ، وفى كتابه الذى تركه مخطوطاً ومات بعنوان " فلسفة الفعل " -The Philoso phy of the Act . و على ضوء مشروع فكره ككل أعتقد أنه من الصحة أن p.189 نقول أن ميد كان آخر الكوزمولوجيين فى جماعة شيكاغو ، كما كان مور آخر المناطقة ، وكان توفتس آخر علماء الأخلاق ، وكان آمز آخر علماء الدين .

وكان ميد يفضل إلقاء المحاضرات عند حضور الحلقات الدراسية [سمينار] باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير . ويذهب الواحد منا إلى محاضرات ميد ليستمع إليه ، ويعيش خبرة عقل فلسفى رائع وهو يعمل ، وكان ميد يبدو كما لو كان يتحدث بصوت عالٍ إلى " شخص آخر غير محدد المعالم -The gen eralized Other أكثر مما كان يتحدث إلى طلابه المحتشدين ، وكانت محاضراته رائعة ، حتى أنه يمكن نشر أى من محاضراته التى كان يلقيها [دون إية إضافات] ، ولقد استمعت إليه يلقى ثلاث محاضرات الواحدة تلو الأخرى في ثلاثة موضوعات مختلفة ، وتعتبر كل محاضرة منها " جوهرة "،

وقد فعل هذا دون [تدوين] ملاحظات من أى نوع ، فقد أعدت المحاضرات بعناية تبدو وكأنها تأتى عرضاً . وذات مرة بينما كان علي وشك إلقاء المحاضرة النهائية إبّان نهاية الفصل الدراسى وبداية الإختبارات (ولم يكن ميد يختبر طلابه) ، بدأ فى إلقاء المحاضرة ولكن فى موضوع آخر . فقاطعه أحد طلابه منبهاً إياه أنه خلط بين الموضوعات ، عندئذ وقف ميد قائلاً : " إذن فليس لدي شيئاً أقوله " وترك القاعة خارجاً .

وكانت أفكار ميد تشبه المياه المترقرقة [الصافية] التى تنبثق من مصادر خفية حتى محاضراته القديمة التى كتبها فى شكل ملاحظات كانت تبدو غضة ومتلئلئة . وذهبت إلى شيكاغو لأول مرة للعمل مع ميد ، وكانت المكافأة مجزية حقاً .

وأختتم حديثى عن مدرسة شيكاغو البرجماتية بإضافة نقطتين :

النقطة الأولى : خاصة بالدور الهام الذى قام به أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو ومدى تأثيرهم فى القوى الليبرالية والتقدمية لأمريكا فى عصرهم ، فقد انتشرت مشاركة ديوى الإجتماعية على اتساع الأمة ، انتشاراً قوياً خرافياً Fabulous .، وتدخل كل من مور وتوفتس وآمز وميد بعمق فى معالجة مشكلات وشئون مجتمع شيكاغو ، وفى تحكيم إدارة العمل In management labor arbitration ، وفي المدارس العامة ، وفى الموضوعات المتعلقة بالمدينة ، وفي تنظيم العمل ، لقد كانوا رجالاً مترابطين يتصفون بدرجة عالية من تكامل القوى النفسية [الأخلاقية] وكان توجههم الفلسفى ومشاركتهم الإجتماعية تبدو كنسيج واحد ، فقد كانت الفلسفة التى أنشأؤها وعلموها هى نفسها حياتهم التى عايشوها .

النقطة الثانية : تتعلق بنهاية مدرسة شيكاغو ، وجاءت هذه النهاية بناء على قرار إختياري (إرادي) وعلى الرغم من ذلك فلم يتم هذا في لحظة بعينها ، لقد ساد شعور عام بأن الجماعة قد أنهت عملها . وآن للقسم * من الآن فصاعداً أن يعلن عن وجهات نظر متباينة .

ولقد كنت محظوظاً أن أكون طالباً في جامعة شيكاغو عندما كان بها مور وتوفتس وآمز وميد ، وكانوا جميعا في أوج قوتهم . وسرعان ما بدأت مكانة الجماعة تتضاءل . فقد مات مور أولاً ، ثم ميد ، ثم توفتس ثم آمز ، وأعلن ديوي عن فكرة رائعة هي أن شيكاغو قد عاشت مرحلة تطويرية أوركسترالية [جماعياً] an orchestral development وأن كتاباته الأخيرة تضمنت هذا التطوير كنهاية متكاملة .



---

* يقصد قسم الفلسفة بجامعة شيكاغو [المترجم].

محتويات الكتاب

تنويـــه

معظم الأقواس التي فى الكتاب من وضع المترجم فقد أضافها حتى يستقيم المعنى، أو يفسر جملة ، قد تكون غامضة على القارئ اذا وضعت دون هذا التفسير الموجود بين الأقواس لذلك لزم التنوية .

كما أود الاشارة الى أن الترقيم الموجود على يمين الصفحات هو أرقام الصفحات فى الكتاب الاصلى .

المترجم .

مطابع رويال
طباعة أوفست
كمبيوتر ليزر
صاحبها ومديرها : محمد بسيوني
خلف ١٦١ ش فرنسا ت: ٤٨٠٩٠٠-٥ إسكندرية